مؤسسة فكر للأبحاث والنشر

عبد الله قبرصي يتذكر 2

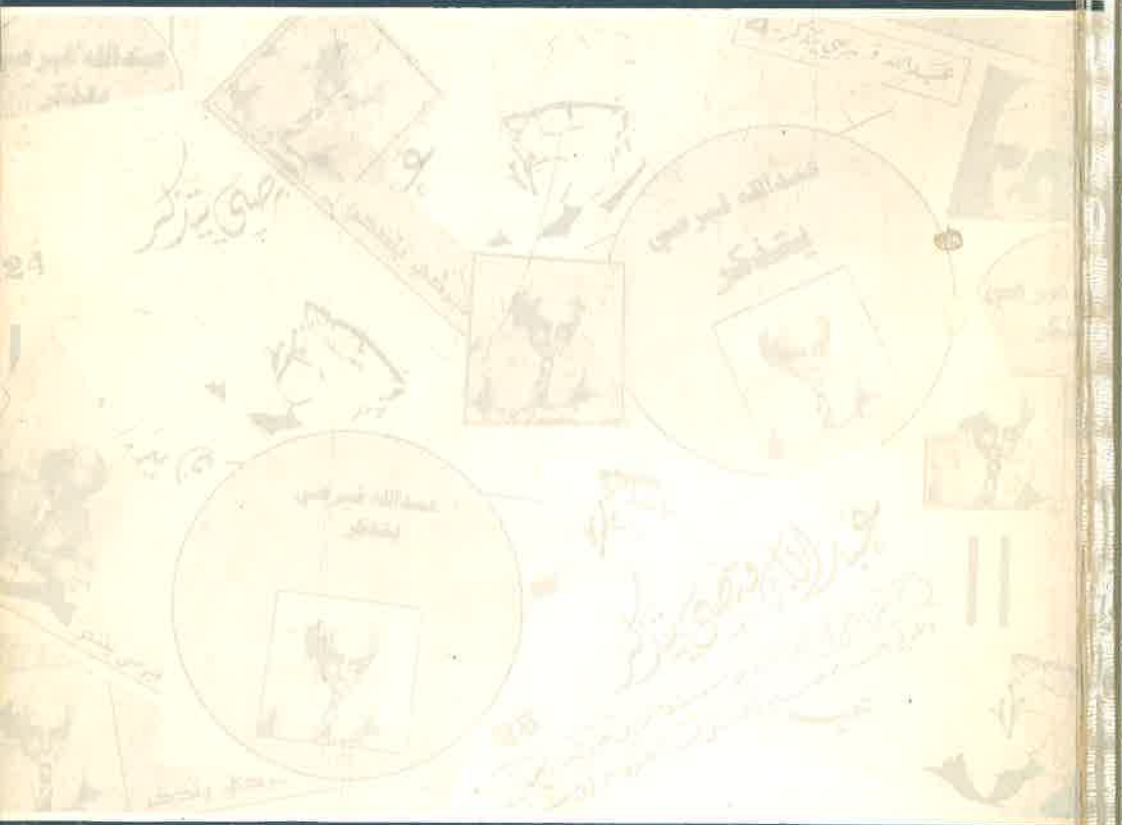

تأسيسُ الحزبِ السُوري القوميِ الاجتماعيِ
وبدَايَات نضاله

15000
$1.0

96424

عبدالله قبرصي يتذكر

مؤسسة فكر
للأبحاث والنشر
بيروت -
ص.ب : ١١٣/٦٤٠١

الطبعة الاولى 1982
جميع الحقوق محفوظة

عبدالله قبرصي يتذكر

تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي وبدايات نضاله

الجزء الثاني

الإهداء

إلى المناضلين في سبيل القضية القومية المقدسة
وفي سبيل قضايا الحرية والتقدم
رفقاء وحلفاء وأصدقاء ومناصرين

عبد قبرصي

صدر للمؤلف

- وحي الظلام (شعر) ، 1945
- نحن ولبنان ، 1954
- مصرع السمنة ، طبعة ثانية 1970
- عبد الله قبرصي يتذكر (1) ، 1982

مقدمة

الرسائل والمكالمات الهاتفية والمقالات حول صدور الجزء الاول من كتاب عبد الله قبرصي يتذكر أهابت بي ان ابادر الى طبع الجزء الثاني ، وان استعد لكتابة الجزء الثالث ، عملا بالعهد الذي قطعته على نفسي ، في حال حيازة الجزء الاول رضى القراء وقبولهم .

لا بد لي ان استعيد في مقدمة هذا الجزء ، بعض ما قدمت به الجزء الاول ، لأن الجزئين يتكاملان ، بل ان الجزء الثاني والجزء الاول كيان واحد جزىء بسبب كثرة عدد الصفحات الى كتابين .

لقد كتبت في مدخل الجزء الاول باني « لا اكتب مذكرات او ذكريات ، بل ادون وثيقة يصح الرجوع اليها لكتابة تاريخ حزبنا السوري القومي الاجتماعي وتاريخ مشاركتنا في الحرب ضد الصهيونية والامبريالية والرجعية » والصحيح ان شهادتي هي ذكريات ، لأن ما اشهد به انما هو حقائق اذكرها بحذافيرها ، وتظل حقائق الى ان ينبري القياديون مثلي الى تصحيحها استنادا الى مراجع اصدق من ذاكرتي او ذاكرتهم .

ولقد قلت بان امنية عزيزة كانت تراودني منذ عودتي من منفاي في فنزويلا في منتصف 1969 هي تدوين ذكرياتي وطبعها .

فاذا بعميد الاذاعة في حزبنا الامين حافظ صايغ ووكيله الرفيق جبران عريجي يشقان لي الطريق ، اذ يفتحان لي بابا في مجلتنا « صباح الخير » تحت عنوان عبد الله قبرصي يتذكر ، فيلزماني بالبدء والمتابعة حتى اصبحت ذكرياتي بحجم الجزء الاول ، والجزء الثاني الذي يرسل الى المطبعة مع هذه المقدمة .

صحيح اني اتحدث عن نضالي ولكني لم اغفل نضال الآخرين على الاقل بما اتذكره عنهم . ان الذين ترهبوا في الحزب وتسلموا مسؤوليات أعلى واستمروا في

الساحة دون انقطاع أولى مني بالمسارعة الى تدوين ذكرياتهم ، كي نتكامل فنقدم عندئذ صورة شاملة عن عملنا الحزبي في الظروف العصيبة التي رافقت التأسيس والتي كانت تزداد مع الزمن احترارا وثقلا .

لقد بدأ الامين جريج مرحلة التدوين ، فأكملت انا من بعده ما تيسر لي تذكاره ، منتظرا من الباقين في الميدان او خارج الميدان ان يمدوا اقلامهم الى ذاكراتهم ويسحبوا منها ما تكاد الاطراء تخفيه حتى النسيان !

انني كتبت وسأكتب لأن خبرتي الطويلة في العمل الحزبي ــ والنضال بعض سماته ــ الممتدة على خمسين سنة تقريبا ، تؤهلني ان اعرض للواقعات والاحداث لا كمراقب جامد ، يسرد ويروي دون ان يتوقف او يستوقف ليستقرئها معانيها وابعادها ، بل كمحاكم وناقد لأن المستقبل هو ابن الماضي والحاضر ، بل ان الماضي والحاضر هما مدرسة المستقبل ومعلمه وهاديه !

نحن نحيا في لبنان منذ سبع سنوات مرحلة مصيرية ، نحن وباقي الاحزاب التقدمية والهيئات الوطنية والشخصيات الفاعلة ، يكاد السلام وحده ينطق ويؤثر . الا ان ايماني بالكلمة والفكر وبانهما يحلان مشاكلنا ومعضلاتنا وازماتنا هو الذي دفعني بين باقي الدوافع الى اعتماد الكلمة لنشر الماضي على آلام الحاضر وافراح المستقبل ، لأن المستقبل لا يمكن الا ان يكون فرحا ، فالتقدم من صنع الآلام والتضحيات ، من صنع الحروب والقلاقل ، والانسان ابن دمائه اكثر مما هو ابن راحته ، وان آلام شعبنا وتضحياته وصموده وصبره ، هي التي ستنقذنا من شرور اسرائيل ومن شرور عملائها ، وتعيدنا الى المحبة والوئام ، في لبنان ارض الحرية والمحبة والسلام ، وفي سوريا الطبيعية كلها وعالمنا العربي الذي تتصارع فيه الرجعة مع التقدم ، لينتصر التقدم فيه ولو بعد حين .

اكرر في هذه المقدمة شكري لمن تحملوا معنا التضحيات ولمن شجعوني على نشر هذه الذكريات وساهموا في طبعها كالصديق العزيز و.أ.رزوق .

والى اللقاء في الجزء الثالث

عبد الله قبرصي .

ملاحظة هامة

اني اشدد على ان التسلسل التاريخي في هذا الجزء كما في الجزء الماضي لم يكن دقيقا ، خاصة في ما نشر عن اديبنا الكبير سعيد تقي الدين الذي لم يدخل الحزب الا سنة 1951 .

لم تطل غيبتنا عن القويطع الحبيب ، ما شط بنا المزار ولا بعدت المسافات ، ها نحن في البيت نفسه ، بيت الخوري جرجس الخوري ، والد المطران بولس والدكتور نسيم والمحاميين ابراهيم وفهيم ووالد حماتي مريم . البيت اليوم تجدد وتعصرن . كان في القديم يتألف من واحة تنتهي بغرفتين ، ثم من عقد يحتوي على صالون فسيح وغرفة للمنامة والسفرة ، اخوال زوجتي وجدتها كانوا يقيمون في بيروت ، فالبيت لنا مشاع .

عدنا الى الدوران في بيوت بتعبورة . والى النوم في العراء ، ساعة يسمح الطقس التشريني . كانت صحتي قد عادت الى عهد شبابها وزالت الوساوس والهواجس ... بدأت بالكتابة . وتدوين مذكراتي ... كنت اكتب عند توفر الوقت وسنوح الفرصة . الفارون من وجه العدالة ، اذا لم تكن على اكتافهم مسؤولية كسالى كسالى . كنت اقرأ اكثر مما اكتب . وكانت القراءة بالنسبة لي ولا تزال خير الملهمين . لا ينتج المرء بدون حوافز،القراءة والجمال والانفعال العميق حوافزي المؤثرة الدافعة .

ما لقينا بعد العودة الا الترحاب واللهفة . الروح الرفاقية ، اضف اليها القرابة والصداقة . تطغى على كل شيء آخر . اسف الناس ان فترة حريتنا كانت قصيرة . ولكنهم عن محبة وصدق . فتحوا لنا قلوبهم وابوابهم ، من جديد كأنما كانوا يتمنون ان نعود . المحبة لا يجد الانسان كلمات لوصفها . انها الحياة .

اذا توسعنا في الاسماء التي رافقناها او استضفناها في رحلة التشرد الجديد او ذكرنا الحفلات والمآدب التي كانت تقام لنا . على الرحب والسعة ، يمل القارىء منها لانها لا تغنيه باي جديد ، ولذلك سأذكر عن هذه المرحلة التي امتدت من 9 تشرين الاول 1941 الى 2 تشرين الثاني 1942 بعض الحوادث الجذابة ، لكي تظل آثارها واحيانا مآثرها ــ حاضرة لا لأنها طريفة او ظريفة . بل لأنها بالفعل جزء من حياة التشرد لا يجوز اغفاله . اننا نتذكر فلنذكر الخيرين بالخير .

لقد كان اول حدث وصول جورج عبدالمسيح الى المنطقة واشتراكنا معا في التواري والتخفي ، وفي ادارة العمل الحزبي ، علما بانه كان المسؤول الاول لا انا .

مع جورج عبدالمسيح في دنيا التشرد

باكرا في يوم من ايام كانون او اواخر تشرين الثاني 1941 جاءني الرفيق الراحل

حنا نقولا داغر (بتعبورة) يهمس في انني : وصل جورج عبدالمسيح ليلا الى بتعبورة ، انه في منزلنا . فقفزت لتوي فرحا .

كنت انتظر كل المفاجآت الا هذه المفاجأة . الرجل في بيت مري وساحته المتن وبيروت والشوف والبقاع . لماذا يختار الكورة مقرا ... ؟ آفاقه هناك رحبة ، تضيق هنا في الشمال ، لولا انه ينوي امرا جللا .

وصل جورج قادما عبر الجبال والاودية . مشى خمس وثلاثين ساعة ، كاد ان يعلق في المغيرة والعاقورة .سلاحه عباءة وخبرته وكيس فيه بعض الزاد ، وكوفية وعقال ، ومسدس ستير Stair نومرو 9 محشو بالرصاص مع بعض الذخيرة الاحتياطية .

وصفه حنا نقولا بانه « مرهق ، مدمى القدمين ، لقد انفختت جزمته ، ومزقت رجليه مساميرها ، وصل جائعا وتعبا رجلاه لاتحملانه والا لكان جاء اليك . ابق وجوده هنا طي الكتمان » .

كان الرجل من الجبابرة والا كيف سلك وحيدا كل الجرود في مسالكها الوعرة والزمن شتاء والبرد قارص والثلج على الابواب . وهو مطارد وملاحق . قيافته تدل عليه اذا كان غير معروف في تلك الجرود القاسية .

لم انتظر الا حتى ارتديت ثيابي وتلفلفت بالشالات الصوفية ادفع عن انني البرد الشمالي المؤذي ، ورحت مع حنا نقولا نمشي عدوا لكثرة ما كنت اشتاق ان ارى رفيق السجن والجهاد . هل نسي القاريء قوله لي : « موت ومعلكش » ... لا ازال حيا ولا يزال ، وها نحن نلتقي طريدين شريدين . نقدم ما استطعنا للحزب ، ونتقي شرور القيود والظلمات بما عز وهان من الجهد والحيطة ... والمتاعب .

وتعانقنا ... وسعدنا باللقاء . جورج عبدالمسيح في تلك الايام كان قدوة في رباطة جأشه وصموده وصبره وتواضعه. لم تكن قد دبت في رأسه العقد ، اللهم الا بعض الغيرة من نعمة تابت ومأمون اياس ... الغيرة والحسد قاتلهما الله كم قتلا من الطيبين والطيبات .

كان جورج معروفا بيننا بشدة بأسه بقوته الجسدية وباستخفافه بالمصاعب والمخاطر ... كانت اذنه التي قضمها جورج حداد تدل عليه ... فاذا لم تدل دلت عليه الكوفية والعقال يرتديهما غطاء لرأسه كأنما هو من رجال الصحراء او من عشائر شمر او الشعلان الضاربة في بادية الشام .

لم اعد وحدي عالة على القوميين الاجتماعيين . لقد صرنا عالتين . الا ان الامين جورج كان محترما ومهابا ومحبوبا في ذلك الزمان . فما استثقل ظله احد . كانت الثقة مطلقة فهو قادم من سنتين ونصف من السجن ، الشاق المضني وهو من الرعيل القومي

الاجتماعي الاول ، واحد اعوان الزعيم المميزين . اضف الى هذه العوامل انه ابن قرية في نفسه كل فضائلها واهمها البساطة وروح التعاون .

لقد بدأنا بعد ايام قليلة من وصوله وبفضل الاجماع على محبتنا وحمايتنا نظهر امام الناس ، اقيمت حفلة راس السنة في مدرسة القرية . فكنا مع المدعوين ، نشرب ونطرب .

وفي عرض الرفيق اديب بربر وجليلة سليم لطف الله الخوري ظهر عبدالمسيح علنا واذكر انه اطلق عيارا ناريا من مسدسه ابتهاجا وحماسا فبقيت الثغرة التي فتحها في السقف زمنا طويلا تشهد على نزعته القروية في اللجوء الى اطلاق النار في الاعراس والمآتم كما تشهد على قلة احترازه وقلة حكمته .

كان الشتاء يحمينا . وكنا نقتل الوقت في لعب الشطرنج والقراءة والكتابة . وكنا نتحاور ونتناقش بحرارة وغضب وصياح احيانا مما دل ان بيننا خلافات في وجهات النظر عميقة وبعيدة منذ ذلك التاريخ .

ثم كانت لقاءاتنا مستمرة مع القيادات الحزبية في العلويين والشام وطرابلس وكل الشمال . لم يكن بالامكان الاتصال بفروع المتن والشوف . كا ن يتولاها من هم خارج القفص من رفقائنا القياديين كحسن الطويل حمادة وكامل ورفيق ابو كامل وسواهم .

اهم ما ربحته من جورج عبدالمسيح اني لم اعد بحاجة الى مرافق ، وان الوحدة التي كانت تأكل اعصابي احيانا . لانشغال الناس عني باعمالهم وحقولهم ، استؤصلت من جذورها ، صار ما اشكو منه كثرة القادمين والغادين . يلحقون بنا حيثما نحل ، ليتعرفوا الى جورج عبدالمسيح بعد ان كانوا تعرفوا الي طوال سنتين ونيف .

كانت زوجتي تهتم بمأكلنا والمشرب . طالما نحن في بتعبورة ، وكانت ترسل لنا ما تيسر مع ملاكنا الحارس شقيقتها الثالثة ليلى ، فتجلس ليلى بعيدا تنتظر ان ننهي اكلنا فتحمل الصحون الفارغة وتعود ركضا لا تلوي على شيء . كانت في مطلع سن المراهقة تحمر وجنتها خجلا اذا مازحها جورج فنضحك معا حتى نستلقي ، سألها مرة حل هذه الاحجية . كردي ونصف بقرش ونصف فكم يساوي سبعة اكراد ، كانت ضعيفة في الحسابات فرددت وهي تبتعد عنا ركضا ، بخمس قروش ، بسبع قروش .

ما تركنا بيتا من بيوت رفقائنا في القويطع الا زرناه . نحل على الرحب والسعة ، تؤمن لنا الحراسة وكل الخدمات ، لا نحتاج لا لثمن سجاير ولا لأي نفقة .

ولأعطي صورة عن اندفاع الرفقاء والمحبذين ، اروي هذه الواقعة : في احدى ليالي الشتاء كان علينا ان ننتقل من دار الرفيق نديم جواد عدرة في كفريا الى بلدة راس

نحاش (جعلها الكتائبيون في الحرب الاخيرة اثرا بعد عين) والطريق اليها طريق ماعز ، تنحدر ثم تعلو تضيق ثم تتسع والعتمة الداجية لا ترحم عيوننا ولا الاقدام ، نقع ثم نقف لنقع من جديد . هاجمتنا كلاب راس نحاش عند مدخلها والناس نيام . اردت ان اسكتها وان اتمرجل فاطلقت عيارا ناريا من بندقية صيد كنت احملها فدوت الطلقة في الوادي وفي آذان النيام ، فاذا اصوات تعلو وتسأل : مين الزلم ؟ ... مرافقون قالوا انهم اطلقوا النار على الكلاب لترويعها ؟ اما نحن فاختفينا وراء الحيطان ... ولما هدأت الحال تقدمنا الى بيت رفيقنا محمد الخطيب ، في قلب القرية ، فاذا اهل البيت ساهرون ... واذا بناطور القرية سهران معهم .

فوجئنا وفوجيء المرافقون وبينهم عبدالله الصديق وفوزي عدرا (الامين حاليا) على ما اذكر . حسين محمد الخطيب ، كان في مطلع شبابه فما ان وقعت عينه على جورج حتى صاح به : انت جورج عبدالمسيح ، وهب يعانقه وجورج يبتسم له بحذر ودهشة الناطور فهم ولم ينبس ببنت شفة وبعد دقائق انصرف ، كانت الساعة قد بلغت منتصف الليل .

ما كان الناس يهتمون بان ننام على فراش وثير . همهم كان الا نعلق في فخ السلطة . ففرش لنا اهل الدار فرشتين كيفما اتفق وودعنا المرافقون وخلدنا نحن الى نوم يمكنني وصفه بنوم الخائف او المرتاب ! واستيقظنا قبل بزوغ الشمس فاذا المطر قد انهمر طوال الليل والدرب تضج بخرير المياه وثغاء الماعز .

مضت دقائق ، فاذا القهوة حاضرة يحملها الينا المرافقان اللذان ودعانا في منتصف الليل الفائت عبدالله الصديق وفوزي عدرة ومعهما حسين الخطيب . ساورتهم الظنون بالناطور فتداولوا وقرروا دون علمنا رصد الطرقات المؤدية الى الكورة والى البترون ليسدوا عليه ، كل السبل اذا ما صمم على الوشاية .

الرفقاء الثلاثة يعملون في شركة الترابة من الثانية صباحا حتى الرابعة مساء ، ما ناموا الليل ارضاء لضميرهم القومي وقياما بواجب الضيافة والحراسة .

انكر هذه الواقعة ليتعلم الرفقاء اينما وجدوا ، خاصة الجدد منهم ــ ان القوميين الاجتماعيين عملوا في مطلع عهد النهضة بعقلية الجنود الرسل . بعقلية التيقظ والتحسب لكل كبيرة وصغيرة . اننا نكتب ذكرياتنا لنسجل لهم هذه البوادر الرائعة من التضحية ونكران الذات .

بقينا انا وجورج نطوف المنطقة من بدنايل الى كفريا الى كلباتا الى راس نحاش الى كفتون وكفر حاتا وبتعبورة طوال اربعة او خمسة اشهر .

4 شباط 1942

كنا قد تحكمنا باعصابنا ايما تحكم . كنا ، جورج وانا ، قد نفضنا ثوب الفارين من وجه المظالم لنرتدي ثوب القيادة . صارت بتعبورة وكفرحاتا والمنطقة محجة الرفقاء من كل حدب وصوب ، لم نعد نتمنطق بالحذر . دفنا الحذر في آبار بتعبورة والقويطع . ها هي الامينة نجلا معتوق حداد تقبل علينا من طرابلس ، تأتي بالمعلومات لتعود بالتعليمات ، ها هو نهاد حنا (توفي باكرا هذا الرفيق المناضل المتدفق شبابا وحيوية يحضر من كفر حزير لينقل التعاليم والاوامر الى سائر فروع الشمال واحيانا الى بيروت والمتن . اهله كانوا يقيمون في جل الديب . والده محام شهير . ثقفه اهله وعلموه ليكون معهم على الدهر فاذا هو والدهر عليهم . كيف اجتمع نهاد والامينة نجلا في يوم واحد ؟ لست ادري .

دبت بنا روح الفوضى في ذلك النهار . الثالث من شباط 1942 خرجنا الى الفضاء تماما كما لو كان صدر مرسوم بالعفو تصرفنا في القرية كانما لا دولة ولا فرنسا ولا امن عام ولا درك .

بعد الظهر جاءني دركي اصله من بتعمورة وله فيها اقرباء (توفي منذ مدة قريبة) وحذرني من وقوع كبسة في ذلك المساء . راى اعدادات غير اعتيادية في مركز الكتيبة في طرابلس ، فاجتمعت بعد الاستماع اليه الى جورج عبدالمسيح ونجلا ونهاد . وبسرعة اتخذنا قرارا بالتفرق . نجلا ونهاد يذهبان لتوهما الى طرابلس ، اما جورج فيتجه الى تنورين ، سرت معه حتى مشارف كفتون واوصيته الا يغيب عني طويلا . ثم ارسلت امرا مستعجلا الى الرفيق جميل فارس من كفتون بان يصطحب ايا من الرفقاء وان يمر بي لاصطحابي في الليل اليها .

اما انا فانتقيت بيت الرفيقة لولو نصار زوجة الرفيق جليل سويد لأوي اليه حتى حلول ساعة الرحيل . ما رحمني القدر . ميازيب السماء انفتحت تهدر الامطار منها كأنما استحالت السماء بحرا والميازيب انهرا . العتمة صاخبة بالبرق والرعد . لولو اشعلت نارا حامية وراحت تشوي لي الكستناء وتقدم لي النبيذ المعتق ــ العتمة تتجمع

ولا تتفكفك . السيول تعربد في النهر القريب وعلى حفافي الاودية وفيها .

ووصل الرفيقان المناضلان جميل فارس وضاهر نخلةضاهر ، الماء ينساب عن شعرهما ومن ثيابهما كأنما كانا ناجيين من الغرق . وقفت ، تمنطقت بسلاحي ، حملت جعبة الصيد ، تلفلفت بكل ما لدي من صوف وجوخ وهممت بالمسير . الى الامام صحت بالرفيقين . فهبت لولو الطيبة الكريمة تتوسل الي ان ابقى ، كيف اترك الموقد ، تضج بالنار وتشرقط ، والنبيذ الفاخر المعتق وادخل في الظلام والمطر والبرق والرعد . هل يمكن ان تجن الحكومة فترسل جنودها في ليل عاصف ماطر كهذا الليل ؟

قلت : لا يجوز للقائد ان يعطي امرا لجنوده . هم ينفذون الامر وهو يستنكف .

الى الامام ، وسرت في الدرب ، لا الوي على الامطار ولا على الرعود ... كانت عيناي تنتظـران البرق لتلمس طريقي ، البرق كان مشعلي وقنديلي .

بين كفتون التي نقصدها وبين بتعبورة كيلو متران . ولكننا تحوطا وتحسبا ، ما سلكنا الطريق العام ، رحنا عبر الوادي ، تدحرجنا على المنحدر ، الوحول في ارجلنا تكاد تصطاد رؤوسنا في المسيرة الدكناء ، عندما مررت بعد حين نهارا امام ذلك المنحدر الفاجر . تساءلت عن القوة التي امتلكتها لاجتازه دون ان انزلق واهوي .

وصلنا الى كفتون بعد ساعة واكثر . اقتادني الرفيقان الى بيت « السودا » ــرفيق لنا قديم ــ حيث كان قد اعد لي فراشا وتوابعه . نمت يومها كأنما انا قتيل لا يشعر بشيء مما حوله . لو داهمني الجند في المخبأ لحملوني الى السجن لاستفيق في احضانه الرقطاء .

في الصباح بعد ان اشرقت الشمس ، وكانت ربيعية حقا ، حملت سلاحي وجعبتي انوي الرجوع الى بتعبورة ، لم اكلف نفسي الاستعلام اولا عما جرى في الليل ، كأنما نسيت الخبر والمغامرة .

دعتني خالة زوجتي ام اسعد وجورج سركيس لتناول طعام الفطور ، فقبلت شاكرا ــثم قصدت دكان سركيس لابتاع شفر حلاقة . وانا في الدكان يداهمني الرفيق ضاهر نخلة ضاهر . رفيق المسيرة الدكناء . ويهتف بي ان اتوقف . اياك ان تخطو خطوة الى الامام . الدرك احتلوا بتعبورة منذ الثانية بعد منتصف الليل ، ستون عنصرا سدوا المنافذ والمسالك . شاهرين بنادقهم في وجه اية امرأة او اي رجل يفتح باب داره للخروج منه ...

اخذت منظارا كنت احفظه في الجعبة ، ووقفت على شرفة قرب الكنيسة اراقب .

شاهدت عناصر الدرك على السطوح وامام الابواب . قلت وقعت الواقعة ونجونا من قبضة السلطة .

هنا امرت الرفيق بان يستنفر كل الاعضاء الموجودين في كفتون ، ان يحضروا معهم اسلحتهم مخفية وان يتأهبوا لمرافقتي مع صفارات الانذار التي لديهم .

امرت بصفهم بدءا من النقطة التي يشاهدون فيها بتعبورة . وان يقف كل واحد على بعد مائتي متر من الآخر حتى المطل على دير كفتون . وان يستعمل اولهم صفارته في حال الخطر . هم يتفرقون وانا اتغلغل في قرى البترون .

نفذ الامر لحظات كنت قرب الدير . صعدت الى اعلى المطل لجهة البترون ... اختفيت بين الصخور ... الرفيق الواقف لجهة المطل على مرمى بصري وانا على مرمى بصره . اشارة منه واكون قد دخلت في حرم بلاد البترون وتواريت في اوديتها .

بقينا في وضع التأهب حتى الثانية بعد الظهر ، شكرا لام سعد على الترويقة الدسمة والا تضورت جوعا . في الثانية اطل علي موكب الرفقاء يتقدمهم المختار نخلة يعقوب ضاهر والد مرافقي ومنقذي .

في مغارة دير كفتون ذبحنا ذبيحة ، وشربنا العرق الكفتوني المستطاب ، ورسمنا خطة الفرار الموسع ، الدائرة لم تعد القويطع صار من الواجب امتدادها باتجاه طرابلس وجنوبا باتجاه بلاد البترون .

ولنبدأ الرحلة الى اجد عبرين . في بيت المختار الشيخ حسين سليم الشاق .

ولكن كيف جرت الكبسة التاريخية التي احبطناها بملاحظة واحدة من صديق عزيز ، ستون دركيا طوقوا البلدة ، منعوا ايا كان من الخروج من منزله فتشوا منزلي بدقة وروية . ما شتموا ولا حقروا ولا كسروا ، كانوا في نهاية التهذيب والدماثة . ولكنهم كانوا متأكدين اني في بتعبورة فاين اختفي . في الآبار ، نزلوا الى الآبار . في الثكنات « السطوح » فتشوا الثكنات والسطوح ، في الخزائن والفرش فتشوا الخزائن والفرش ما عثروا علي . راحوا ينكتون . قال احدهم لسيدة ان تفتح علبة حلاها خشيت ان يكون قصده النهب . فرفضت . قال لها : نعرف عبدالله قبرصي قد « الكمشة » فربما يكون مختفيا في علبة المصاغ ؟

الصناديق المقفلة فتحت ، ما بقي منفذ الا ونقب ، انطلق الدرك بعدها حانقين الى المغاور القريبة . راحوا يرشون الاطفال ليدلوهم علي . ذهبوا بعدها بخفي حنين ، كان قائد الحملة النقيب عبدالمنعم فواز ، صديقا عزيزا علي ، وكانت الكبسة محكمة ولكن كانت هريبتنا احكم . ولنعد الى اجد عبرين .

الشيخ حسين سليم الشلق محمدي سني ، من بيت كريم محافظ انتخب من زمان مختارا للبلدة ، يحفظ من الشعر القديم حكمياته ، ويعرج على شعر المخضرمين في وصفياتهم وغزلياتهم تعريجا لبقا . الشيخ حسين سليم نواقة وراوية . عائلته في الحقل . زوجته لتدبير المنزل . ليس لنا مكان بين افراد عائلته الكبيرة . وجد لنا مكانا في مبناه الجديد الذي بناه منذ سنتين وينتظر المال لاكماله ، مسقوف وله ابواب ، اما ارضه فلا تزال احجارا واقذارا .

ربحت في هذه المرحلة ــ وقد اصبحت من جديد وحيدا ــ شيئا جليلا : قرأت كتاب الامير لماكيافلي وكتاب هكذا تكلم زردشت لنيتشه وكنت اسمع عن نيتشه من مخايل نعيمه الذي اشار في كتابه عن جبران خليل جبران بانه متأثر بالنتشوية . كنت ولا ازال غير متحمس للفلسفة والفلاسفة والتفلسف .

وخسرت شيئا جليلا : صحتي ، لاني بدأت في 4 شباط 1942 عهد التدخين ولم اتخل عنه حتى يومنا هذا .. ما اشعر به من بوادر العجز متأت عن التدخين . لعن الله الدخان والتدخين معا .

في اجدعبرين ، بضيافة الشيخ حسين ، عثرنا على نموذج من المحمدي المؤمن الذي يمارس العبادة بانتظام وايمان . التسامح والمحبة في دمه . انه المصلح والمشير الخدوم في القرية وجوارها . آمن بالحزب ووفق بين ايمانه الديني وايمانه القومي توفيقا مثاليا . حيثما وجد الدين في جوهره . بعيدا عن السياسة والاستغلال ، يكون دافعا الى حب الوطن والشعب والاخاء القومي . لقد وجد الدين في جوهره في وجدان الشيخ حسين ، الرفيق حسين ، فكان مصدر سعادة داخلية نابعة من الاطمئنان ، الى ان يعمل لدنياه كما يعمل لاخرته . الايمان القومي الفاعل ، يقود الى القيام بالواجب تجاه الامة ، والصلاة والصوم والتقوى قيام بالواجب تجاه الله والاخرة لدى المؤمنين .

كانت الخطة الجديدة الا يطول بي المقام في القرية الواحدة اكثر من يوم او يومين . الكبسة التاريخية ليل الرابع من شباط افسدت ليالي الانس ومراتع الصفاء برفقة عبد

المسيح ونهاد حنا والرفقاء والاصدقاء . كنا قد حولنا كل قرية الى ناد للثقافة والفرح والتسلية . رفعنا المستوى من المقامرة والمزاح العقيم والنكات الخاوية الى مستوى البحوث والحوارات والمناقشات ، الى جانب تعويد الرفقاء على التضحية من وراء القيام بالحراسة الليلية والنهارية بانتظام دقيق .

كفريا كانت لنا موئلا منذ البدء ، راس نحاش كنا قد قصدناها مرارا وتكرارا للتنعم بأدب الشاعرين اسكندر شلق وشقيقه حامد وكانا شاعرين بالفصحى والعامية معا .. آل الشلق قبل الدكتور علي شلق وبعده جماعة أدب وبيان .

من ذكرياتنا الممتعة حادثة جرت لي وللفقيد الغالي نهاد حنا ، في بيت الشاعر ـ المدير اسكندر شلق . كان قد ذهب الى الحقل وبقيت انـا ونهاد نائمين . لم يكن لنا توقيت للنهوض وللرقاد . كنا احرارا على الاقل لهذه الجهة . ربة البيت تبقى للعناية بنا ، لتحضير الطعام وغسل الثياب . حضرت لنا الترويقة ست بيضات مسلوقات . انا قليل الاكل اكتفي بالتقوت . جورج عبد المسيح لم يكن نهما رغم ضخامة جسمه . نهاد حنا على العكس كان شرها . يأكل بلا حساب .

يبدو ان زوجة اسكندر شلق وعدت طفلتها الصغرى ببيضة او بيضتين من اصل الستة . ولكن نهادا اتى عليها جميعا ، فلما اطبق بالسادسة سمعنا الصغيرة تصيح بوالدتها : لقد قشر السادسة يا اماه . وراحت تندب سوء حظها معولة صاخبة ! فهمت انا ولم يفهم نهاد . لم انكر الواقعة الا فيما بعد خوفا على رهافة احساسه .

من بدنايل يطل علي وجوه عزيزة : احمد عثمان والشاعر وجيه الايوبي وزوجته الرفيقة عفاف عدره .

كان احمد عثمان حدادا . يزهو بشاربين معقوفين وزند عامر . كان قوميا اجتماعيا في الفعل لا في الفكر . شبه امي ، ادرك بغرائزه واحساساته عظمة النهضة وحقائقها . اليست في غايتها توحيد سوريا وانشاء جبهة عربية !.. الا يكفي انها صهرت في وحدة روحية عجيبة مختلفة الطوائف والفئات والطبقات ؟...

بيته متواضع وهو متواضع كريم . يقدم لنا احيانا بعض مدخراته من المال ، الى جانب المأوى والطعام ، يسهر على حراستنا بنفسه .

اما الشاعر وجيه الايوبي ، فكان قوميا اجتماعيا في العمق . يدرك النهضة بعقله ووجدانه ، يناضل ما وسعت عزيمته ويداه في ذلك الزمن الرديء . لم يكن له الا غرفة

واحدة وسيعة . فليتصور القارىء انه ينام في زاوية مع زوجته الرفيقة عفاف وطفليه . وانا انام في زاوية . الاخوة القومية الاجتماعية تجترح العجائب . الثقة بيننا مطلقة . زوجة الرفيق وجيه رفيقتنا ، هي اذن اعز من اخواتنا والشقيقات . هكذا كنا نتعامل ولا نزال.صفاء اخوة وصفاء نفس . مرضت في بيت وجيه ، فكان لي مع الرفيقة عفاف ممرضا ، يسهران علي بحنو ولهفة وعناية تفوق حد التصور .

وبلغنا في التجول كلباتا .

كلباتا . عدة بيوت على منبطح من الارض ، تملكنا بعض العائلات النازحة من تنورين . ارض خصبة وجميلة على كتب الروابي الخضراء في القويطع . كل سكانها اهل واقرباء . اكثرهم من عائلة حرب ، التي اشتهر منها القاضي الكبير شارل خوري حرب والنائب جان خوري حرب ، كلاهما وطنيان ، يؤمنان بالعروبة والتقدم .

كان في كلباتا بيتان قوميان آنذاك سركيس سعد ويوسف سعد . ولكن البيتين جعلا من باقي البيوت منازل للحزب وللقوميين . اينما حللنا كنا نشعر اننا عند نوينا الاقربين .

كل سكان كلباتا ، كانوا ولا يزالون من الموارنة . هل خطر ببال احدهم ان يفكر يوما من الايام بمارونيته ؟ قطعا لا . القومية الاجتماعية فعلت في نفوسهم الى ان توسلهم الحزب لبلوغ الاصل أي العاصمة تنورين التي تعج بالفرسان الاشاوس .

هؤلاء الموارنة كانوا الصورة الصادقة عن المواطن اللبناني المتحرر ، النابذ الطائفية ، المصمم على خوض معركة النهوض والحرية ، دون اية خلفية تعصبية .

لقد كانوا هم ايضا مؤمنين . بنت الرفيق سركيس سعد صارت راهبة . ولكن ايمانهم الديني ــ كما كان عند الشيخ حسين سليم شلق المحمدي ، لم يكن الا دافعا لهم لتبني القضية القومية قضية الشعب قضية حريته وسيادته وتقدمه ووحدته .

عندما تذكر تلك الوجوه ، وبعضها رحل الى الابديه ــ واقارنها بموارنة كميل شمعون وبيار الجميل وسعيد عقل وشاكر ابو سليمان ، تأخذني الحيرة والغضب معا .

كيف يمكن ان يعبأ حزب او فئة مسلحة بالمدافع والمال ، منظمة افضل تنظيم ، كيف يمكن لهذا الحزب وهذه الفئة ، ان تعبأ النفوس الطاهرة التي عرفت في كلباتا وتنورين بكل ما شهدنا من مآس وبشاعات ! علما بان كلباتا وتنورين ما اشتركتا في حرب المارونية السياسية الحالية ولا قبلتا بالتنازل عن تقاليدهما في الفروسية ومحبة الوطن والتآخي القومي !..

في كلباتا كنا نشعر بالخيرات تفيض علينا . سركيس سعد وزوجته وولده وبناته كانوا جميعا ينتظرون عودتنا كأنما هم المحتاجون الينا لا نحن . لا انكر ان وجها عبس في وجوهنا او تنمر او شكا . ثم اهل كلباتا انفسهم ، كانوا يتسابقون الى دعوتنا . لق، صرنا على مدى سنة ونصف تقريبا جزءا من كلباتا وقطعة من لحمها ودمها .

حدثت لنا حادثة تذكر في تلك الدسكرة العزيزة .

كان قد سكنها الشيخ انطون حرب ، شقيق شارل وجان وعم النائب الحالي بطرس حرب . وكان انطون بسبب تهمة ظهر فيما بعد بطلانها ملاحقا قضائيا .

وكان يحرسه فرسان من تنورين بينهم الفقيد جرجس حرب شقيق السيدة زكية زوجة الشيخ انطون .

انطون حرب كان وجها وسيما بلغت به الشجاعة حد المجازفة والتهور . وجرجس حرب كان ايضا وجها وسيما بلغت به الشجاعة حد التهور .

كنا في هرج ومرج ، لم يكن جورج عبد المسيح قد عاد من الجبال بعد ان ودعته في شباط الفائت . يصل فجأة من ينبؤنا « بكبسة » قادمة ..

استنفر المسلحون وعددهم ثلاثة او اربعة ، الشيخ انطون حمل سلاحه مع الحاملين . جرجس حرب حارس الطليعة ، وراءه انطون . وانا وراءه مباشرة . مسلح خلفي وآخر حر ، تارة يطل ذات اليمين وطورا ذات اليسار .

مشينا باتجاه راس نحاش . لم يكن هنالك طريق معبدة كما هي الحال الان . الاحجار العاتية تقاوم رجلنا ، فندحرجها لكي لا تدحرجنا ، الصمت يخيم والعتمة ضاغطة . لم يكن من المألوف في تلك الساعة ان يخرج الناس من بيوتهم ولا ان تسمع على الدروب اصداء حجارة تتدحرج .

كان اسمي قد اصبح عبد السلام النابلسي ، لماذا عبد السلام لا عبد القادر ، لما النابلسي لا الطرابلسي ــ الذي سماني كان في ذهنه او في حدسه على ما يبدو ، اني سأحب نابلس يوما اكثر من اية مدينة في الارض لأنها رمز مقاومة « اسرائيل » في الارض المحتلة . نابلس وجنين والقدس ، لله كم نعتز بهذه المدن تزحزح عن اعناقها الكوابيس والقيود لتسجل كل يوم واقعة او موقعة !..

المهم سرنا يغمرنا الحذر ، السلاح في ايدينا كمن ينتظر طريدة . الايدي على الزناد ،

صوت او وقع اقدام وتنطلق النيران تمزق الظلام المخيم فوق الصمت !..

ما ظهر من وراء الصخور لا دركي ولا ضابط أمن . انحرفنا باتجاه الوادي. عرفت ان الحرس يسلكون طريق بيت حنا القطف من تنورين . انه صاحب ماعز تعد بالمئات . يقيم على مشارف نهر الجوز ، يطل من مراحه على بساتين البترون !..

كلما اقتربنا كلما اقترب منا نباح الكلاب المهتاجة . شكت الكلاب في امرنا ، نتجه صوب المراح في مثل تلك الساعة المتأخرة ، بلا اضواء ولا سيجارة شاعلة . شكت الكلاب فراحت تعوي كأنما تكشر عن انيابها لغرزها في جسومنا اذا حاولنا الاقتراب . نادى حارس الطليعة : يا حنا القطف ، هون الشيخ انطون لاقينا ! وفتح باب المراح واطل حنا القطف نعسان ، متثائبا لاننا انتشلناه من رقاد النشاوى على ما يظهر . ما استقبلنا حنا القطف بلهفة ، كما هي عادة اهل تنورين ، الساعة المتأخرة من الليل ازعجته ايما ازعاج .

قدمت لنا القهوة ، وكان يجب ان نتدبر امرنا في المنامة . كان من سوء حظي ان في المراح ، عند مدخل الباب ، صخرة ملساء يستعملها حنا القطف سريرا لضيوفه ، انا عبد السلام النابلسي ، لا استحق اكثر منها !.. ناولني مخدة وشرشفا ، ونحن في آذار الهدار ، وقال لي ان اتدبر امري حتى الصباح ، بيفرجها الله .

لم اخلع ثيابي لأني شاهدت ضوءا ضعيفا في آخر الدار « الصالون » الذي خصصت لي صخرته لاتدبر منامتي . القيت بنفسي منهكا على الصخرة الصلدة ، بقي حذائي في رجلي، والشال الصوفي الدافىء حول عنقي ، وما لبثت ان سمعت نباح الكلاب في الخارج يتزايد ، كأنما الكلاب تشن هجوما صوتيا على ذئب قادم ، ثم بدأ قريبا من الصخرة ــ الصليب مواء القطط كانما هي في حفلة تزاوج . ومن وراء ستار لم ادر عندماحاولت الرقاد ما لونه ولماذا وضع ، تصاعد بكاء رضيع طالبا ثدي امه ، فلما رفعت ضوء القنديل لتناوله ثديها ، التفت فاذا نبيحة كانت عجلا او ماعزا معلقة الى جانبها .

لم يكفني النوم على الصخرة ــ الصليب ، (نمت فعلا كالمصلوب لأن بعض اسنان الصخرة كانت تخزني وخزا اليما) حتى تجمعت من حولي كل المزعجات : نباح الكلاب ومواء القطط وثغاء الرضيع ورائحة اللحم المعلق في السقف ..

تلك كانت اسوأ ليلة او من اسوأ ليالي الفرار . تمنيت لو ان معركة نشبت بيننا وبين رجال الامن لامتحن فيها اعصابي وسلاحي اثناء القتال . ولا ان اتأرق طوال الليل بين

الحيوانات الضاجة والنبيحة المعلقة ..

روينا لرفقاء الرحلة قصة الليلة البيضاء ، فراحوا يتناقلونها وبها يتندرون في مجالس الخمرة والحكايات المضحكة المبكية . لعل حنا القطف لا يزال حيا يتنكر كما اتنكر .

عودة خضر الامين :

اسمان عندنا في الحزب لهما دلالات ودلالات . خضر الامين اسم جورج عبد المسيح المستعار ، وغضوب الخزاف اسم انيس فاخوري . كم شكرنا جورج على استعارته اسم خضر الامين . انه خفيف الوطء على السمع والبصر . كلمة عبد ، سواء جاءت للمسيح او للقدير الجبار لا تنزل نسيما عليلا على المناضلين مثلنا في سبيل الحرية .

المهم ان جورج عاد في نيسان من ذلك العام بعد ان غادرني في الثالث من شباط ، في ذهني تاريخ 12 نيسان 1942 ، قد اكون مخطئا ولكني بالفعل اذكر هذا الرقم . كانت محطته الاولى في كفرحاتا عند الرفيق يعقوب جبور . الا ان الطقس كان جميلا فلما التقينا ، وتشاورنا ، قررنا الانتقال الى البرية ، كان الرفقاء يتناوبون على نقل الزاد والماء الينا . في البرية قدم الينا بناء على موعد سابق منفد عام العلويين ، شخص من آل الحكيم على ما اتنكر . وفي البرية احسينا بصدمة اذ نسي احد الرفقاء ــ وهو اديب وشاعر ــ ان يحمل الينا الطعام فكدنا نطق من الجوع ــ عند غياب الشمس جاءنا الرفيق ميشال خوري ، فلما اخبرناه بالواقعة ، ارغى وازبد واقفل راجعا ليعود بالسلال تكفينا اسبوعا .

اكثر الرفقاء اتصالا بنا ، وتنفيذا لاوامرنا كان الرفيق ابراهيم بشارة الذي عرف (ببراون) سجن سنة 1941 فازداد صلابة وايمانا عندما عايش بعض القادة كعبد الله محسن ، واختبر بنفسه شجاعتهم وصبرهم وصمودهم . كانوا في السجن كأنهم في نزهة .

سلمنا براون مفتاح غرفة في كروم زيتون معروفة بضهر بشارة تقع على رابية مطلة على كفرحاتا ، على مقربة من كلباتا ، فكنا نأوي الى هذهالغرفة نبيت فيها ليلا لنختار نهارا طريق سيرنا ، فاما « نشمل » فنحن في بيت الرفيق يعقوب جبور واما « نجنب » فنحن في كلباتا عند الرفيق سركيس سعدٌ !.. لم يعد بيننا وبين الرفقاء كلفة . نغدو او نغيب بلا استئذان ولا ميعاد .

حادثات تمر في خاطري ادونها تباعا :

1 ــ حادث كرم بشارة

2 ــ حادث الصنوبرة

3 ــ حادث بيت ناهيل (الحية والعقرب في المينا)

4 ــ النقاش الحاد حول المرأة بيني وبين خضر الامين .

حادث الضهر :

كنت وجورج وابراهيم بشارة في كلباتا . سهرنا حتى منتصف الليل . كانت سهراتنا قروية عادية ليس لها نكهة او طعم خاص . ففي دسكرة تتألف من عدد قليل من العائلات ، يأكل الانسان ويشرب ، ثم نتحدث احيانا عن الحزب واحيانا عن وقائع جرت لنا في السجون او في ايام الطفولة والمراهقة ، وكثيرا ما كنا نقطع الوقت بلعب الورق .. لا تصبح السهرة ذات طعم او لون الا اذا حصلت مناقشة حادة بيننا وبين احد الحضور حول العقيدة السورية القومية ، او عندما يحمي الجدل بيني وبين جورج مباشرة حول مسألة فكرية ، اجتماعية كانت او سياسية .

كانت الليلة من ليالي آب ، موسم قطاف الزيتون يقترب .

سرنا نحن الثلاثة باتجاه ضهر بشارة . خالين البال ، فما اتتنا معلومات او اخبار عن ملاحقات جديدة .

كنت احمل بارودة صيد ومسدسين ، ابراهيم كان اعزل ، عبد المسيح كان ينقل مسدسه اياه : الستار Stair نومرو 9 .

ما ان بلغنا حدود الكرم ، حتى احسسنا في احدى الشجرات حفيف اغصان الزيتون ، وكان اكثر من حفيف ، كان اهتزازا ، اهي الريح ، لم تكن هناك ريح . انن لص او جاسوس . تفرقنا بسرعة البرق . الفنا فرقة قتال . جورج جناحها الايمن انا الاوسط وابراهيم الايسر . ورحنا نتلمس في الظلام طريقنا صامتين بانتظار حركة تصدر عن اللص او الجاسوس . لم ننبطح ارضا . ولكننا سرنا على مهل ، دون ان تكون المسافة بين جناح وجناح اكثر من عشرة امتار . فجأة اهتز الغصن في شجرة امامي ، صاح بي جورج : « قوسو » فشددت على زناد مسدسي ، وشددت بكل قوتي . لم تنطلق الرصاصة فرميت المسدس ارضا وانبطحت فاذا بجورج يطلق من مسدسه

طلقة واحدة باتجاه الشجرة . تدهور السارق باقل من لمح البصر . قفز في العتمة فوق العليق وراح يعدو باتجاه الوادي بين اجـــد عبريـــن وكفرحاتا .

هنيهة واذا بالاجراس تدق . ابراهيم بشارة وحده يمكن ان يجاوب السائلين : ما في شيء ، حرامي ، حرامي . كان هوني وهرب ، قوسنا عليه .

الاجراس سكتت ، نحن اسرعنا الخطى نحو الغرفة . تسللنا بخفة . القمر يطل بعد قليل ، فضيحة واية فضيحة ان يأتي النواطير ويشاهدونا في تلك البقعة . سرنا ينكشف ، ونصبح عرضة لكبسات جديدة ووشايات !..

القرى المجاورة اضاءت قناديلها . التنادي والتساؤل استمر . في القرى فضوليون شغلهم الشاغل استطلاع آخر الاخبار ، معرفة كل شيء عن الاخرين . في عالم الحضارة تسكن في بناية واحدة مع جيران . عشرين سنة لا تعرف من هم ولا يعرفون من انت . شعبنا فضولي وخاصة في القرى والدساكر ، يريد ان يعرف كل شاردة وواردة . لنقل انه محب للاستطلاع .

سكوتنا وصمت الليل الهادي ــ وبزوغ القمر خلف ارز الرب ، حملت الفضوليين الى فراشهم . ما اجابهم احد ، فلانوا بالفرار من فضولهم الى فراشهم .

دقائق وباب غرفتنا يطرق ، استنفر المدير في كفرحاتا كل الرفقاء القادرين على حمل السلاح ، فاذا بميشال خوري ويعقوب جبور وخليل نصار و .آخريـــن من رجالنا الاشداء يأتوننا منجدين ، ظنوا ان احدا تحرش بنا ، فأقبلوا بلا تردد يتنسمون اخبارنا . كانوا يعرفون مخبأنا في ضهر بشارة .

كان من نتيجة هذه التجربة « الحربية » ان رميت المسدسين الباليين اللذين اقتنيتهما لساعة الشدة ، فكانا شدة علي لا شدة في يدي ..

لو كان السارق مسلحا ، وسبقني الى سلاحه ! هل كنت لا ازال واقفا على رجلي ، اكتب هذه الذكريات !..

هذه الحادثة ، كانت ايضا مجال تندر وتنكيت .. سلاح الامين عبد الله ما تباطأ لبى فهز الاودية والروابي .. يا للسلاح التعيس كم يسود الوجه الابيض .

الطقس خريفي ، لا حار ولا بارد ، انا وجورج جلسنا تحت صنوبرتين على تلة تتحكم بالطريق العام ، نرى الرائحين والغادين ولا نرى .

اهل كفرحاتا اختصاصيون في اكل اللحم النيء والقصبة السوداء جاؤونا منها بكمية وافرة كما جاؤونا بالعرق المثلث . اكلنا وشربنا وجلست انا القي بظهري على جذع الصنوبرة في قيلولة قصيرة ....

كم يتمنى الانسان نومه هادئة على جذع صنوبرة ، في طقس الكورة الخريفي كأنما يلقي بهمومه كلها على الصنوبر !

كنت ــ كما ذكرت في حلقة سابقة ــ قد بدأت بكتابة مذكراتي عن تأسيس الحزب وعن المؤسس واعوانه ... صممت ان اقول الحق ، فلا ارحم مخطئا ولا اتغاضى عن هفوة . كما لا اطمس فضيلة او مكرمة . كلما كتبت بضع صفحات كنت اخفيها في جعبتي ، حتى اذا عدت الى البيت اسلمها الى والد زوجتي العم نخول بربر ، فيحفظها لي في تنكة يحكم إقفالها ، ويطمرها في الجنينة ، تحت جنح الدجى ! ....

كانت مذكراتي مجموعة اسراري وآرائي . حرصت الا يطلع احد عليها حتى اعز الناس على قلبي واقربهم الى . استحلفت عبد المسيح بشرفه وحقيقته ومعتقده الا يغافلني ويقرأ ما كتبت . فحلف اليمين المعظمة وما اخلف .

عندما القيت بظهري على جذع الصنوبرة كنت أمسك بالمذكرات استعيد قراءتها للتصحيح . فداهمني النعاس وغفوت ، فوقعت المذكرات ارضا .

كانت المذكرات التفاحة التي اغوت أمنا حواء . لقد سال لعاب جورج عليها ، تردد ــ كما اتصور ــ ولكنه اقدم ولملم الاوراق وقرأها . ثم اعادها الى مكانها فلما افقت لم اعثر على اي دليل انه حنث بيمينه .

كنت قد كتبت قطعة طويلة عنه اصفه فيها بعجره وبجره ، بحقه وحقيقته لا انسى

فضيلة كما لا انسى نقيصة . حتى وجهه الاسمر الفائق الاسمرار الميال الى وجه العبيد ما وفرته . وغرامياته بلغت اعماقها ووضعت يدي على مفاتيح اسرارها .

انكر بسبب كثرة الترداد والتكرار ــ اني كتبت تقريبا بالحرف : « ولولا عينان سوداوان تلمعان في ذلك الوجه ، لما قلت ان الرجل من بني الانسان » .

« يعلو حتى يبلغ افاق الشاعر ، ويهبط حتى يبلغ اغوار الفيلسوف » .

« وبين هذا وذاك هو جردي ارعن » .

ما سر بما كتبت . اغتاظ ولكنه كظم غيظه . الى ان انحدرنا في احدى الليالي في الوادي الفاصل بين جد عبرين وبتعبورة في محلة « المينا » ، وبدأنا نتسلق صعوداً باتجاه البلدة .

استوقفني عبد المسيح متهكما ومهددا :

« شو انا شمبنزي (نوع من القردة) بنظرك يا ابن القبرصي » .

ادركت ان الرجل اكل التفاحة ، سقط في التجربة وحنث باليمين ولكي اقول الحقيقة ، خشيت بأسه لأن اية حفلة مصارعة معه خاسرة . ولكنني ما تهربت . عرفت انه قرأ كل شيء .

كان جوابي الفوري تأكيدا لما كتبت ،

ــ انت قلت ، كان جوابي يعني بالعربي الفصيح انني وافقت واكدت انه شمبنزي .

ثم اردفت ، لماذا لا تذكر الا النقد ، الم اقل انك شاعر وفيلسوف ؟

فاجاب على الفور : ولكني جردي ارعن ؟ ! ....

ومشينا انا اسير امامه ، وهو يسير خلفي متمهلا . كان الصعود متعبا ، فهو ثقيل الوزن ، لا تلائمه العقبات الكؤود !

لم يقل احدنا للآخر كلمة في موضوع المذكرات . ولكني لا اكتم القارىء ، أن ثقتي بجورج عبد المسيح انطعجت . الرجل الذي يقسم بشرفه ويحنث ، لم يعد بنظري الرجل الذي احببت وقدرت واحترمت !

لمن سيحللون شخصية عبد المسيح ونفسيته . مثل هذه الحادثة تشكل عنوانا .

النبأ الكاذب والحية والعقرب

السيدة ناهيل وشقيقتاها أملين (توفيت منذ سنوات) ونبيهة ، كن لنا اخوات طيبات ، يبالغن في اكرامنا فنبالغ في استضافتهن .

في شهر السفرجل ، كنا عند ناهيل . اعدت لنا عشاء ، لا ازال اذكر إنه من المقالي والمشاوي ، والحلوى فيه مربى السفرجل وهو عبارة عن قطع مطبوخة مع السكر . كان ذلك في أيلول 1942 .

جلسنا على الطاولة وبدأنا نمضغ اللقمة الاولى . واذا بالنذير . مراهق يعدو لاهثا ويقول : أهربوا . إجت كبسة . حملنا حراماتنا والجعبة ورحنا نعدو . جورج وابراهيم سبقاني . هرولا . ركضا عبر المنخفض الارضي المغروس بالزيتون ورابطا على مطل ، ظهرهما الى كفتون ، ليراقبا مقدم الفرقة القادمة لاعتقالنا ، ... وانا جاد وراءهما مع احد الرفقاء . انهار بنا حائط . ظنا ان الكبسة اصبحت وراءهما فكادا يطلقان علينا النار وصحت بهما : انا عبد السلام ....

فسمعت قهقهة عبد المسيح بصوته الاجش الأبح . قال لي : كدنا نقتلك رميا بالرصاص لو لم تسبقنا بالتعريف عن نفسك .

رحنا نحن الاربعة ندور حول بتعبورة ، مستطلعين . لا صوت ولا اشباح ، ولا جنود ... لا شيء .

قلنا ان النبأ كاذب . وبالفعل كان كاذبا . ولكننا تشاءمنا وصممنا على المبيت في البرية . ايلول لا يزال صيفا في الروابي الكورانية .

انصرف المرافقان ، واتجهنا صوب المينا ، بقينا على مقربة من البلدة ، نحن في كرم تين . كان الطقس نديا والتين في الكرم كأنه في براد اكلت قليلا واما جورج فعوض عن العشاء بالتين .

كنا ننام في العراء ، حرام تحتنا وحرام فوقنا مع مخدة صغيرة نضع احيانا تحتها حجرا مسطحا .
لم نكن نأبه للندى كما لم نكن نستعمل الاضواء . جورج عبد المسيح يدخن ، فيولع الولاعة متخذا اقصى الحيطة لكي لا يتسرب الضوء الى خارج عباءته .
ننام لا نلوي على هم ولا على قلق ننام كما ينام الاطفال بعد ان يشبعوا حليبا . اذا

سهرنا فلكي نتبادل احاديث الادب والفكر واو نتحاور في بعض المواضيع .

اما النهوض ، فعند طلوع الشمس . ليس بامكان النائم في العراء ان ينام وشعاعها قد غمر وجهه .

نهضنا ذلك الصباح ونحن نبغي ان نتروق تينا كما تعشينا تينا .

وسحبنا الاحرمة لنطويها ونتخذ منها مقاعد . فاذا حية صغيرة تحت حرام جورج واذا عقرب تحت فراشي ! ....

هجم جورج يريد ان يدوسهما فقلت له : لو كنت مكانك لما اذتيهما ، لقد ناما معنا ولم يؤذيانا ، فلماذا ايذاؤهما ؟ ....

ولكن كان قد قضى عليهما معا .

العبرة من هذه الرواية ، ان الهارب من وجه المتسلط ، ليس في نعيم مقيم . انه ينام احيانا على الطوى كما ينام احيانا على الحية والعقرب .

صدف ان حيتنا وعقربنا ما كانا مؤذيين ...

الا يستذكر القارىء كم من الحيات والعقارب لدغت فأذت فقتلت ! اذا لم نمت ونحن نائمان من لدغة الحية او العقرب فلأن في الحيات والعقارب « انسانية » اكثر بكثير من انسانية بعض بني الانسان ! ....

ما كنا فقط نقرأ ، ونأكل وننام . ما كان همنا فقط التواري والاختفاء ولعب الشطرنج كثيراً ما كنا نتحدث في النواحي العلمية من عقيدتنا كما فهمناها من نشوء الامم . لا انكر اننا كنا حرفيين الى حد كبير . لم يكن جورج ولا انا مؤهلين من الناحية الثقافية لتمثل كل افكار سعادة وبالتالي لم نكن مؤهلين للبحث في اعماقها . لقد كان دورنا تنفيذيا . كانت مهمتنا نقل ما تعلمناه عن سعادة لا اكثر ولا اقل . وكانت لنا مهمة اخرى : انتظار عودة المعلم ، لنطلع منه مباشرة عما تكشف له من حقائق جديدة في شتى ميادين الحياة . لم نكن على صلة به ، فالبريد مقطوع بسبب الحرب . لا مسافرون ولا قادمون . البحر والجو محتلان من قبل الدول المتحاربة .

الانتظار لم يكن ليقف حائلا دون تبادل وجهات النظر ، ثم الحوار ، ثم المناقشة الحادة في مواضيع شتى . لا أنكر انا شخصياً ان ثقافتي الحقوقية واستغراق وقتي في المحاماة وما عهد به الي من اعمال حزبية ، كانت هي الموانع الطبيعية لاستكمال البحث في الشؤون الفكرية ، من فلسفية واقتصادية واجتماعية وسياسية . الا ان جورج عبد المسيح لم يكن ــ في ذلك الحين ــ واسع الاطلاع ، ضليعاً ، في كل هذه الموضوعات ، ليتفوق علي في الاخذ والرد اثناء الحوار والمناقشات الحادة . اعترف بصدق ، اننا نحن خريجي مدارس الفرير والجزويت ، لسنا بمستوى خريجي الجامعة الاميركية في بيروت ، من حيث اتساع أفاقنا وتحررنا من كثير من المفهومات الكلاسيكية في الشؤون المشار اليها فوق . ببساطة كلية كان الميزان ــ في محادثاتنا الحامية ــ تارة يميل صوبي وكثيراً ما يميل صوبه . دراسته في الجامعة الاميركية وقربه من سعادة كانت تميز رصيده عن رصيدي ، وتعطيه ارجحية علي .

كانت حواراتنا تجري بروح رياضية . جورج عبد المسيح في بداية حياته ، يوم كان الصاغي الهادىء، قلما كان يستكبر ميزته كانت في تواضعه، في قربه من ابناء الشعب ، من الاعضاء ، من الناس ، من كل الناس . فضيلته أنه كان ثقيفاً مع

المثقفين ، فلاحاً مع الفلاحين قبضاياً مع القبضايات . لم اشعر مرة ان طموحاته تطرح نفسها على المجرة وزحل . كانت طموحاته ان يعرف اكثر عن ارضه ، عن وطنه ، عن الانسان ، عن التاريخ ، عما يشغل فكر العصر والمفكرين !....

كان يقرأ باستمرار ويقرأ بسرعة وبجلد .

لم يكن لدي آلة تسجيل ، لأسجل مساجلاتنا . فلو كان لدي ، لكنت ملأت دفاتر وسودت صفحات طوالا عراضاً . ما يعلق بذاكرتي اكثره عن المرأة ، عن دورها في الحزب ، في المجتمع ، عن وفائها لمن تحب أو خيانتها لمن تحب . عن مناعتها تجاه السقوط في الخطيئة أو عدم مناعتها .

ما من شك ان عبد المسيح وعبد الله قبرصي يتفاوتان في تجاربهما مع المرأة . فانا اولا يتيم ، وفي زمان المنفى والتشرد لم اكن بعد قد تعرفت على اخواتي لأبي وهن وراء البحار . ما عرفت امي الا جثة هامدة مسجاة على الفراش وانا اقفز فوق جثمانها لاعبا . كان عمري ثلاث سنوات وبضعة أشهر . انكر تابوتها المزين بشرائط حمراء . عرفت حنو الام في جدتي لأمي ، ثم ما ان بلغت الرابعة عشرة حتى بدأت احس احساساً ملتهباً محترفاً بان الصبايا تجتنبني كما المغنطيس يجتنب المسمار .

ولكن تربيتي القروية ، كانت تلزمني بالاحتراق والكبت . كنت اتصور الصبايا محرمات الا على النظر ! ... احببت في تلك السن حباً قيسياً (نسبة الى قيس ليلى) .... كان القمر هو وجه الحبيبة ، والغزل بالقمر شعراً ونثراً هو وحده الفرج و ... الهيام معاً .

الى ان احببت وتزوجت . فصارت ام زوجتي امي واخواتها اخواتي وزوجتي حبيبتي الوحيدة . ثم رزقت اولاداً بنات وصبياناً ... فاختبرت المرأة في شتى الوانها ، وخصائصها ، وفضائلها ونقائصها ، أما وزوجة وجدة وأختاً ومواطنة ورفيقة وصديقة .

ثم دخلت الحزب السوري القومي ، وقرأت سعادة في نظرته الى المجتمع والمرأة احد اضلاعه الرئيسية : أمة واحدة ــ مجتمع واحد . ان الأمة هيئة اجتماعية واحدة لا فرق بين طوائفها وطبقاتها ، لا فرق بين نسائها ورجالها .

لم اختلف مع عبد المسيح على دور المرأة في الحزب . انها مساوية للرجل . لا يطلب منه اكثر مما يطلب منها . يمين الانتماء واحدة ، والحقوق والواجبات واحدة . الرجل

يحارب والمرأة تحارب اذا توفرت لها كل الاعدادات النفسية والتدريبية . ان الحزب هو حزب تحرير المجتمع ونهوضه ، تحرير المرأة ونهوضها على قاعدة التحرير الشامل .

اختلفنا حول جسد المرأة. هل ان كل امرأة ــ كما يزعم عبد المسيح ــ في ظرف معين وحالة معينة تسقط امام التجربة ، امام الشهوة الجامحة ، ام ان هنالك رادعاً ــ اسمه الحب او اسمه الامانة او اسمه الكبرياء ــ يردعها عن الوقوع في الاثم ! ... الشاعر الكبير ابو شبكة يقول انه قد يقترب من الاثم ولكنه لا يرتكبه . هل ان المرأة حتى في اقصى حالات الاغراء تقع حتماً تحت سلطانه ، تستجيب للنزوة العابرة ، ام ان لها ارادة تكبح جماح الاغراء والاشتهاء وتنتصر عليه ؟

هنا كان عبد المسيح جازماً وحاسماً : كل امرأة معرضة للسقوط ، وهي تسقط حتماً وحكماً اذا وجدت في ظرف معين وحالة معينة ....

كنت اثور ضد هذا الرأي ، اولا لأني كنت متزوجا عن حب ، اشعر ان من المستحيل ان اخون زوجتي او ان تخونني . ثم كنت افكر بان لي اما كما ان لعبد المسيح اما ، وان لي اخوات المهاجر وان لعبد المسيح اخوات ، هل يمكن ان ينسحب حكم عبد المسيح المطلق عليهن جميعاً ؟

انا الآن مترمل . زوجتي غابت بجسدها عني الى الأبد . غبت عنها سنوات في السجن او في المنفى ، واني لواثق ومتأكد انها لم تخني قط ، بل ان الخيانة ما راودت نفسها ولا في لحظة من لحظات عمرها . تركتها سنة 1939 عروساً ، ثم تركتها بعد استشهاد سعادة ، ثم بعد المحاولة الانقلابية اربع سنوات . الذين يعرفون زوجتي يعرفون انها كانت قديسة .

من هنا كنت اتشبث ان المرأة التي تحب ، لا يمكن ان تخون الحبيب وان خان . وان لدى المرأة مناعة ضد السقوط في الخيانة ليست متوفرة للرجل . اني لا ازال أؤمن بأن كل امرأة لا تسقط ، وان الساقطات امام التجارب لا يزلن قلة ، رغم ان الحضارة الغربية اوصلتنا الى عهد « البورنوغرافي » ....Pornographie

انا لست مع قتل المرأة الخائنة ، ولا من الذين يعتبرون ان جرائم « الشرف » يجب ان تعاقب باللين والاسباب التخفيفية ، بعد ان مررت بالغرب واختبرت طرائق الحياة وما اكتسبته المرأة من حرية في التصرف . ولكني اعتبر ان تقاليدنا في الحفاظ على وحدة العائلة والروابط الزوجية تقاليد جليلة ، اتشبث في الابقاء عليها ، لأن العائلة اساس

الأمة ومتى فسد الأساس ، فسدت الأمة !... الا انني ــ كما كان سعادة يعلم ــ مؤمن ايضاً ان الحياة الزوجية المشتركة اذا استحالت وجب الطلاق !

انا ضد الاباحية ولكني لست مع التزمت وضيق الصدر والنظر . انا لست مع سارتر وسيمون دي بوفوار في الحب الحر ، ولكني لست مع اقفال الابواب على المرأة ، وسجنها في قفص المنزل . ان الحياة خلقت الرجل والمرأة ليكونا مصدر استمرارها ويناعها . فليكن للمرأة نفس الحقوق التي للرجل ولتكن عليها نفس الواجبات . ليس حقاً ان تكون رسالتها في المطبخ او في المنزل . قد تكون أماً صالحة ومناضلة صالحة في الوقت نفسه . ان المرأة ليست لاستيلاد الاطفال ولا صانعة الرجال والنساء فقط . انها هي بحد ذاتها قيمة اساسية ، خاصة متى تحررت من نفسها ومن عبودية الرجل او نظرة المجتمع المتخلف اليها ! ....

لا اعرف اذا كان عبد المسيح يتذكر معي موقفه هذا ، او اذا كان قد غير افكاره فطورها مع منطق العصر والتاريخ والتقدم ! ....

بحثا عن الأب طانيوس منعم

ليس اسم الأب طانيوس منعم من كفيفان اصلا ومقيم في البترون بالاسم المغمور وان يكن كاهناً مارونياً مرتبطاً برعيته ومنطقة محدودة . كنت قد سمعت بانه ثوري ثم التقيته في حوار قصير حول الكينونة والصيرورة ادركت من خلاله انه من الرهبان اليساريين وعددهم غير قليل في الطوائف المسيحية غرباً وشرقاً . كانت كلمة يساري لا تعني لنا نحن القوميين الا شيوعياً ، لم نكن نفهم اليسار الا انه الشيوعية .

جاءنا ابراهيم بشارة بعد اتصالات اجراها مع الأب منعم ، يعرض علينا لقاء معه تحت شجرة قرب قلعة قديمة عند مصب نهر الجوز في بساتين البترون .

اتفقنا على الموعد وانطلقنا نهارا من كلباتا باتجاه الشجرة ــ الموعد . كان جورج عبد المسيح وابراهيم بشارة رياضيين وانا رغم الفرار وما تعودته من قفز فوق المخاطر ، صخورا ومنزلقات ومنحدرات ، لم اكن في مستواهما . كنت دائما في المؤخرة اتعثر ذات اليمين وذات اليسار .

الطريق الذي سلكناه كان طريق كلباتا ــ رأس نحاش . ثم إنحدرنا الى اليسار في الممرات التي تسلكها الماعز ، ورحنا نتدهور حتى بلغنا النهر ثم الشجرة ــ الموعد . من حسن حظنا لم يكن هنالك متنزهون ولا متنزهات . كانت هنالك عصافير تتناغى فرقناها شذرا مذرا .

ولبثنا ما يقارب الساعة ننتظر ونصطير . الأب منعم ما اطل علينا ولا ارسل كلمة اعتذار . استنتجنا انه الغى الموعد منفردا لسبب ما قد يتعرض له من مخاطر من جراء لقاء هاربين من وجه « العدالة » في زمن الحرب .

كانت طريق عودتنا اخطر من طريق الذهاب . فقد سلك « القائدان » جورج وابراهيم حافة القناة التي كانت قد مدت حديثا لاستيعاب كمية المياه اللازمة لري بساتين البترون من نهر الجوز ورحت اسير وراءهما وانا اتباطىء خوفا من ان تزل بي القدم ، فاهوى يمينا في القناة وشمالا في النهر . اما « القائدان » فكانا يسيران كانهما على طريق معبدة .

الاب طانيوس منعم خذلنا . الا انني شخصيا عدت فالتقيته دون عتاب ولا ملامة . وقد تتبعت اخباره الى ان علق في دعوى جزائية في البترون عندما كان الرئيس الاول لمحكمة التمييز حاليا الاستاذ يوسف جبران حاكما منفردا فيها .

الرئيس جبران برأ ساحة الاب الشيوعي ، لانه تبنى وجهة النظر المستمدة من الدستور ومن شرعة حقوق الانسان واني وانا اتذكر لا بد ان اذكر فقرات من هذا الحكم ، ليصبح لدى القارىء فكرة عن الأب طانيوس منعم ولماذا عرضنا نفسنا للخطر في سبيل التقائه ومناظرته واقناعه بعقيدتنا .....

الحكم الذي اصدره الرئيس الاول يوسف جبران يوم كان قاضيا منفردا في البترون حكم تاريخي فعلا ، فلأول مرة في تاريخ القضاء يتجرأ قاض ان يتوسع في فهم النصوص القائمة ، ويخضعها لمفهوم حرية الرأي والمعتقد المصانة في الدستور وفي شرعة حقوق الانسان اذ جاء في الحكم تاريخ 1953/9/29 :

« وبما انه لو صح وكان المدعى عليه يدين بالعقيدة « الماركسية ـ اللينينية ـ الستالينية » فعقيدته تلك لا توجب ادانته لان حرية الفكر مصونة باحكام الدستور وشرعة حقوق الانسان » وفي فقرة اخرى نص الحكم :

« وبما ان من حق الكاتب والخطيب لا بل من واجبهما ان ينصرفا الى معالجة القضايا الوطنية والانسانية والكفاح توصلا الى تحسين مستوى العيش ورفعه وتحقيق الانسان الكلي ووعي آمال الامة وآلامها والافصاح عنها ، لا ان ينصرف الى ادب المناسبات والادب « النخاسي » الذي يحبط الهمم ويثبط العزائم ويصرف الانسان الى سكرة خيالية تحول دون معالجته قضاياه الاساسية والحيوية .

من هذا الحكم يتبين ان الأب منعم لم يكن انسانا عاديا . انه ملتزم بمعتقد كما نحن ملتزمون . ولقد كان من واجبه وواجبنا لو سمح الظرف في ذلك الحين ــ ان نلتقي ونتحاور ، لأن الحقيقة بنت البحث ولا يعتقدن احد انه يملكها كليا . المطلق نفسه نسبي ..

عـــدنا من تلك الرحلة بخفي حنين ، الا من النصب والتعب والجوع ..

ايـــن الاب منعم في هذه الايام السوداء والحمراء معا ؟ هل ازداد احمرارا ام ازداد اسودادا ؟

ام هـــل تناولته رصاصات الطائفية والرجعية والعمالة ، فأطبق عينيه على وطن يحترق لأنه لم يصغ الى نداءات التقدميين بل اضطهدهم بسلطاته الحاكمة وبعض احزابه الببغائية !..

في ضيافة: المطران عمانوئيل فارس

ليس من العدل أن نزعج القارىء بالتفاصيل . الا ان بعض مروياتنا مرتبطة الى حد ما بالمرحلة الدقيقة التي مررنا بها اثناء الحرب العالمية الثانية . لم يكن بالامكان تجاوز بعض الوقائع وبعض الاسماء . اننا نريد ان نقطع حبل الرتابة متى طال واستطال ، وان نلون هذه الذكريات لتظل قريبة من العين والقلب !...

ان النشاط المتزايد الذي كنا نبذله ، جورج عبد المسيح وانا ، وتوسيع رقعة تحركاتنا لم تخف على السلطات الحاكمة . كان لا بد من ردعنا بانتظار القمع . الكبسات ما انقطعت ولكنها بدءا من شهر أيلول 1942 اخذت طابع الكثافة والكيد . البحث عنا صار جديا . لم يعد بالامكان الظهور علنا لفترة طويلة . عدنا الى الاختفاء الكلي كي لا نظهر الا في الظلام الدامس . لم يعد يعرف مقرنا حتى الاقربون منا . السرية المطلقة والحذر المطلق سلاح المتخفي .

جورج عبد المسيح اضطر للرحيل فبقيت وحدي . مرافقي الجديد رفيق شاب من جنود الزوبعة اسمه نبيل سالم . الحكمة قضت بان نفترق انا وجورج لكي يظل احدنا حرا اذا علق الآخر والا توقف العمل الاداري واحس القوميون الاجتماعيون باليتم والضياع والفراغ .

كان علي ان اجد لي مخابىء جديدة في بلاد البترون او ان انتقل الى بيروت ، او اتجه صوب الشمال والكورة الخضراء . استدعي الرفيق جورج حكيم ، فيمتثل . كان قوميا ممتازا . وهو من دسكرة صغيرة بالكاد اذكر اسمها : الفتاحات . اطلب اليه الانتقال معي الى دسكرته ريثما نفكر في ملجأ آخر .

من الفتاحات الى صورات برفقة نبيل وجورج واذ بي وجها لوجه مع المطران الجليل عمانوئيل فارس ، الوكيل البطريركي الماروني في باريس سابقا ...

لم آت الى صورات اعتباطا ولا ارتجالا . لعائلة زوجتي قريبة فيها تدعى لبيبة سويد متزوجة من السيد مخايل الفرخ . كانت كتلة من مشاعر المحبة هي وزوجها وافراد عائلتها وسلفها الخوري الجليل بولس الفرخ .

حللت ضيفا على هذه العائلة الكريمة . كنت اتصور انني سأكون غريبا في بلاد البترون . من يتحمل في زمن الحرب مسؤولية « فار من وجه العدالة » ويفتح له ابواب قلبه وأبواب بيته ؟

لقد تحملت العائلة الكريمة ، فكانت لي ملجأ حنونا . اعطتني دليلا جديدا ان وطني ، حيثما حللت ، هو امي وابي ، وان الوطن هو البداية والنهاية . يعلو على كل الاشياء ولا يعلى عليه والوطن هو اهله ، سكانه شعبه لا صخوره ولا سنديانه ولا أرزه او حوره او صفصافه او زيتونه او نخيله !

هذه العائلة حملتني الى الراعي الجليل المطران عمانوئيل فارس ، فكانت لي مفاجأة ، لا تزال حتى في التذكار ، تهزني هزا لطيفا . الحبر الجليل في السبعين من عمره رجل علم ووطنية وخبرات . كان يعرف حزبنا من خصومنا . ما اطلع عليه من ينابيعه . فدفعت اليه بما كان ادي من منشورات . وتواعدنا ان نلتقي في اليوم التالي . وكان اللقاء ــ النقاش . مطران ماروني ، يحاور سوريا قوميا .

انني اود ان أبدأ حيث انتهى الحبر الجليل . لقد اهداني بعد الجدل والحوار رسمه وكتب بخط يده : مع تأييدي لمبادىء حزبه وافكاره . ورحت احمل الرسم والكلمات كأفضل ما يحصل عليه مذيع لدعم اذاعته ، ومبشر لدعم تبشيره . كدت بهذه الصورة ، لو قبض لي توسيع اتصالاتي وعلاقاتي ، ان احتل بلاد البترون عقائديا . لم يكن الناس كأيامنا السوداء الحاضرة ، قد عبئوا طائفيا وشحنوا بالعداء والكراهية والحقد ضد مواطنيهم من الطوائف الأخرى وضد ما اسموهم بالغرباء . كان الناس ، كما سيعودون ، سليمي الطوية ، اسخياء الكف ، مفتوحي الصدر والعقل ، لتقبل المنطق والعلم وصادق المشاعر !...

الحقيقة اني لم اخترع البارود . لم آت سيادة المطران بالحجج الخوارق . وضعت بين يديه ببساطة وتواضع ايماني وقناعاتي . الى جانب منشوراتنا من نشوء الأمم الى شرح المبادىء ، احلته على المطران الدبس في تاريخ سوريا ، ثم احلته على مؤلفات الاب لامنس Lamensوالأب لويس شيخو وقاموس لاروس Larousseحيث ورد ان لبنان هو جبل في سوريا . ثم عرجت على جبران خليل جبران الذي كنا نسميه في الحزب : السابق . سلكت قبل الرئيس فؤاد شهاب الطريق الذي سلك . جاء اللبنانيين بالأب لابرا LEBREوجئت المطران فارس بأئمة الكاثوليكية وفيلسوف بشري وشاعرها .

لم اكن قد الفت بعد كتابي « نحن ولبنان » ولكني كنت اجمع المراجع لتأليفه .

العقدة التي تنعقد حولها العقد والاحجام عن الدخول في الحزب من قبل الموارنة هي العقدة السورية ــ الاسلامية . لبنان ظل الله على الأرض ، والأرز الخالد لا خلود فوقه

ولا خلود بعده . حدود الدنيا ارضا وسماء هي حدود لبنان . فكيف يجرؤ لبناني على التبشير بحزب سوري ، يهتف ليل نهار تحيا سوريا اي يتجرد من مسيحيته ليشد أزر المسلمين ويذوب لبنانهم في محيطهم الطاغية !!

لم يكن في الواقع ، لدى سيادة المطران ، رجل التقوى والعلم ، أي من هذه العقد ، او المعايير . كان صدرا رحبا . ادرك ان عقيدتنا ليست هدامة ــ كما وصفها مرة غبطة البطريرك عريضة ... بل على العكس عقيدة بناءة لمن يبغي وطنا قوميا سوريا ، ترعرع عبر الاجيال ووفق سنن نشوء الأمم ، ليكون أمة لجميع سكانها ، ينصهرون فيها اعراقا واجناسا واديانا ، ليصبحوا مواطنيها ، اسيادا عليها ، يحافظون على ارضها وترابها وانسانها ، مهما اقتضت المحافظة من تضحيات بالارواح والاموال .

ان الأمة السورية ــ وكانت لم تتوضح بعد حدودها وان حددت مقومات نشوئها ــ تشمل لبنان والشام وفلسطين ــ سوريا الجنوبية . وان لا لبنان سيضم او ينضم الى الشام وفلسطين ولا هما تنضمان اليه . ان الوحدة بين هذه الاجزاء تتحقق بعد اجلاء الاجنبي عنها بارادة شعبها ، بقيادة الحزب السوري القومي او بأي شكل آخر من اشكال تقرير المصير ...

على صحة هذا القول ، دفعت لسيادته بتصريح لسعاده ، مؤسس وزعيم الحزب ، ادلى به لجريدة النهضة في عددها الاول تاريخ 24 اكتوبر 1937 .

وانطلقت اشرح كيف ان الدين ــ وبالتالي الطائفية ــ لا تصلح اساسا لبناء الأوطان . وان حك المصلحة القومية على المصلحة الدينية انما يرجح المصلحة القومية . وذكرت حروب المسيحيين ضد المسيحيين في الغرب والشرق ، لأن مصالح القومية المتضاربة المتنافسة كانت تفرض عليهم القتال والتوسع . ورحت اذكر سيادته بالمجازر الطائفية ــ كم تصغر مجازر 1860 امام مجازر السنتين الماضيتين ــ وبوجوب صهر هذه الطوائف كلها في حب الوطن : الدين لله والوطن للجميع ، الى ان وصلت الى فصل الدين عن الدولة ومنع رجال الدين من التدخل في شؤون القضاء والسياسة القوميين .

تركت هذا الموضوع للنهاية ، لأنه لدى رجال الدين حساسية ضد هذا المبدأ الاصلاحي الكبير . الا انني عجبت لما هز سيادته الرأس موافقا : « انا يا ابني قادم من باريس . لقد قرأت كما لمست اثر التقدم في فرنسا بعد تحررها من سلطان الكنيسة وتدخلها في الشؤون الزمنية » هكذا قال لي المطران فارس .

ان الموافقة على فصل الدين عن الدولة وما ينتج عنه من منع لرجال الدين بالتدخل في شؤون القضاء والسياسة ، كان نهاية المطاف . احسست اني كسبت للحزب وللنهضة حبرا من احبار الكنيسة المارونية ، سيكون يوما من الأيام ، سبيلنا الى بكركي ،

قاعدة المارونية في انطاكية وسائر المشرق اي في سوريا الطبيعية كلها .

عندما يعترف رجل الدين بان الطائفية بلاء يجب الغاؤه لبناء وطن على دعائم قوية ، وعندما يعترف ان رجال الدين بتدخلهم في الشؤون السياسية يتجاوزون حدود رسالتهم ، يكون قد قطع نصف الطريق للوصول الى قلب الحزب ، فكيف وان سيادة المطران اقر معي بوحدة الامة السورية وبان لبنان جزء منها لا يتجزأ . وبأن فصل لبنان عن محيطه الطبيعي يشبه تماما فصل رأس الانسان عن جسده او انتزاع قلبه من صدره .

ان لبنان سوري عربي . ومراهنة الاقليات على الاجنبي حفاظا على وجودها خيانة قومية ، لأن منطق العصر لن يبقى على اقلية واكثرية ، بالمعنى المذهبي الديني الطائفي ، انه بالاستناد الى الولاء القومي ، سيصهر الطوائف ، والطبقات والاعراق ، اقليات واكثريات ، في الوجدان القومي ، المصهر الذي تنصهر فيه كل الخلافات والفوارق ... على ان تكون القومية ثقة القوم بانفسهم لا التعصب ولا العنجهية ولا العدوان !...

ان المطران عمانوئيل فارس ، لو أطال الله بعمره ، كان في هذه الأيام بالذات الداعية السموع الصوت لخنق الاصوات النشاز القائلة بالتعددية الحضارية . وبتأليه الجبل اللبناني والمارونية !... لقد ادرك المفكرون الموارنة ان الحزب لا يرتجل الوحدة والانصهار بل انها فعل الانفتاح والايمان والزمن ولكن الوحدة آتية بارادة الشعب لا ضد ارادته . ما جمعه الله لا يفرقه انسان . لقد خلق الله سوريا امة واحدة ووطنا واحدا وشعبا واحدا ، فلن تقوى قوة على ابقائها مجزأة . مفككة مفهورة ، مباحة لاصحاب المطامع والغايات والخصوصيات !...

في ضيافة الفنان يوسف الحويك

اكتب هذا الفصل من ذكرياتي عشية ارفضاض مؤتمر وزراء الخارجية العرب في قصر المير أمين في بيت الدين (17 ـ 10 ـ 78) . أصغيت الى القرارات الصادرة ثم الى تعليقات واشنطن ، وكنت قد استمعت الى وزير خارجية فرنسا دي غيرنغو . احسست ان الانفراج بين يدي . اجماع عربي ، اجماع دولي ، اجماع لبناني ـ ما عدا شمعون ـ اذن لا بد من السلام والطمأنينة والاستقرار . لا بد من سكوت المدافع والصواريخ والرصاص . لا بد من انطفاء براكين الحقد المتفجرة . شعرت وكأن كل القتلى قاموا من بين الركام والدمار يرقصون ويهتفون . تخيلت ان كل البنايات التي تهدمت او اصيبت عادت الى سابق مناطحتها السحاب ، كما تصورت ان لبنان دحرج الحجر وقام من بين الاموات وعاد لبنان !...

شتان بين ما نكتب وقلوبنا تتمزق ، وتكاد ارواحنا تزهق الما وحزنا ووجعا ، وبين ما تكتب وقد اخضوضرت الآمال ، وراحت تزقزق على صرير اقلامنا عصافير الطفولة واحلام العذارى ... وتخفق رايات السلام !

اذن انتهت الحرب . انتهت المؤامرة . « اسرائيل » حشرت وراء حدودها الدولية لا تجرؤ على التقدم لنجدة عملائها . امامها الآلة الحربية الاميركية والآلة الحربية السوفياتية ترفضان كلاهما ـ على ما يبدو ولو في الظاهر ـ اطماعها التوسعية . فهل تقف ؟

هل يقف الرئيس سركيس مع العرب او ضد العرب ؟ هل يقف مع لبنان الحقيقي التقدمي ، العربي او مع لبنان اليهودي الاسرائيلي الشمعوني الكتائبي ؟...

نحن بانتظار خطوة الرجل العاقل . نحن بانتظار قراره مع حكومته ... نحن بانتظار التطبيق والتنفيذ . نحن بانتظار العزم والحزم ، بانتظار ان يسود النظام والقانون وان تقفل دكاكين الخوة والنهب والسلب تحت شعار الدفاع عن لبنان !...

نحن بانتظار اغلاق كل منافذ الامل عن سادات مصر ، وعن اسرائيل بان لبنان سيكون على الحياد او ... مع كمب دايفيد والسلام الزائف الملطخ بدماء شعبنا وحقنا القومي !...

ولنعد الى بلاد البترون .
المطران عمانوئيل فارس زوبني ـ كما ذكرت ـ بصورته وتأييده لمبادئي وقضيتي . وألزمني بالاقامة في ضيافته اسبوعا ـ هاك الدير يمكنك ان تعيش فيه الى آخر الحرب ، الى ان تستعيد حريتك . لا احد يمننك . الدير تحت اشرافي وادارتي . من يمكن ان يشتبه انك مختبىء في دير ماروني ؟!...

لا أذكر كم بقيت في ضيافة سيادته وآل الفرخ الاكارم . بل اذكر اني حضرت قداسا اقيم في كنيسة القرية برعايته . كان اهل صورات ، واكثرهم لا يعرفني ، يتهامسون : من هذا الغريب ، الذي يصلب بالثلاثة (اشارة الى اني روم ارثوذكس) ؟... لم أبال ولا اهتممت . صورات لا تحمل لي حقدا ولا هي داخلة في نطاق القوى المشبوهة . الشبهات تحوم كلها حول القويطع والكورة الخضراء . بلاد البترون امرأة قيصر !...

ظهرت في الكنيسة واختفيت . مرافقي كان قد عاد ادراجه . تولى حراستي جورج حكيم . انطلقنا باتجاه عورا ـ قرب دوما ، الى دارة الفنان الشهير يوسف الحويك ، رفيق جبران خليل جبران ، والعضو في الحزب السوري القومي الاجتماعي ، وصانع تمثال نصفي لانطون سعاده !...

احيانا ، يكون الفار من وجه العدالة ضيفا ثقيلا ، ونادرا ما يكون ضيفا وقحا . ظننت ان منسك الفنان هادىء ـ مطمئن ، لا يجوز ان اعكر صفاء سمائه ولا صفاء مائه . سرت نحو الدارة المنفردة اقدم رجلا وأؤخر الثانية . هل أقدم ، هل أتراجع ؟ واخيرا قررت الاقدام وليحدث ما يحدث ! الرجل رفيق ، فاذا تضايق ، انسحبت بانتظام ...

كم كانت دهشتي ان يوسف الحويك تلقاني بذراعين مفتوحتين ، كأنما المفاجأة اسعدته ايما اسعاد ... الفنان الكبير كان متواضعا حتى الوداعة ... كان كريما حتى التبذير . كان فنانا بروحه وحديثه ... وريشته وازميله !... لم يكن بيته ملكا له كان ملكا للفن ... ولكل رائح وغاد ...

وكانت دهشتي اكبر عندما حدثني يوسف الحويك عن الحزب . انه سوري قومي حتى العظم . انه لا يزال مؤمنا . كان ميالا للطليان لأنه خريج مدارسهم وجامعاتهم ، او لأن له صداقات مع بعض حكامهم ، الا انه كان يحيا الحزب عقيدة ونظاما . ويدرك بالتحليل والتعليل ، لماذا الأمة السورية لا اللبنانية ، ولماذا لبنان جزء من سوريا الطبيعية والتاريخية .

كنت اتصور ان الحرب وعزلة الفنان الكبير والملاحقات الفرنسية للحزب والاحكام التي صدرت والاعتقالات والحملات المغرضة ، اضعفت صموده ، وهو على ابواب

الستين ، وألزمته بالانكفاء والانطواء . بهرني ايمانه وصموده . يهزني اعتزازه بالحزب وبصداقته لانطون سعاده شخصيا .

ودخلت الى صالة الفن المستديرة ، فاذا لوحاته لوحات عمر الانسي تتصدرها . عمر الانسي كان صديقه المقرب . احبه حبا جما . وكان الى جانب عمر ، مصطفى فروخ . لا انكر سوء فهمي للفن بل اميتي الكاملة في مواجهته . الا ان الناحية الجمالية ، في أية لوحة ، تأخذني بانسجام الوانها ، خاصة متى كان موضوعها الطبيعة . لا احب لا في الشعر ولا في الرسم ولا في النحت المدرسة التي تقفز بي بخطوطها وضبابها الى سماء لا يمكن لخيالي ان يتصورها ، او لأرض لا قبل لي باللحاق بما ترمز اليه ... احب الواقعية والطبيعة والبساطة في كل شيء حتى في السياسة . وكان يوسف الحويك نحاتا او رساما من هذا الرأي وهذا المذهب .

من هنا كانت فرحتي كاملة بما شاهدت من لطف مضيفي ، ومن بساطة صالته الفنية ، ومن جمال المناظر التي وقفت عليها عيني من عورا ــ قرب دوما . الأرض حولي صخور واودية واخضرار . في القمة دوما وفي الساحل البترون وسهول الكوره والقويطع الى اليمين ...

كم اشتهي أن أقضي أيامي الأخيرة في أحضان الجبال والأودية وجلالي العنب والتفاح وكروم الزيتون ؟ كم أشتهي أن تكون أيامي الأخيرة كأيام يوسف الحويك ؟ أن أظل مالكا كل قواي وادراكي وكل صفاء ذهني وقلبي لأحب بلادي وحزبي والعالم كما كان يحبها يوسف الحويك !... لأحب صناديق النحل وثغاء الماعز وبساتين التفاح واللوز والكرز كما كان يحبها الفنان الكبير .

سألني ماذا أريد أن أتناول عند الصباح . فأجبته بأني آكل ما يقدم لي بلا شروط . لقد تعودت أن آكل من خبز القرية وانتاجها . اما هو فقد اعتاد أن يشرب كاسة من الحليب الساخن فقط لا غير .

بعد زيارة الصالة الفنية ، انتقلنا الى مشاريعه الزراعية . كان قد اشترى صناديق للنحل والعسل وكان على وشك القطاف ... كما كان قد بدأ باعداد الأرض لغرس التفاح والكرز وسوى ذلك من الاشجار .

أحب أن أنتج شيئا . ان اعمل دائما شيئا . اني استصلح هذه الأرض التي حولي . سأزرعها كرما . سأعمل ما بقيت حيا ... غدا ترى جلالي التفاح تملأ هذا التراب الأحمر !.

بهذه المناسبة اقتطف من كتاب الأديبة الكبيرة ادفيك جريديني شيبوب بعض مقاطع من كتابها « ذكرياتي مع جبران » التي التقطتها من فم الفنان الكبير ، وصاغتها

بأسلوبها الأخاذ الساحر ، فجاءت المرويات بعد ان نفخت فيها ادفيك روحها واسلوبها ، قطعا من أدب الحياة وتاريخا لعامين من عمر جبران والحويك هما لماما الحب و ... بدء الصعود الى القمم .

قالت الأديبة في مقدمة الكتاب :

« ذكريات هذا الكتاب رواها شيخ فنانينا الاستاذ يوسف سعد الله الحويك . من سنيه الاربع وسبعين التي وقفها على الفن بين (حلتا) وروما وباريس وبيروت واخيرا (عورا) نقطف « هنا ذكريات بعض سنتي 1909 ــ 1910 . مسرحنا باريس حيث اجتمع الحويك بصديق صباه جبران خليل جبران ، فجددا العهود القديمة » ..

وتضيف الأديبة في نفس المقدمة :

« ... ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فآثر الحويك ، وقد اسود قلبه وتكاثرت عليه الويلات ، اعتزال الناس والانزواء في قريته عورا يقضي انضج سني عمره في خدمة الأرض » وهي أبر به من أخيه الانسان . وبازميله وانامله يتلهى عن واقعه المرير بتحويل الصخور المشرئبة في حنايا الحديقة الى رؤوس لعذارى احلامه ... لعلها قريبة الشبه برفيقاته « الباريسيات اولغا وروزنيه وسوسان (ذكريات مع جبران حررتها ادفيك جريديني شيبوب) . عورا التي قضيت فيها يومين بضيافة يوسف الحويك اصبحت فيما بعد مزارا ومحجا . الفنان المنزوي يصبح نوعا من القديسين والاولياء .

عدت من حيث اتيت ، عبر نهر الجوز وكفتون ، لأجد ان المنطقة تغلي ، الخوف علي في كل مكان . لا يجوز ان ابقى يوما واحدأفي القويطع . عمي نخول بربر ينتقل بي مشيا على الاقدام باتجاه « كفور العربي » على المقلب الآخر في دوما ــ البترون شمالا . نسير اكثر من ساعة لنعرج على دار بعشتار . نسيم الحاج (والد الرفيق بدر الحاج) من الرواد في المنطقة آمن وجاهد وسخا ، يطلب الي البقاء في داره . يضمن السلامة ، يقوم بالحراسة ، اعتذرنا واكملنا السير الى الكفور ، الى بيت حنا سابا . حنا سابا المثل الحي للصديق الوفي الكريم . نبقى بضعة ايام في ضيافته لا نرى الا اهل البيت والسقف والجدران ورفيقا او رفيقين فقط . لا تكفي الكلمات وحدها لرسم صورة صادقة عن آل سابا ، يشعرونك وانت في دارهم ــ وهم يتحملون من اجلك المخاطر والمحاذير ــ انهم مدينون لك لانك وثقت بهم وحللت عليهم ضيفا ..

قفلت بعد اسبوع من الاختفاء عائدا الى واحة الامان لانطلق باتجاه قلب الكورة النابض ، من كفرحزير الى بشمزين الى عفصديق ، الى فيع ، الى بيترومين ثم الى مسقط رأسي دده او ما نسميه منطقة القلع . مرافقي في رحلاتي الكورانية كان جورج شاهين . المغترب حاليا في المكسيك . انه احد اصحاب دار آل رشيد التي تحدثت عنهاكثيرافي هذه الذكريات . لقد دخلت وحيدا مرحلة الايام العصيبة هذه المرة .

صممت السلطات الفرنسية ــ البريطانية ان تلقي القبض علي مهما كلفها الامر من ضغوط وارهاب ومال . وانا صممت على فك الطوق بأي ثمن . لا يستسلم رافض بسهولة . الصراع لم يكن بيني وبين فرنسا وبريطانيا وقوى الامن اللبنانية ، بل كان بيني وبين شبح السجن الذي ينتظرني ، بين العافية وقد استعدتها في مناخ الشمس والهواء النقي ، والاودية والجبال ، وبين المرض الذي يتربص بي كلما عدت الى مناخ القبور المكلسة . باختصار بين الحرية والعبودية ، بين الموت والحياة !.. خيال الشاعر يضخم الصغائر فاذا هي كبائر ؟.

كان للسلطة جواسيسها ومخبروها وكان رفقائي في كل الكورة يرصدون تحركاتها ، رأس الحكمة في خطة الافلات من المطاردين يكون باتقاء سلوك المسالك المألوفة والمعروفة.كان علي وعلى مرافقي ان نكتشف منسربات تقينا العيون والآذان . الصراع بيننا وبين السلطة اخذ شكل صراع السمكة والشبكة ، والدبق والعصفور والطريدة والصياد .. يحضرني في هذه الذكريات وجه اخ عزيز هو مخايل ايوب (كوسبا) . كان مجندا لمرافقتي كل مرة لا اجد فيها رفيقا . حفظ لي كرامتي في الأيام القاحلة . كما اشترك في حراستي في ساعات الضيق ، كان مخايل يبذل بصمت ولا تمنين . قليل الكلام كثير الفعل . ما تركنا الا تحت ضغط العائلة الكبيرة والمحيط المعادي .. الا اننا لا يمكن ان نتذكر دون ان نتذكر افضاله .

التصعيد بلغ ذروته في تشرين الاول 1942.امرت السلطات بقطع الاعاشة عن منطقة القويطع كلها . أرسلت الانذارات الشديدة اللهجة الى المخاتير والنواطير . تبث العيون والارصاد في كل زاوية ورابية ، دوريات الدرك راحت ترصد كل الطرقات المؤدية الى بتعبورة واحيانا تسهر على سطح منزل آل الخوري ، اخوال زوجتي ، حيث كانت تقيم مع صباح وضحى وقد اضيف اليهما عاطف الذي ولد في 25 تموز 1942 . ثم اشتد الضغط على اهلي في دده الكورة وكثفت الكبسات على كل اقربائي وخاصة بيت حنا طنوس القبرصي (توفي في مطلع العام 1978) .

الطوق اخذ يضيق حول عنق حريتي . وكنت احاول جاهدا كسره او فكه . كان العراك كرا وفرا . السلاح الاقوى فيه الدهاء والحيلة .

بعد عودتي من كفور العربي وبلاد البترون . قررت التوجه الى مسقط رأسي دده عبر الكورة الجنوبية الغربية : كفر حريز ، عفصديق ، فيع ، بيتروين ، دده ، لأبلغ في آخر المطاف بلدة النخلة .

كنت امشي عبر الاودية ساعات طوالا ، الاشواك تدمي قدمي ، والتراب يخرق ملابسي حتى العظم ، اذ اتدهور احيانا ملقيا بنفسي على المنحدرات ، كيفا اتفق ، العتمة ام كل المزالق للفار من وجه المظالم .!

في كفر حزير تدبر الرفقاء امري بان فتحوا لي كوخا قائما بين اميون وبلدتهم لا يسكنه احد ، حملوا الينا الفراش والزاد وبتنا ليلتين او ثلاثا دون ان يدري بنا احد من الغرباء ..

تنادى ، من بعد الاصدقاء لاستضافتنا ، مررنا في بشمزين والقمر يصعد من وراء فم الميزاب ، ارسلنا المرافق جورج رشيد شاهين سائلا عن رفيق قديم اسمه سليم النبتي من الباقين على العهد رغم الشدائد ، ولكنه لم يجده . اضطررنا للزحف الى عفصديق . بتنا ليلة فيها . نذكر بالخير السيدة فيكتوريا زوجة نقولا سمعان (توفيت منذ سنوات) كانت تحرسنا مسلحة في ليالي الخطر عندما نمر في دارهم !... المرأة القومية الاجتماعية المؤمنة شجاعة وقادرة على النضال المسلح اذا حزمت امرها واستقالت من اوهام الضعف الانثوي .

في فيع ، التي بلغناها قبيل منتصف الليل حوالي العشرين من تشرين الاول 1942 ، لم يكن لنا مبدئيا ملجأ الا في بيت آل سليمان ، وفي طليعتهم الاديب الشاعر فؤاد .. قبعت على كتف الوادي وحدي وكانت تهب من قلبه نسمة باردة ، فيما ارسلت المرافق ليستدعي الحبيب فؤاد لمقابلتي . جاء مع ابن عمه (شقيق زوجته) جوزيف حيدر. لم يكن فؤاد طبيعيا . كان في تلك الليلة غريبا عن نفسه . « انت في فيع يا عبد الله ! هذه ادهى مخاطراتك . السماء والارض في فيع ، الاحجار والبلان والوديان جواسيس عليك . اياك ان تفكر بالمبيت في هذا البلد . غدا تصبح في السجن . اسمع نصيحتي وانصرف حالا» .ادار ظهره ومشى .

كنت افضل ان اذهب الى السجن من ان اسمع من اعز رفقائي واصدقائي مثل هذه العبارات المرتجفة ، المستضعفة ، الهروبية .
استوقفته لاقول : « عد من حيث اتيت ، شكرا لنصائحك » . « سأنام الليلة في فيع ولكن في غير دارك » .

وذهب فؤاد كئيبا وغاضبا معا . كان صادقا في خوفه وكنت صادقا في ثقتي بأهل فيع وبنفسي .

طرقت باب آل النكد طنوس وسمعان وعبد الله النكد : هبوا مذعورين . قلت والباب لا يزال مقفلا : انا عبد الله قبرصي ، افتحوا .. لا تخافوا ..

وفتحت الابواب ، وهب الرفقاء يضمونني الى صدورهم ، يبكون فرحا بلقياي . بدلوا فراش الاسرة . حضروا الطعام والشراب . عيدوا . هؤلاء الطيبون الذين ما بقي لنا من آثارهم الا عبد الله واولاده ، رفقاء لا يهدأ لهم عصب قلقا على القضية وايمانا بانتصارها .

وعلى الرحب والسعة والثقة والمحبة رقدت رقادا ، ما ايقظني منه الا ضجيج العمال في الصباح الباكر . كان آل النكد يبنون غرفة جديدة او يقومون بانشاءات اخرى لصيقا بمنزلهم .

افقت مع مرافقي بعد ليلة تعب مضنية ، واول ما خطر لي استدعاء الحبيب فؤاد سليمان لاعلامه بان « فيع » الجواسيس والارصاد والمخبرين كما زعم بالامس تلقتني بصدرها الحنون ، كأخت او ام رؤوم . جاء فؤاد وتفاهمنا واعتذر بعد قليل من الصياح وكثير من العناق الاخوي .

ليس هذا كل شيء ، آل النكد ، الاخوان سمعان وطنوس ، وعبد الله الابن ما ناموا تلك الليلة . احدهم سهر على سطح المنزل ، والاثنان الباقيان رصدا مداخل فيع من جهة العين ومن جهة مار سمعان .. وجهة اميون وعفصديق .

سهروا دون اعرف لكي يضمنوا سلامتي وحريتي .. تكررت ليلة رأس نحاش ، ليلة حسين الخطيب وعبد الله الصديق !..

وكان علينا في الليلة التالية ، تحوطا لأي كبسة ، ان نتسلل الى دده مسقط رأسي ، عبر المسالك الوعرة ايضا . كررنا ليلة كفتون الراعدة البارقة الصاخبة . لم يكن هنالك مطر ، ولكن العتمة كانت تلفنا فلا نجمة تشفع بنا ولا قمر . عود ثقاب ما كان بالامكان اشعاله خوفا من الفضيحة . كان مرافقي تلك الليلة احد رجالنا الصامدين اسكندر سليمان . ووصلنا الى دده والناس نيام . تدبرت مرقدا لي ولرفيقي جورج رشيد . اما الرفيق اسكندر فقد عاد سالكا الطريق العام دون ان يصاب بمكروه . انا اذن في احضان قريتي ، في احضان ذكريات الطفولة وملاعب الاتراب ، والحب العذري الاول .. انا على تراب ابائي واجدادي حقا . انا في حمى الخؤولة والعمومة والاهل والاحباب !..

في هذه الاثناء كنت قد اتخذت قرارا بتحدي السلطة من جديد . الضابط الذي كان يقود الحملات والمداهمات اسمه الملازم فؤاد صباغ ، زوج السيدة مهيبة المنذر ، ابنة النائب الوطني والشاعر والخطيب ابراهيم المنذر الذي ورد اسمه كثيرا خلال هذه التذكارات !.. كانت جائزته اذا عثر علي خمسة عشر الف ليرة لبنانية نقدا ، وترفيعة الى رتبة نقيب وأوسمة وتنويهات . رغم علاقتنا الحميمة بآل المنذر . واحدهم حافظ كان قد اقسم اليمين ويناضل في صفوفنا بتفوق ، اندفع فؤاد الصباغ طمعا بالمال والرتبة

والاوسمة بحيث بدا لي ملكيا اكثر من الملك . من التهديد والوعيد انتقل الى التنفيذ . سد علي الجسور والمعابر والمسالك . هدد باحتلال القويطع من قبل السنغاليين بعد ان قطع عنه الاعاشة . اثنتا عشرة قرية باتت تئن وتشكو ولا سميع ولا مجيب . انها مهددة بالتجويع .

ازاء هذه التصرفات العدائية ـ هكذا اعتبرتها رغم انه كان يقوم بواجبه ـ قررت ان اهدده واتوعده ، فاذا لم يمتثل ، ان اعطي الامر باغتياله . انا الذي يشفق على الحشرة من ان تدوسها قدماي . نعم قررت ان اضرب في العمق . الا انني اثرت البدء بالتهديد ، عل في التهديد خيرا . لقد حرضني الاهل والرفقاء والاصدقاء على الملازم صباغ ، انه يتحدى الحزب من اجل المال لا من اجل الوطن .. ولا من اجل الواجب !..

استدعيت الرفيق جميل فارس من كفتون . جميل كان كتلة من القوة البدنية والفروسية كان فدائيا في زمن كان الناس فيه يهربون من الموت حيثما يتيسر لهم مهرب . اشهد ان عهد الفداء على الساحة اللبنانية ، دشنه القوميون الاجتماعيون ومنهم جميل فارس .. في تلك المهمة الصعبة .

كتبت بخط يدي رسالة الى الضابط فؤاد الصباغ ، لا اذكر العبارات بالضبط بل اذكر المعاني ، وهي على وجه التقريب الآتية :

حضرة الضابط المحترم .

انت زوج السيدة مهيبة المنذر ، وهي أخت روحية لزوجتي ، فقد ربيتا معا . انت اذن عديلي . علاقتي بآل المنذر علاقة أهل بأهل ، ورفقاء برفقاء . انها ليست علاقة عادية .

انك تطاردني مطاردة هوجاء . لا الومك فهذا واجبك . ولكن ان تحمل صورتي مع عروستي ، من بيت اهلها ، وان تهدد شقيقها وابناء عمها ، وان تهدد النواطير والمخاتير وتجوع المنطقة ، فأمر آخر .

رأيت ان اوجه اليك هذا الانذار قبل ان اقدم على اية خطوة قد توقع بك اذى لا يعوض ، لاحقني بما استطعت من قوة . سد علي المنافذ والطرقات . هذا حقك وواجبك . اما ان تهدد عائلتي وابناء عمومتي والنواطير والمخاتير الابرياء وتقطع عنهم الاعاشة فاني ارد اليك هذا التهديد . اذا اقدمت على ايقاع الاذى بأي من الابرياء الذين لا اراهم ولا يعرفون مقري اقدمت انا على ملاحقتك في عقر دارك انتقاما للابرياء . انت تعرف ان القوميين لا يمزحون ولا يرسلون الكلام جزافا . اذا قالوا فعلوا واذا قرروا نفذوا .

وقد اعذر من انذر تشرين الاول 1942

التوقيع : عبد الله قبرصي

سلمت هذه الرسالة بعد ان حفظت عنها نسخة ضاعت بين اوراقي التي ضاعت مثلها ، الى الرفيق جميل فارس ، مع التعليمات التالية :

تذهب الى اقرب بيت لمنزل الضابط الصباغ ، تراقب ساعة خروجه من المنزل دون ان تستثير في تصرفك او مشيتك اي ارتياب او اشتباه . تنتظر غيابه عن نظرك ، فتمر امام الباب او امام احدى النوافذ ، وترمي بهذه الرسالة داخل المنزل ، وتعود بكل هدوء . اذا القي القبض عليك صدفة قل اني ارسلتك وانك نفذت امري ..

وقام جميل فارس بالمهمة الخطيرة بدقة حسابية ، كانت الخادمة تنظف السجاد في بيت الضابط ، نادتها ربة الدار الى المطبخ ، فرمى جميل الرسالة في الدار دون ان يراه احد !.. وعاد من حيث اتى .

عثرت السيدة مهيبة على الرسالة فتلفتت لزوجها فهرول على الفور عائدا ، وكان اول ما فعله انه اتهم زوجته بالتواطوء معي . « كيف تندس هذه الرسالة في صالة بيتي ولا ترون ناقلها ! » .. كان الرجل غيورا شكاكا !..

صور الرسالة . ابلغها الى كل المراجع . جعل منها قضية . طار الى بيروت ، فسلم عنها نسخا للقائد العام الجنرال نوفل ، كما للقيادات الفرنسية ودوائر الامن العام الفرنسية والبريطانية .

لم ينس ان يمر ببيت اخوال زوجتي الارشمندريت بولس الخوري انذاك مطران العرب اليوم والاستاذ فهيم خوري . اطلعهما على الرسالة وطلب تدخلهما لمنعي من التهور .. صهركم يهددني بالموت ، هل يقتلني ؟.. انا صهر الشيخ ابراهيم المنذر ؟..

ثم جاء على رأس قوة الى بتعبوره وقابل زوجتي واهلها معتذرا ، طالبا اليهم ان يساعدوه لاقناعي بالاستسلام واقناعي بالعدول عن اية خطة انتقامية . فوعدوه خيرا وطيبوا خاطره اتقاء لشره .

كنت في تلك الاثناء في قريتي دده ــ مررت من قبل في بيترومين وبت ليلة في منزل قريبتي نور حريكي ، بحراسة الرفيق حنا القبرصي ، الذي سهر علي طوال الليل ، بعد ان امنت ربط حبل طويل بسريري يمكنني في حال حصول كبسة من التدلي الى الحقل عبر النافذة !..

كما مررت بالنخلة ، بقيادة الرفيق علي الايوبي ، الذي سهر علي هو وباقي الرفقاء طوال الليل ليؤمنوا الحراسة !..

نقطة الانطلاق ، كانت دده ، اختفى عن الاعين قدر الطاقة ولكني اؤمن ان تراب مسقط رأسي لا يخونني !

الضغط كان ــ بعد الرسالة ــ قد بلغ ذروته .

دخل النواطير سجن اميون . التهديد بقي تهديدا بحق المخاتير ولكنهم خافوا . فؤاد بربر ، شقيق زوجتي اقتيد الى السجن وافرج عنه مؤقتا ليبحث عني ويطلعني على آخر التطورات ويستحثني على التسليم !

جاء فؤاد ملهوفا ، محتارا . عرفت خلفيته . كان مغرما . كان ينوي الزواج من « مارغو صقر » لا من السجن كما جرى لي مع شقيقته !..

قال لي : الضابط صباغ تعهد لي بما يلي :

اولا : استسلم الى السلطات اللبنانية لا الفرنسية ولا البريطانية .

ثانيا : اذهب الى معتقل الميه وميه رأسا دون المرور بدوائر الامن العام وتخصص لي غرفة في مستشفى المعتقل .

ثالثا : تعهد باخلاء سبيلي بعد اربعة اشهر على الاكثر .

رابعا : تعهد بان يدفع راتبا شهريا قدره ثلاثمائة ليرة سورية الى زوجتي واولادي .

قلت : اعرف ان هذه التعهدات كلام بكلام ، عندما اصبح في القفص . لا يبقى من هذه الشروط الا فرض الاوامر والانتقام والحبر والورق طبعا .

قال : ولكن هل تريد ان تخرب المنطقة وتخرب بيوتنا ونساق الى السجون والمعتقلات بسببك ؟.

قلت : لا يؤخذ بريء بجريرة مذنب ، انكم تلاحقون الان للضغط علي هل تتحمل مسؤولية دمي اذا قتلوني ؟

قال فؤاد : نترك لك حق القرار ، ولكن لا تنس اني اذا ذهبت الى السجن خسرت مارغو !..

بعد دقائق كانت سيارة تنتظرنا لنقلنا الى شكا ، ومنها نذهب مشيا على الاقدام ، عبر الصخور والمزالق ــ من جديد ــ نبلغ بتعبوره ونتداول مع الاهل والشيوخ الحكماء .

لم يكن من الجائز ان انفرد بالقرار .

وانطلقنا . كان معي سجيع حنا القبرصي ومخائيل اسحق اللقيس وفؤاد بربر وجورج رشيد شاهين بلغنا بتعبوره منهوكين بعد منتصف الليل . عاد المرافقون الى دده دون ان يشعر بهم احد .

توجهت توا الى حيث عائلتي ، حيث زوجتي الحبيبة مذعورة « الى اين انت آت ، انهم على السطح » قالت لي .

ثارت ثائرتي . شعرت اني استحلت الى وحش كاسر . خرطشت البارودة التي كنت احمل ورحت اعدو بين البيوت صائحا .

« اين انتم يا ابناء الافاعي الساعين وراء رأسي » « اظهروا رؤوسكم من مخابئها » !..

لم يكن هنالك احد ، رحت اعدو باتجاه مدخل بتعبوره لجهة كفتون ، اعدو كالمجنون ، يجب ان يجن الانسان احيانا لترتاح اعصابه ! وارتاحت اعصابي بعد هذا الجنون فعلا .

كل ذلك ومرافقي وبعض الرفقاء الذين سمعوا صياحي افاقوا يسعون ورائي يريدونني ان اعقل . ان اسكت . وسكت شريطة ان انام في منزلي !.. وليكن ما يكون !..

في صباح اليوم التالي جمعت شيوخ بتعبورة في بيت عم زوجتي يوسف بربر ، ابو الدكتور حسيب وماري جبران جريج وهولندا جورج صعب . كان شيخ شيوخ المنطقة قيدومهم فروسية وكرما .. لبى كل من الياس خليل فرح ومخائيل صعب والياس تامر وسليم لطف الله الخوري وعمي نخول بربر واسكندر نصار (مختار الضيعة انذاك) . ووجد صدفة شيخ من شيوخ كفرحاتا الاجاويد الياس صوايا) « كم لنا من ذكريات حلوة في بيت هذا الشيخ الكريم وزوجته برجوت .. ما ذكرنا تضحياتهم من اجلنا سهوا » ..

اجتمع الشيوخ ، واذا بشيخة تطل على الاجتماع ، تستأذن وتجلس وتصغي باهتمام هي ام فريد سويد (حفيداهااستشهدا في كمين كفر حزير في سنة 1979) .

قال الشيوخ ، بعد ان عرضت لهم اسباب الدعوة الى الاجتماع وطلبت مشورتهم اذا كنت استسلم او لا استسلم .

« انت صاحب القرار ، انت تقرر ونحن ننفذ . لا يمكن ولو متنا جوعا او سجنا مع نسائنا واولادنا واحفادنا ، ان نشير عليك بالاستسلام . من يدري ماذا سيحل بك ؟.. كيف نتحمل مسؤولية دمك » .

وما كادوا ينهون كلامهم حتى هبت الشيخة الجليلة ام فريد قائلة بصوت عال متهدج : لا يزال عندنا ستة كيلوات شعير . آخر ما نملك من غذاء . اننا مستعدون ان نموت جوعا ولا ان تصاب انت بأذى . (حقا تستحقين يا ام فريد وان كنت تحت التراب شرف ان تكوني جدة الشهيدين الياس وناهض سويد ، كما استحقت امهاتهم واباؤهم وزوجاتهم هذا الشرف بموقفهم البطولي ازاء الفاجعة التي حصلت بالحزب والعائلة معا) .

قلت جوابا على هذا الموقف النبيل الممتلىء حبا وايمانا : لقد اتخذت قراري ، غدا اسلم نفسي « لعدالة » الظالمين المستعمرين ..

وسرى الخبر سريان الحمى في كل المنطقة ، عبد الله قبرصي العائد الى السجن لن يسلم هذه المرة . انه ذاهب الى الموت !..

ليس لي قلم ــ ولو بعد طول الزمن الذي غبر ــ يصور عيون اهل بتعبورة ووفود المنطقة التي اقبلت علي من كل صوب . آه لو صورت عيون نديم جواد واحمد عثمان واديب بربر واسد نصار ونقولا فرح وجرجي الياس وكيف غشاها الاحمرار لكثرة ما نزفت من دموع !..

لو صورت متيلدا بربر ومريانا خوري وهولندا وناهيل واملين ونبيهة صعب وحكوم سالم وام حسيب بربر وديبة رشيد وشفيقة نصر ، وآل فرح وتامر وصقر وسويد وسالم وكنعان وداغر والمير والرحباني وفياض .

لو صورت ولولة زوجتي الحبيبة وامي الثانية مريم خوري واخوات زوجتي فريدة ونازك وليلى .

لو صورت لانذهل القراء من هذا الفيض العاطفي يغمرني به القويطع الحبيب ، من كباره الى صغاره كأنما في هذا التنقل بين القرى والعائلات استطعت ان اربطها كلها فاذا هي قرية واحدة وعائلة واحدة لا تجمعها المنافع او العواطف بل الرابطة القومية ، التي تصهر وتوحد حتى المتناقضات فكيف وهي توحد وتصهر اهلا مع اهل وجيرانا مع جيران !..

ها انا استسلم فكأنما يستسلم كل واحد منهم . لم اكن ذاهبا وحدي الى المعتقل . كانت كل هذه القلوب والعيون ترافقني . هكذا تكون اجتماعية الانسان . فعلا لا نظرا ، يشعر مع رفيقه او مواطنه شعوره مع نفسه . انها المحبة دين الانسانية الجامع الشامل . انها الدين الذي انزل للناس مع كل دين ، والذي ينبع من الارض مع كل قطرة ماء . انها ينبوع الالهام لكل نبي ورسول وفيلسوف مصلح . انها الله . ماذا يمكن ان يكون الله اذا لم يكن محبة ؟.

مفاوضات الاستسلام

كان لنا صديق يدعى داود ابو جودة من دير الحرف . لم اكن اعرف انه موظف في الامن العام الفرنسي . جاء الى بتعبورة يعرض على زوجتي ان استسلم الى السلطات الفرنسية . واغدق علي الوعود . ثم ارسل الامن العام البريطاني من يفاوضني للاستسلام الى السلطات البريطانية بشروط سخية ، رفضت العرضين قائلا : اذا كان لا بد من الاستسلام فانا اسلم نفسي فقط للسلطة اللبنانية ، رغم تأكدي من تبعيتها الكاملة للارادتين الفرنسية والبريطانية .

كانت المداهمات قد توقفت والملازم صباغ لبث ينتظر ابن عمي فؤاد بربر للاتفاق على مكان وزمان الاستسلام وتنفيذ البنود المتفق عليها التي ذكرتها انفا .

وجاء الصباغ بعد ان نقل اليه ابن عمي تصميمي على التسليم على يده . كممثل لقوى الامن اللبنانية . لم اشأ ان استقبله في اي بيت خوفا من المضاعفات ، اذ يمكنه ملاحقة اصحاب الدار بتهمة اخفائي في دارهم ، فآثرت ان نلتقي في كرم زيتون يقع في عربة الحمرا في ملك آل تامر ، قريبا من بيوت السكن وبعيدا عنها في الوقت ذاته .

كان لدي شرطان :

اولا : ان يأتي الضابط وحده بدون حرس ولا حراسة .

ثانيا : ان يأتي بدون سلاح مخفي او ظاهر .

وتعهدت من جهتي ، ان استقبله وحدي ، وبدون سلاح .

تمت الموافقة .

وحضر الملازم صباغ .

كنت محاطا باكياس الزيتون ، لاننا كنا في عز الموسم . وكان الناس كل في كرمه يجمع زيتونه ، لم يكن في الكرم الا انا واكياس الزيتون والاشجار .

تقدم الضابط صباغ وحده باتجاهي . كنت قد تعبت جدا في الليالي الاخيرة سهرا وقهرا ، العودة الى السجن ولو مفتعلا وبطواعية واختيار لم تكن بالعملية السهلة على من دكه السجن مثلي دكا . كنت ارتدي الشورت ، وقد بان علي الهزال والاصفرار ، كنت القي نظرات تأملية على طبيعة ارضنا البيضاء بين القويطع وكفر حزير .

وقفت لدى وصـــول الضابط تأدبا ، كنت اعرفه من قبل جيدا . كان لا يزال على بعد عشرين خطوة مني ، عندما تسمر في مكانه ، شاهقا بالبكاء ، وبمحرمته يمسح دموعه العزيزة .

كنت جافا في استقباله واستقبال دموعه ، « بلا دموع تماسيح ، قلت له ، ان فرحتك كبرى باعتقالي ، ويل لك اذا اصبت بمكروه . تقدم ، تقدم . بلا دموع تماسيح » .

هز الضابط رأسه استنكارا وتقدم مني وطوق عنقي بذراعيه ، وراح يعانقني ، باكيا ايضا بكاء حقيقيا . كانت دموعه تترقرق على خديه !..

انا متهم بطيبة القلب (كان يكرر لي هذا القول الرئيس الامين عبد الله سعادة امس في 1978/10/20) ومتهم بالعاطفية ومتهم بالطوباوية . حلوة هذه التهم على قلبي . لا ارد عليها ، لانها تشرفني ، اذ ما قيمة الانسان اذا كان خبيثا ، ما قيمته اذا كان بدون قلب ، ما قيمته اذا لم يكن طوباويا في بعض الاحيان على اساس ان الطوباوية تعادل او تساوي او توازي المثالية !.. أمذمة ان يحلم الانسان وان يتصور وان يتخيل ؟.. أمذمة ان يحب الناس ويسامحهم وان يخدمهم ويضحي بنفسه في سبيلهم ؟!..

تأثرت بدموع الضابط . ندمت على وصفها بدموع التماسيح . ربت على كتفه . اخذته باللين . سرنا الى بيت عمي نخول بربر كصديقين . انتهت مرحلة المطاردة ، بدأت مرحلة الاستسلام . يجب ان نقيم شرائع السلام مكان شرائع الحرب !..

غضبت عندما وصلت الى المنزل ، اذ شاهدت ضابطا بريطانيا مع مرافق له بانتظاري . رمت العودة من حيث اتيت . سارعت زوجتي لتقول : ان الضابط قادم للتعرف اليك . لماذا التعنت ؟!..

سلمت وجلست شارد الفكر والرأس والوجدان . كانت ساعة من ساعـات الجلجلة .. او قل ساعات الاحتضار .. احتضار الحرية من جديد !!

في الطريق الى المية ومية :

كان الوداع مأتما ، كان الناس يسيرون ورائي مولولين ، كأنما انا في تابوت لا

سائرا على قدمي . ذكرت نديم جواد وأديب بربر واسد نصار وابراهيم بشارة . بامكاني ان اسمي شباب وصبايا وشيوخ وشيخات المنطقة . اقبلوا من كل زاوية ليودعوني الوداع الاخير . كنا في وداعين . انا اودع الحرية اي الحياة ، وهم يودعون رفيقا وصديقا او قريبا ونسيبا ..

بقي الموكب الى ان وصلنا الى محلة « الروس » محلة السهرات القمراء والذكريات الناطقة بالوله والحب والهيام . قبلت الناس فردا فردا . صعدت الى السيارة مع زوجتي والضابط ، كدت اختنق وانا اودع صباح وضحى وعاطف !.. انهم اكبادنا تمشي على الارض .

وسرنا باتجاه اميون على بركات كل شياطين الارض ، وما فوق الارض ، وما تحت الارض !..

المأساة التي دفناها فتحت فاها من جديد لابتلاع ايامنا الباقيات ؟..

لم تكن طريق القويطع ــ كفر حزير قد شقت بعد . مررنا في كفرحاتا ــ كفريا ــ شكا ــ كفر حزير ــ اميون . مررنا بكل الامكنة التي كانت ولا تزال شاهدة على ليالي التشرد والقلق والضياع .. ما احلاها ذكريات التشرد والمطاردة ، امام الاصفاد التي تنتظرنا والغرف السوداء التي ستكون مأوانا ومثوانا !..

وبلغنا بيت الضابط صباغ . بالغ وزوجته باكرامنا . بتنا ليلة في ضيافته . وفي صباح اليوم التالي ، طلب الي ان ازور المستشار الفرنسي (لا اذكر اسمه) في طرابلس ، اسماها زيارة مجاملة Visite de courtoisie ثم زرت قائد الكتيبة المقدم علوية الذي كان حزينا ان يراني اسيرا هو العضو السري في الحزب منذ عامين !

من طرابلس الى مقر قيادة الدرك وقيادة الجيش . كنت ضعيفا مع قائد الجيش الجنرال نوفل . لا ازال اجلد نفسي كيف استضعفت.قلت له : انكم ظلمتموني !.. لماذا قلت هذه الكلمة ؟ كانت زلة لسان . استدركت هذا الضعف . بقي الجنرال واقفا وبقيت . ودعته دون ان أهز يده ، كأنما اردت ان اهرب منه ومن « ظلمتوني » .

ومررنا بالخالين الارشمندريت بولس والاستاذ فهيم خوري في بيتهما الذي اصبح اليوم مدخلا لاوتيل سيدرلاند في شارع عبد العزيز . تركت حقائبي هنالك على ان نعود لاستلامها . رافقني المطران (الاشمندريت انذاك) بولس وزوجتي . وصلنا الى دائرة الامن العام في محلة الصنائع وكان في استقبالي الملازم بوتيون Boutillon الشهير

بوقاحته ووحشيته . هو الذي صفع الشيخ الجليل عبد القادر هارون احد القادة الوطنيين في اللاذقية . خشيت جثته الضخمة . كان عابسا عبوس النمر الجائع . كلمة واحدة تلفظ بها ، وختم امر ارسالي الى معتقل المية ومية ، وسلمني الى رجاله (واحد منهم من آل عواد من حصرون) ، فركبنا السيارة وتحركنا .. ظننت ان الضابط صباغ اتفق مع الامن العام ان تمر السيارة الى منزل اخوالي لانقل معي حقائبي . اتجهت السيارة الى طريق صيدا القديمة . صحت ، صرخت ، احتججت . لا جواب . المرافقون من رجال الامن العام صم بكم . « ويلكم ، قلت لهم ، ماذا سيعتقد اهلي الان ؟ سيظنون انكم سقتموني الى اقبية الضرب والتعذيب » لو كان بالامكان ان ارمي نفسي من السيارة لفعلت .

الدم كان يغلي في عروقي . في رأسي . في خفقان قلبي . ولكن ما نفع الغليان . انا الان في اسر . الاسير اسير . انه مكبل ومقيد . انه بلا ارادة .. ولا كرامة له ولا كيان .

تلطف احدهم عند وصولنا الى المعتقل ، وقال لي : اعطني رقم هاتف زوجتك سأطلعها انك وصلت بالسلامة . كما ان حقائبك ستصل اليك غدا .

هدأ روعي .. شكرت الرجل على بادرته الانسانية . في اعماق كل انسان وحش والصراع بينهما ، اي بين الانسان والوحش مستمر . انتصر الانسان على الوحش في قلب رجل الامن العام . ساعة ابتسم لي وطمأنني .. وغاب !..

لو يستطيع الانسان ان يغوص في ذكرياته ، ان ينفخ فيها الحياة . وان يبصقها في اية ساحة ، لكانت ذكريات عودتي الى المية ومية ، ترقص الان امامي في بحر من الدماء .. كنت انزف دما .. اكرر لا قيمة في الحياة اغلى من الحرية ، انها كل شيء !..

المحبة هي الله والحرية ارادته وقانونه الاسمى .

أفي المعتقل أم في مركز الحزب

ما صدقت اني ادخل المعتقل ، عندما شاهدت من بعيد اشرطة شائكة ، وبنايات كبيرة قرميدية السطوح !.. ظننت ان وجهة سيرنا خطأ ، ولكن ظني كان خطأ ، اجل هذه البنايات القرميدية هي المعتقل . الاسلاك الشائكة تفصل بين المعتقلين وبين الحرية . ليس بينهم وبين الشمس اسوار . يا للشمس في المعتقل ، انه ليس معتقلا طالما ان الشمس حرة باجتياحه ! هذه البنايات كانت مدارس فتحولت الى مكابس !..

مخاوفي سقطت دفعة واحدة ، لقد كنت شريدا طريدا ، انام على العقارب والافاعي وهنا رفقائي المعتقلون ينامون على السرائر والوسائد ، في غرف نظيفة ، يسرحون ويمرحون ليل نهار ، مع اوامر بالا يتخطوا حدود الاسلاك الشائكة ! يا لها من نعمة ، ما بعدها نعمة ..

كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة تقريبا . دخل رجال الامن ودخلت معهم دون قيود في يدي . سلموني الى آمر المعتقل ، ورحلوا . لحظات ويطل علي وجه انيس ، وجه يشرق بالمحبة والبراءة.انه يوسف شختورة !..

لم اكن اعرف اسماء الرفقاءالمعتقلين ، لم تكن الصحف تنشر اسماءهم ولا انا على صلة دائمة بالصحافة اليومية كما هي الحال اليوم ! لذلك فوجئت بوجه يوسف شختورة الذي كنت اعرفه جيدا . انه امين المستودعات . يوزع على الداخلين الاحرمة والفراش ولوازم الاعتقال ويستلمها من الخارجين .. فيما كنت اسجل اسمي والاغراض التي سلمت الي في مكتب المعتقل . كان يوسف يخبر القيادة الحزبية بقدومي . لم احمل اللوازم . حملها احد الرفقاء ودخلنا .

يا للعجب . اصطف الرفقاء على الجانبين .وقفـــواوقفة عسكرية . ادوا التحية للامين قبرصي . بعضهم ــ بعد التحية الرسمية ــ حملني وراح يقبلني فرحا . الروح الرفاقية التي تربط بين القوميين الاجتماعيين اقوى من رابطة الصداقة اقوى من رابطة الدم .

كنت تصورت اني داخل الى سجن فاذا بي ادخل الى مهرجان !.. كان الامين جريج هو المسؤول عن المعتقلين القوميين ! يدير امورهم ، ويقضي فيما بينهم ، ويراقب سلوكهم ، ويضبط العلاقات بباقي المعتقلين وبالادارة كأنما هو منفذ عام والمعتقلون اعضاء في منفذيته .

بأمره دبر هذا اللقاء الرفاقي البهيج ، كان من العسير وانا قادم من بلاد الحرية والشمس والتيه في الاودية والروابي ، وقد ودعت اولادي واهلي ورفقائي الطيبين . كان من العسير ان تجد البهجة مسربا الى قلبي .. ولكنها في النهاية وجدت .. اليس هؤلاء المعتقلون اخوة لي ، بيني وبينهم وشائج اقوى من الدهر توحدنا في مصهرها ومطهرها ، النضهة القومية الاجتماعية ، اليس هؤلاء الرفقاء من الذين كنت احن الى لقائهم واشتاق وجوههم المحبة الصافية .

شمس المعتقل لا تختلف عن شمسنا في الكورة . المية ومية مطلة على صيدا وعلى البحر والكورة مطلة كذلك . تختلف في الاخضرار . بعض اراضي المية ومية زيتون ، ولكن اطلالتها على البحر تجعل من بساتين الليمون الصيداوية مداها الحيوي ، مدى العين والافق . تمر عيوننا من وراء الاسلاك بالبساتين لتلتقي بالبحر . انها نزهة بلا ثمن ، انها نزهة الحنين الى الحرية .

انا مصاب بالدهشة . كل المعتقلين من القادة والاعضاء يضحكون ، يتمازحون ، الطعام متوفر . لا ينقص شيء على المرفهين كأديب قدوره وفؤاد ابو عجرم ونعمة تابت واسد الاشقر وبشير فاخوري وكريم عزقول وزكريا اللبابيدي وسواهم . الدكتور غوري (حلب) تسابق مع زميل له . فأكل مئة (طاب) صبير . المعتقلون في المية ومية ليسوا سجناء . انهم في استراحة قسرية . لكل الاسلاك الشائكة هي التي تضفي على المعتقل جو الاعتقال .. ما عداها ملاعب ومناظر خلابة ، وبيلياردو (للياس سمعان) وكل ما يتطلبه الانسان من مأكل ومشرب حتى العرق والبيرة ؟!..

اصبت بدهشة اكبر عند هبوط المساء . الياس قدسية رفيقي القديم في زنزانة القلعة ، وصاحب الرسالة ـ البلية ، هو احد اسياد المعتقل ، كيف صادق الحراس . كيف اتفق معهم . لست ادري . ما ادريه اننا بفضله كنا نحصل على كل شيء من الصحف والكتب حتى العرق والبيرة اذا اقتضى الامر . هذا الرجل الصامد ، القضية في دمه والتجارة في دمه ايضا . انه من حلب الشهباء !..

الياس قدسية دبر للاحتفال بقدومي عرقا زحلاويا وبيرة ومازات غنية . كل القيادة كانت على الطاولة ، من نجومها اديب قدوره والدكتور كريم عزقول والدكتور عبد الله سعادة وفؤاد ابو عجرم ونعمة تابت وزكريا اللبابيدي وانيس فاخوري واسد الاشقر وجورج مصروعة وجبران جريج ومأمون اياس ويوسف الدبس ــ الشاعر ــ ومنصور اللحام ومسعود عبد الصمد وابراهيم يموت وابراهيم الشامي والياس سمعان وميشال صعب وسواهم .

لاول مرة في حياتي تعرفت في تلك الامسية الى الشعر « الخنبرلاطي » . بعد ان شرب الرفقاء ودارت الخمرة في الرؤوس كان لا بد من ابتكار اسلوب بريء يزيل الهم عن القلب ، ويبدد اشباح الاعتقال والمعتقل ، فابتكر الاسلوب الدكتور كريم عزقول . كان لا بد من قصيدة ترحيبية بالضيف ــ الشاعر ــ القادم من دنيا الفرار .. والمتاعب !

ووقف الدكتور كريم ، ببساطة غير مصطنعة ، هو الهادىء مؤلف « العقل في الاسلام » وراح يتلو شعرا من كل الاوزان ، من كل القوافي ، من كل ما في اللغة العربية من حروف وفتحات وضمات وكسرات ولكنه خال من اي معنى !..

الذين كانوا قد سمعوا شعر الدكتور كريم سابقا كانوا يتضاحكون ، وانا لا املك ان اضحك ، لاني لم افهم في البدء لماذا يضحكون ! وادركت في البيت الثالث او الرابع اني وقعت في مصيدة ، وان شعر كريم ليس شعرا بل انه نوع من الشعر الجديد اسمه الشعر الخنبرلاطي ، ابتكره الدكتور كريم ، لجلاء الصدأ عن الصدور ، وقتل الوقت ، انه شعر الكلمات المخترعة ، يعتقد السامع انها شعر جاهلي فيما هي حروف بحروف . ولكن كريما كان يتلوها كأنه يتلو معلقة في سوق عكاظ .

دنيا المعتقل :

جرت العادة ان يتوافد كبار المعتقلين فيسلمون على القادم من الخارج ، اذا كان قياديا مثلي . لذلك لم اعجب عندما زارني على التوالي صديقي ورفيقي القديم المناضل معروف سعد (الذي استشهد في مطالع ال 1975) وهو يدافع عن حقوق الصيادين في صيدا اي عن حقوق الشعب ، ومدير العدلية السابق المجاهد الوطني الاستاذ عارف النكدي ، والصديقان علي بزي وناظم القادري (علي صار فيما بعد وزيرا وناظم كان ولا يزال نائبا على عدة دورات) والمجاهد علي ناصر الدين (توفي منذ خمس سنوات) . ثم الاخوة الحلبيون من حزب الشعب او من الحزب الوطني ، صبحي العمري وفريد زين الدين واحمد قنبر ورشاد برمدا والدكتور يوسف سمارة والرفاعيان ثم البورجوازيون

من لبنانيين وشاميين كالسيدين احمد الصيداني وقيصر اسود ... وعثمان عبد العال ... والدكتور غوري وشقيقه والدكتور خوجه .. والبربيريان والخرسا وسواهم .

كان معتقل المية ومية جامعة اجناس وجامعة احزاب وعقائد واصدقاء ! وجامعة امم ، من المان وطليان وكل البلدان التي احتلتها المانيا في اوروبا الوسطى ، ثم اللبنانيون والشاميون وكل عربي وطني او متهم بانه وطني .

سنة الحرب لا ترحم ، فكل مواطن من بلد عدو هو عدو ، وكل رجل وطني يقاوم الاستعمار الفرنسي ـ البريطاني ، عدو ، لانه لا بد مقيم علاقات علنية او سرية مع دول المحور بقصد التخلص من فرنسا وبريطانيا . الوطنية كانت قرينة قاطعة مسلطة فوق رأس اي معارض للاستعمـــار .

المعتقلون الاجانب انعزاليون بالنسبة للوطنيين الشاميين واللبنانيين لان اكثرهم لم يكن يعرف الا لغته . وثانيا لانه من الصعب ان ينسجم الناس في المعتقل اذا لم يقم بينهم حد ادنى من العلاقات الانسانية او الشعور الوطني المشترك او القناعات السياسية المتوافقة . اكثر المعتقلين الاجانب ما كانوا لا في العير ولا في النفير !

كان الاجانب المعتقلون مهنبين.واحد تطوع لسن شفرات حلاقتنالقـاء دريهمات ! ما نشأ بيننا وبين احدهم اي عداء او خصومة رغم ان بعضهم كان من يهود المانيا او بولونيا او سواهما . على العكس نشأت علاقات غرامية بين دون جوان الحزب انذاك مأمون اياس والفنانة ماجدا .. كما نشأت علاقات خبزية بيننا وبين اضخم امرأة في العالم ، لا اذكر اسمها ، كانت تزن 250 كيلو غراما وتأكل ثمانيةكيلو غرامات من الخبز في اليوم الواحد !!

لن اتقيد بالتسلسل الزمني في سردي لذكرياتي عن معتقل المية ومية . انها في خاطري وجوه وكلمات ووقائع . اذا جاءت متوافقة مع السياق الزمني فخير وبركة . والا فان التاريخ لن يخسر شيئا من عدم الدقة في السرد والرواية ..

مرحلة الاعتقال .. صفر في عمر الانسان ، اذا لم يكن اديبا ، يملأ فراغ وقته بالتأليف ، او اذا لم يكن محبا للمطالعة ، ليملأ فراغ وقته باختزان العلوم والاداب ، لم يكن بالامكان التحرك حزبيا ، فلنقبل بالامر الواقع ، اذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون . اكره هذه الاية ، ولكنها بالفعل حقيقة في بعض الاحيان لا مفر منها !..

عارف النكدي وانيس فاخوري

اكتب هذا الفصل من ذكرياتي في السابع والعشرين من تشرين الاول 1978 . في هذا اليوم تهزني مسألتان : الميثاق القومي المشترك بين العراق والشام ، وذكرى مولدي الثامنة والستون ، نعم انا اكملت الثامنة والستين من عمري !ـ اكاد لا اصدق ..

كم عظيم هو الفرق بين المناسبتين . فالميثاق يحقق خطوة في طريق الوحدة القومية التي اناضل من اجلها منذ 44 عاما واكثر . يكاد قلبي يقفز من صدري ليرقص على الطريق العام فرحا وغبطة ومظاهرة تأييد . كم كنا نحترق لأن بغداد والشام تتشاحنان تتصارعان تتعاديان ، فيما مصيرهما معا مهدد من قبل العدو الاسرائيلي ومن قبل الامبريالية العالمية والرجعية العربية عدوة اي تلاحم بين الشام وبغداد ..

اننا تعاونا مع العراق كما تعاونا مع الشام في رفض التسويات والاستسلام ، عندما كانتا في ذروة الخلاف والفرقة والعداء ، فقلنا لبغداد : نحن معك ، ولكن لا يمكن ان نعادي دمشق او نقول فيها سوءا ، يوم كان التصادم مع دمشق قائما ، وعندما تعاونا مع دمشق ، قلنا لها : لا يمكن ان نتعاون او نتحالف معك ضد العراق ، هكذا يعرف القطران الحبيبان اليوم ، اننا كنا دائما صوت الضمير القومي الصارخ ، كنا الداعين غير اليائسين ، الى هذه الوحدة العسكرية ـ السياسية ـ الثقافية بينهما . ان حلمنا بدأ يتحقق . انه القمر يصعد من وراء الميزاب . اننا ننتظره بدرا في صدر السماء . ننتظر وحدة القطرين بانتظار الهلال الخصيب كله متى تم الوعي وتكامل ، وحان موعد القطاف .

اما ذكرى مولدي ، فهي تذكرني باني ولدت يوما من الايام . وانني لا ازال كائنا حيا فيما العديد العديد من ـ احبتي وزوجتي في الطليعة ـ قد رحلوا الى العالم الآخر ، الى المجهول .. الى السماء او ما فوق السماء ، او تحت السماء .

تذكرني بأن جبالا من الآلام والحرمان والعذاب صارت ورائي ، ولكنني انتظر جبالا اخرى طالما ان قلبي يخفق وعيني ترى وأنني تسمع وطالما اني اناضل واكافح واعمل .. انني واقف بين جبال ورائي وجبال امامي .. وكلها عذاب وحرمان وآلام .

قلما تخيلت ان حياتي ستفرغ من الألم والعذاب والحرمان طالما انني من شعب محروم ، مجزأ مستغل مقهور وطالما انني في الميدان بثياب الميدان .

لماذا ولدت اذن ؟

لماذا لا ازال احيا ؟

انها مشيئة الاقدار . ولكن لا بد من ان يكون لهذه المشيئة حكمة . فلأخشع امام حكمة قدري ولاستفد من الحياة لاغناء الحياة على قدر ما وهبتني من طاقة ، لأفي ديونها في عنقي ، لأعيد لها الوزنة وزنتين !..

ثم ما معنى الحياة اذا كانت جبالا من الآلام والحرمان والعذاب ، ورائي وامامي ؟ اي معنى لها اذا لم تكن في سبيل مثل اعلى ، في سبيل حلم جميل ، في سبيل حياة افضل !.. لا تكون حياة الفرد الا حياة عادية اذا كانت محور وجوده الذاتي .

هكذا اذن ، اضع اصبعي على الغاية من وجودي ، على سبب آلامي وحرماني وعذابي . انها الشعور مع شعبي ، انها النضال من اجل حياته وعزه ، من اجل حريته ووحدته ، لقد وجدت من زمان طريقي ، طريق راحة وجداني ، ابذل ما املك في سبيل هذا الشعب وعزه ووحدته وحريته لانقاذه من مستعمريه ومستعبدية وجلاديه . لا يهمني اذا لم افلح واحقق المهم ان نعمل ، ان نبدأ ، تاركين للاجيال الطالعة رسالة التحقيق !..

كم تختفي الآلام من ورائي وامامي ، عند هذه الفرحة التي تغمرني ، والتي هي عيدي الحقيقي ، بدء مرحلة الوحدة القومية التي فيها عز شعبي وقوته .

التي فيها ، انتصار شعبي على عدوه الاول « اسرائيل » والامبريالية التي تدعمها .. انها الفرحة بان املا في يوم مولدي يطلع من قلب الآلام والعذاب والحرمان ليقول لي : طالت ايامك ام قصرت ، النصر قادم ، تحقيق مثلك العليا قادم ، ان نضال حزبك وصموده بدأ يعطي ثماره . حلمك في الجبهة الشرقية لم يعد حلما ، شقت الطريق لتحقيقه . الميثاق القومي اعلن انه انجاز تاريخي ، يصفق له كل من فيه شعور قومي .

ولنعد الى المية ومية .

الفرق بين المعتقل والسجن مثل الفرق بين الجحيم والنعيم .

لا يملك قلم ولا فكر ولا شاعر ان يمسك بكل تلابيب السجن وتلافيفه . مهما قال فيه يظل قولا منقوصا . انه آلة تعذيب رهيب تعدم فيها النفس الانسانية ايما اعدام !..

اما المعتقل ونحن لا نزال في مدخله ، فهو استراحة قسرية كما اسميته ، الا ان الانسان الذي يديره قادر اذا شاء بسلطانه المطلق ان يمسخه ، فيجعل خيره شرا

وحريته عبودية . قال احد كتاب فرنسا : الانشاء هو الرجل ذاته ، والسجن او المعتقل هو مديره ، على صورته ومثاله يكون .

كان مديره عند وصولي يدعى الكابتن سافاري Savari . صلف ، مستبد ودعي مستكبر . هكذا وصفه لي الواصفون . انا ما خبرته الا عند دخولي ، ما التفت الي الا بازدراء عندما كان يمر متفقدا المعتقلين عند المساء ساعة التعداد . يومين او ثلاثة ثم نقل ليحل محله رجل مدني من كورسيكا اسمه « نيقولا » . مدني من كورسيكا تعني كثيرا : انسان طيب كريم مثل الفلاح اللبناني او الشامي او الفلسطيني . باب قلبه مفتوح كباب داره .

سافاري ، ما نقل عبثا .

كان قد اصدر اوامر شاهانية بالزام المعتقلين ان يأكلوا من مطبخ المعتقل . صادر منهم كل الادوات التي كانت قد سمحت بها ادارته نفسها كبوابير الكاز وما يتعلق بالطبخ ولوازمه . ثم منع توزيع الاعاشة من سكر ولحم وزبدة وحبوب واملاح وراح يتشدد ويتصلب ويضايق . وهكذا بعد ان تعود المعتقلون على الاستقلال ، ياكلون حسبما يشتهون وساعة يشتهون ، اعادهم الى شريعة السجن ، والمطبخ الواحد والمواعيد المحددة . كان اشد المعارضين المجاهد الوطني عارف النكدي . مؤسس وصاحب دار اليتيم في عبيه وامينا القديم انيس فاخوري ــ الذي مر ذكره مرارا في هذه الذكريات ــ اثناء الجدل كان عارف النكدي ــ كعادته عندما يحاول مناظره النيل منه صلبا جافا متعاليا هجوميا ــ اثار في جدله حفيظة سافاري عليه فأمر بايداعه الزنزانة ووجه اليه كلمات مهينة . دخل عارف النكدي الزنزانة واضرب عن الطعام . كان فولانيا ، لا يهادن ولا يساوم في الحق .

وانيس فاخوري تربى في مدرستنا القومية ، لا يعرف في التعامل مع الناس ، كانوا حكاما او اناسا عاديين ، الا الاستقامة والصراحة والمواجهة . لم يطق تدابير سافاري ، فوقف في وجهه عنيدا . فأمر سافاري بايداعه الزنزانة ايضا وقيل انه امر بضربه فضرب ..

كانت اخبار سافاري مقلقة . ومعاملته فظه ، فكان على المعتقلين واجب التخلص منه . فثاروا عليه وضغطوا بواسطة رؤسائه ، وحققوا انتصارا حاسما بعد اضراب كاد يتحول الى ثورة نظمتها قيادة الحزب احتجاجا . وكان ابطالها جبران وانيس ونعمة ومأمون وزكريا .

ها هو السيد « نيقولا » الآمر الجديد !...

نيقولا الانسان العادل العاقل

مات من زمان هذا الانسان الفرنسي العاقل العادل ولكنه لن يموت من ذاكرة المعتقلين في الميه وميه ، ايا كان لونهم او جنسهم او معتقدهم . كان مهنبا كريما ، ودودا ورقيق المشاعر الى حد تشعر معه انه آمر المعتقل بالرغم منه . انه آمر المعتقل لانه مأمور ان يكون آمرا . آخر ما كان يحب ان يشاهده رجال احرار مفكرون ومناضلون اسرى وراء اسلاك شائكة ، تحكمهم قوانين معتقل مهما كان رحبا يظل بهم ضيقا كافق النملة ..

لقد تآخى والمعتقلين ، فما مر وقت قصير حتى صار بعضهم يناديه : نيقولا ، دون ان يسبقها بكلمة سيد . صار السيد نيقولا آمر المعتقل وكأنه معتقل معنا .

ما كان بالامر الهين ان يتصرف فرنسي بهذا المستوى من الفروسية والانسانية لو لم يكن له خلفية ما . قال بعضنا انه اشتراكي ، وآخرون قالوا انه شيوعي . اما الاكثرية فاجمعت على انه كورسيكي ، من عائلة فلاحين ، او ابن قرية ، ريفي ، كريم الاخلاق !

نريد ان ندخل في التفاصيل

لماذا نصف هذا الرجل بالعاقل والعادل معا ؟ ماذا صنع من معروف اين احسن واين اساء ؟

لنبدأ بحفلة تعارف : لم يكن قد مر على وصوله اكثر من اسبوع حتى بدأت صداقاته تتبلور ، ومن صديق الى صديق ، صار المعتقلون اصدقاءه بانتظار ان يصبحوا اخوة اشقاء ! ... كيف يجمعنا ــ لاني كنت قد اصبحت واحدا منهم ــ فقر الرأي ان يدعونا الى منزله القريب من المعتقل نتناول كأسا وعشاء دسما . وهكذا كان ، صار بيننا خبز وملح صرنا عائلة واحدة . تحول بيت الآمر الى مضافة ثم طلبنا المزيد وكان الفن مفتاحنا الى قلبه فالدكتور يوسف سماره دكتور في الاقتصاد ورجل قانون وادب ،

وفي الوقت نفسه فنان يرسم ويحفر . من حجر الميه وميه « الحواري » صنع التماثيل والاطر ، وبريشته الخفيفة الذكية صنع رسوما تكاد ان تنطق . شاهدها نيقولا Nicolas فاعجب بها وهلل .

عرضنا عليه ــ لا ننسى انه الامر الناهي ــ ان نرسم له بعض الرسوم عن الميه وميه بترابها الابيض وزيتونها الاخضر كأنها قطعة من الكورة الشمالية نقلت الى الجنوب فرحب وشكر .

كنت ويوسف سماره قد اصبحنا صديقين حميمين نبحث في الفن والادب والسياسة ، ونلتقي دائما في نصف الطريق ، عندما اقول عرضنا ، اتكلم باسمي واسم يوسف سماره معا . (اين انت يا دكتور الان ؟) ...

عندما دعاه « نيقولا » الى منزله ليرسم في ظلال الصنوبر رسومه كنت انا اقرب اليه من ظله نخرجنا معا . طوال النهار نحن حران ، لو شئنا الهروب لهربنا دون ان تلحق بنا الريح نفسها ! وبعد فلماذا الهروب ونحن في حمى الامر الناهي ــ الانسان ؟ ! ..

ولم ينته الرسمان عن الميه وميه قبل اسبوع كامل واسبوعين ونحن نخرج من الصباح الى المساء الى البرية وكرومها ، نتنقل كالعصافير من شجرة الى شجرة لا حسيب علينا ولا رقيب ، سلاحنا الفن ، سلاحنا ريشة ولوحة ، ولنا الظلال و ... الحرية ملعبان ...

لم اشعر طوال الاربعة عشر شهرا اني سجين ومعتقل ، اذ صار بأمكاني كل شهر تقريبا ان اخرج وحدي ، وان اتناول الغداء في مطعم القرية ، كان علي فقط ان اكون قبل السادسة في القفص . عندما كان « نيقولا » يعطيني الضوء الاخضر بالرحيل ، كان يذكرني ان ساعة العودة الى القفص هي السادسة N'oubliez pas la cage à six heures

لم يسجل في مدة ادارة نيقولا اي عقاب بحق اي انسان ــ حديث مشاجرة مؤسفة بين معتقلين سنشير اليها في سياق الذكريات ، ادت الى ابعاد من اعتبر معتديا ، بعد ان وضع في غرفة عند مدخل المعتقل ، لعزله عن الاخرين خوفا من تفاقم الخلاف وشق المعتقل الى مناصر وخصيم !

خرجت من المعتقل ونيقولا لا يزال الآمر الناهي ، ما نمي الي انه اساء الى احدكل ما عرفته ان الرجل العاقل العادل اقام اخر ايامه في بيروت وتبنى فتى لبنانيا طيبا ، ابحث

عنه دون جدوى لاكون له بعد وفاة ابيه ابا ، فلا اجد له اثرا ولا اعرف له اسما ! ...

نيقولا العادل العاقل ، بعد ان مر على وفاته اعوام سيظل في هذه الذكريات قلبا كبيرا نابضا بالحب والوداعة والانسانية ، ويكفي الانسان العادل العاقل ان يجد بعد وفاته من يقر بفضله ويعرف قدره ويحفظ له الجميل كلؤلؤة ثمينة في اعماق الضمير ! ...

ايام الاعتقال

لولا غيمة مرت بنا في ايام المعتقل الاولى ، وهي ابعاد جبران جريج وانيس فاخوري وزكريا اللبابيدي ونعمة ثابت ومأمون اياس الى قلعة راشيا لكانت سماء الميه وميه سماء ربيع دائم ، لكان الاعتقال اخف ظلا من اي مكان آخر . ففي زمن الحرب لا يجد الانسان مكانا آمنا خفيف الظل حتى في داره وبين أهله ! ...

ابعدوا هؤلاء القادة بعد وصولي الى المعتقل بأيام قليلة . كدنا أن نلبس اثواب الحداد .

لقد كانوا كما ذكرت الدينامو المحرك للاضراب الثائر الذي أعلنه المعتقلون في الميه وميه احتجاجا على اوامر سافاري وتصرفاته من عارف النكدي وانيس فاخوري وتدابيره الاستبدادية بحق المعتقلين ، كالتضييق عليهم والمس بحقوقهم المكتسبة لجهة الاعاشة والمطبخ المستقل وسوى ذلك من المطالب العادلة .

هذا الاضراب كان له ما بعده .

المفتش العام الكومندان مارزارو Merzeraud وقام بدور فعال في نقل سافاري. وكان لكل شيء عند السلطة المنتدبة ثمن. كان الثمن رؤوس جبران جريج ونعمة ثابت وزكريا اللبابيدي ومأمون اياس وانيس فاخوري . لم يكف انيس انه زج في الانفراد وأهين — بعد ان دافع عن نفسه برجولة — بل ضم أسمه الى لائحة المبعدين ، فاذا قيادتنا القومية بأكثريتها الساحقة بعيدة عنا في غياهب قلعة راشيا التاريخية .

لعنا الساعة . لبسنا الحداد . ولكن اليوم وبعد ستة وثلاثين عاما ونحن نكتب هذه الذكريات نقول : لو لم يعاقب جبران جريج بالابعاد الى قلعة راشيا ، ما كان تلاقى مع رياض الصلح وعبد الحميد كرامي وبشارة الخوري وعادل عسيران وكميل شمعون وساهم في عملية الاستقلال وكتب لنا من بعد « حقائق عن الاستقلال ايام راشيا »

بعد حادث الابعاد هذا ، عادت الحياة الى طبيعتها المعتادة . نوم وطعام وندوات

فكرية ونزهات في الشمس . أما المنامة ، فكان من حسن حظي ان اكون مع عبد الله سعادة (لم يكن قد اصبح امينا ودكتورا بعد) وفؤاد ابو عجرم ، وزكريا اللبابيدي واديب قدوره وانيس فاخوري .

لا بد من الاسراع الى القول ان هذه النخبة ما كانت نخبة القوميين فحسب ، بل ايضا نخبة المعتقل . اذا اضفنا اليها اسد الاشقر وكريم عزقول تكتمل صورتها ، اشخاصا واطارا ...

كنا ننام على اسرة ، في غرفة فسيحة ، مفتوحة للهواء النقي وشمس الغروب . وكان قائد النظافة انظف رفيق على الاطلاق : زكريا اللبابيدي ، ويلنا ، مني الى الاكبر فالاكبر ، اذا رمينا اعقاب السجائر ، او فتات الخبز ، او اية وريقة على الارض .. يتحول زكريا الى طاغوت . لا يرحم لا كبيرا ولا صغيرا . ولا يرحم نفسه .

ما احلى ان يضايقنا زكريا في سبيل النظافة ، اليست النظافة من الايمان ؟ ...

كانت غرفتنا مقر القيادة . يدلف الينا الرئيس آنذاك نعمة ثابت ومأمون وجبران واسد وكريم عزقول ، فنعقد فيها بالنظر لرحابتها ونظافتها جلسات المناقشة والحوار وندوات ثقافية ، كان كوكبها الدكتور عزقول الذي راح يعطي دروسا خصوصية في الفلسفة لأسد الاشقر !

كانت ندواتنا اكثر ما تنعقد لبحث موقف الحزب من لبنان ، ومن العروبة . بالنسبة للشيوعية والصهيونية كان موقفنا محسوما . لا اعرف لماذا كنا نربط بين الاثنتين . قد يكون السبب المباشر عداؤنا للشيوعية والصهيونية معا . هذا العداء كان العامل الرئيسي في دفعنا الى توحيد موقفنا منهما ، الى جانب ما كنا نقرأ من ادبيات تاريخية تقول بأن قادة الثورة الشيوعية كانوا باكثريتهم يهودا ــ صهاينة ! ... لقد تغير كل شيء الان.الممارسة والتفاهم قلبا كل المعايير . الاخلاص والصدق في التفكير والنضال جعلا منا ومن الشيوعيين جبهة وطنية تحارب في الخندق الواحد حربا مصيرية .. نأمل ان نكون دفنا الخصومات الى الابد ويبدو لي من الممارسة اننا دفناها فعلا . النضال المشترك ادى الى التفاهم على رؤية مشتركة للاوضاع الداخلية والدولية .

اما بالنسبة للعروبة ، فقد كان فينا المنفتح كما كان فينا المنغلق الحرفي . الا ان احتكاكنا بالاخوة العروبيين في المعتقل ، وتفاعلنا معا ، لين المواقف المتصلبة ، دون ان يزيل الخلافات والتناقضات . اما لبنان وموقفنا منه فهو واضح منذ ذلك التاريخ وقبله ،

فسعادة لم يترك لنا مجالا للاجتهاد باوسع وارحب مما اجتهد .

في كتاباتي السابقة عبر هذه الذكريات مرت عبارات تصف اهمية المأكل والمشرب بالنسبة للسجين . قلت ان السجين يصبح كالطفل يهتم بغذائه بصورة عفوية غريزية . من طبائع فقدان حرية التصرف ان ينصرف الانسان ، الى حصر همومه في معدته اذ بماذا له الحق ان يفكر اكبر من هذا الهم ؟

كان الرفقاء قبل قدومي قد وضعوا مخططا لتأمين غذاء نظيف ولذيذ . افتتحوا مطبخا ، واحتلوا غرفة سفرة ، فيها طاولة كبيرة وطاولات صغيرة . مدير الادارة العام كان ابراهيم يموت ــ على ما اذكر ــ ومدير المطبخ والغذاء ديب كريجا ــ والياس قدسية مدير التموين الخارجي ، يأتينا بكل ما نحتاج دون كبير عناء ودون كبير تمنين منير ملاذي كان طباخ المعتقلين وخليل محيو واسبيريدون فرح مفرج كل يرأس فرعا اداريا في جهاز المأكل والمشرب والتموين بصورة عامة كنا نضطر ان ندفع على الطريقة الاشتراكية ــ كل حسب مقدرته مبلغا من المال لتغطية اجور العشي واللوازم الاضافية للمطبخ . كان قد اصابني من الضريبة خمس ليرات سورية شهريا ، فيما كان يدفع اسد الاشقر خمسين او مئة ، ونعمة ثلاثين اوخمسـاً وعشرين . كنا نتقاسم كل شيء بهذه الروحية المحبة المنصفة . اما التنظيفات فقد كان يقوم كل من المعتقلين بدوره فيها بانتظام ، وكنا نحن القياديين معفيين من هذه الخدمة ! ... لا لايقولن القارىء انها طبقية . انها حرمة القادة لا اكثر ولا اقل .

الطريقة المبتكرة التي ذكرت ، حولت المعتقل بالنسبة لنا الى نوع من الفندق . الفرق ان الفنادق تدخلها وتخرج منها ساعة تشاء ، اما فندقنا فليس لنا حق مغادرته الا بقرار اخلاء سبيل من الانكليز او الفرنسيين !

كنت اضيق صدرا حتى الاختناق في سجن القلعة وسجن الرمل ، كنا كلنا نضيق صدرا لا انا وحدي ــ اما في معتقل المية ومية ــ فلم نكن نضيق صدرا الا بحرماننا من نعمة الحرية . يطلب الانسان المزيد من الحرية ، لانها مطلب في حد ذاتها ، لا اقدس ولا اجل ولا ارفع .

اذن ما كنا في معتقل الميه وميه من المحرومين بمعنى الكلمة المطلق . كنا محرومين فقط من حرية الخروج الى منازلنا وعائلاتنا وساحات نضالنا .

الشوق الدائم الى الحرية كان يخلق في بعض النفوس ما يسمى من قبل علماء النفس Psychose des barbeles عقدة الاسلاك الشائكة . بعض المعتقلين بيننا اصيبوا

بهذا المرض . الا انه لم يكن مرضا مستعصيا ولا حادا . مجرد ان يضع المريض قدمه خارج الاسلاك كان علاجـاشافيا والمقابلات لم تكن افضل منها في سجن الرمل او القلعة ، بل انها هنالك كانت تتم كل اسبوع اما في الميه وميه ، فهي ليست مرخصة الا مرة كل شهر . كان يجب على اهلنا ان يستحصلوا على اذن بالمقابلة من الأمن العام ، ثم ان ينتقلوا الى صيدا ومنها الى الميه وميه . كل رحلة كانت تقتضي يومين او ثلاثة لمن يسكنون في لبنان الشمالي كزوجتي مثلا .

زوجتي ــ يا لها من معذبة ــ كانت تأتي مع سيارات الشحن عندما لا تجد بوسطة اووسيلة نقل اخرى ، حاملة إلي ما عز وهان ــ نتلاقى بضع دقائق وتنصرف .

اثنان ــ بعد زوجتي لا ازال انكرهما ــ النقيب جان تيان والقاضي الدكتور جميل ابو خاطر ، وحدهما دون سائر البشر فكرا بي ، الاول بزيارة والثاني بمساعدة مالية رمزية .

من الطرائف في المقابلات ، ما كنا نسمعه من ضحكات عاليات يتبادلها علي بزي وزهير عسيران (نقيب الصحافة السابق) وهما صديقان حميمان بل اخوان ، روح النكتة كانت ترفرف فوق غرفة المقابلات عندما يتقابلان فيها ... ندلف الى الساحة لنتسقط رنين تلك الضحكات العاليات ونستمع الى الظريف من النكات .

يرى القارىء اني لا اطعن احدا بغير سبب . معتقل الميه وميه ــ الفندق الكبير ــ صينت فيه كرامتنا كبشر ولقينا في رحابه الشمس والهواء الطلق والحرية النسبية لم يسمع احد لنا انينا او شكوى . سافاري ، الذي لبس مدة ثوب الجلاد ، طرد من المعتقل بتضامن المعتقلين الذين ثاروا عليه واعلنوا اضرابا مفتوحا وهاجموه بلا هوادة والذي جاء بعده السيد نيقولا كما وصفنا لم يكن آمر معتقل ومعتقلين بل مدير فندق ونزلاء ! ... لنذكر للاشرار شرورهم ولنذكر للخيرين خيرهم !

ما كان ينقصنا لا كتب ولا صحف . لم تكن ليالي السمر ، ليالي الشعر الخنبرلاطي وحدها ، بل كان هنالك سعادة في نشوء الامم وزكي الاسوزي في القومية العربية ، وماسينيون وترجمته للقرآن الكريم .

كان معنا الشعر القديم والشعر الحديث . كانت مساجلاتنا العقائدية هناك . وكان لنا جولات في دنيا الفكر . كانت تنقص كل واحد منا زوجته او حبيبته لتتم الراحة حتى نهايتها . الا ان غزل عمر ابن ربيعة والاخطل الصغير وابي شبكة ورشدي معلوف ومن

قبلهم المتنبي والمعري واحمد شوقي وخليل مطران وحافظ ابراهيم ، لم يكن الا تعويضا عن الفراغ . طرح علينا الدكتور عزقول مرة هذين البيتين لرشدي معلوف :

لنا الجو والانجم
وللارض ما نغنم
فليت الليالي تفي
وعين الرضى تسلم

ورحنا نتبارى في شرحهما كل على ذوقه ، فانقضى نصف النهار في الشرح والتعليق .

ليتصور القارىء ان على مسافة خمسماية متر كان يقوم معتقل النساء . وان بينهن فنانات خبيرات . اذكر ان واحدة منهن افاقت في احدى الليالي تصيح ، فتوقظ المعتقل والمعتقلين على صياحها : Je Veux un homme اريد رجلا . اريد رجلا ...

من يلومها ؟ لقد خلقت لتكون لها رجل . والمعتقل وان مذكر ليس رجلا !

على ذكر شعر رشدي معلوف والمساجلات الشعرية والنقد الادبي ، كنت انا ولا ازال ، اؤمن بالشعر على انه معنى ومبنى يجب ان يحتوي على قدر كبير من الشاعرية . الا يكون نثرا مقفى . انا من المدرسة الجبرانية ، من مدرسة ايليا ابي ماضي والاخطل الصغير وابي شبكة واديب مظهر ... لذلك كان الجدل يحتدم بيني وبين الدكتور كريم عزقول ، لانه مع الشعر الحديث ، مع التعبير الرمزي في الشعر ، ونظريته تقوم على ان الرمز وحده يضفي على الشعر الشاعرية والا بدون الرمز يصبح الشعر قافية ووزنا فقط ! ...

انا مثلا كنت اقابل هذا بحجة اعتبرها حاسمة : هل يجب لكي يكون الشعر شعرا ان نأتي بالمنجمين لحل رموزه وكشف غوامض معانيه وسبر اغواره ؟ !

تفاحة مي

الشعر فاكهة المعتقل والمعتقلين . كلما ضاقت بنا الدنيا ، نلجأ الى صدر الشعر انه شلالات دفاقة بالنور والحنان . انه السفينة تجري بك في أوقيانوس من الزهور والورود والاحلام ... انه بساط الريح يحملك الى مجاهيل السماء ... الى مجاهيل بلا سماء .

كانت في غرفتنا تفاحة حمراء محفوظة بعناية في مُرطبان زجاجي ابيض ، يحرص على عبيرها الا يفر الى الخارج . ونحن في المعتقل أحوج ما نكون بعد الشعر ــ الذي اسميناه فاكهة المعتقل ــ الى فاكهة نقاتل بها الحبوب واللحوم والاسمان ... والجوع احيانا .

كانت التفاحة البقية الباقية من سلة حملتها مي سعادة الى خطيبها عبد الله سعادة .. لم تكن مي قد صارت دكتوره ولا عبد الله دكتورا واميناً في الحزب .

اية شهوة حدت بي الى محاولة سرقة التفاحة ؟ الجوع ام الوانها الشهية ، ام لانها محرمة ؟ حاولت فلم افلح . كشفني الأمين فؤاد ابو عجرم . فنهاني وحذرني ، الا انه استطرد : اذا نظمت قصيدة تحلل اكل التفاحة فانا اضمن انها لك . عبد الله يبيعك التفاحة بقصيدة الى مي . انه شاعر ومن عشاق الشعرومـــي شاعرة وابنة شاعر .

تحدثت في هذه الذكريات عن الأمين الدكتور سعاده في مناسبات شتى . انه رئيس حزبنا الحالي . واما مي فهي شريكة حياته . عندما كنا في المية ومية ، عبد الله والشلة من القيادين الذين ذكرت ، لم يكن معنا من الكورة ــ على ما اذكر ــ الا جبران جريج (بيترومين) وشفيق غنطوس (اميون) . كان عبد الله سعادة يتذمر مني شاكيا بانه في المعتقل بسببي . فقد اتهمت باعلان النفير العام ، واني كنت امر في اميون تحت جنح الدجى ، لمقابلة الرفقاء وتحريضهم والتآمر معهم على الحلفاء . كان يعتقد ان تحركي في الكوره كان سبب سوق الكورانيين الى السجن ! ... فهو وهم اذن من ضحاياي . كان يقولها مازحا ... او جادا لست ادري ! ...

وعبد الله ومي سعادة كانا يتحابان ، خطب عبد الله مي وخطبته باكرا ، وكانا ينتظران الشهادة ليتم القران . مي شاعرة وعبد الله ينظم الشعر عندما ينزل عليه الوحي . كان الناس يعرفون ان ميا وعبد الله مخطوبان كأنما كانا منذورين الواحد للآخر منذ الولادة ... اي اثر من مي ، ولو كان تفاحة ، محاط بهالة من الحب ، والوفاء ، محروس بالف عين والف اذن . يتحول عبد الله الى عيون واذان لحراسة تفاحة مي .

التفاحة اذن ، حسب رأي ابي عجرم ، كانت عاصية على اللصوص او الجياع او المشتهين إثما ، وطيعة على الشعر ...

وتمت الصفقة

عبد الله قبل ان يبادل التفاحة بقصيدة ، مع شرط لاغ ، Condition sine quoino هو ان تحلل التفاحة حتى على الشعر والشاعر ...

ليس فقط من اجل مي وعبد الله والتفاحة ، رحت اذرع ملعب التنس قبل ان يتجمع اللاعبون ، بل من اجل قصيدة تليق بمي وعبد الله . مي التي اعرفها منذ طفولتها كتلة شعور وذكاء . وعبد الله الذي اعرفه طالبا متفوقا جاءني سنة 1936 يوكلني بدعوى ضد لصوص سرقوه في غيابه ، والذي عرفته فيما بعد متفوقا في قيادة حزبنا ... لقد تتلمذ في الخطابة علي يدي ، ثم راح ينشىء بدوره الخطباء ويسحر الناس ببيانه .

التفاحة موحية ، والحبيبان موحيان . ولعمري ما الشعر إن لم يكن حبا وعاطفة او من وحي الحب او وحي العاطفة ؟

اذن رحت انهب الملعب ، وكلما لملمت بيتا من الشعر ودونته اهلل واكبر . لم اكن اعرف ان عيون الرفقاء تلاحقني . قالوا فيما بينهم : ان عبد الله قبرصي اما جن او هو في طريقه الى الجنون ! وانا استمر في استنزال الوحي . الى ان مرت ساعة او اقل ، فاذا القصيدة جاهزة .

ولكن التفاحة سلمت ،

سلمت لأن القصيدة الى جانب التفاحة ، تحرسها مع عيون عبد الله !...

وهكذا سلمت تفاحة مي ...

ولكن القصيدة لم تسلم . فلولا ذاكرة عبد الله سعادة الجبارة لكنت اضعتها . في عدد صباح الخير تاريخ 30 - 5 - 1977... نشرت لاول مرة وها انا اعيد نشرها مع هذه الذكريات مصححة ، لأن الاخطاء المطبعية اتت على معانيها وتكاد تأتي على كل هذه الذكريات .

عندما ادعو الى جمهورية الشعراء عوضا عن جمهورية الفلاسفة ، انا على حق ، فلو كنت فيلسوفا واشتهيت التفاحة لحللت اكلها على الاقل لنفسي . اما الشاعر الذي يستوحي قلب الانسان وضميره ، فلا يحلل محرما ، ولو لنفسه !...

واليكم القصيدة .

بروحـــي تفاحـــة حلوة ... احـــوت مي في سحرهـــا العابق
يقـــول لي الصحـــب لا نأتلي ... نخـــاف عليهـــا من السارق
تعـــال اقتســـم بيننـــا نصفها ... وحافـــظ على مي في ما بقي ..
ومـــاذا تضـــيرك تفاحة ... مليء بهـــا الســـوق للسابق
فقلـــت لصحبـــي يا ويحكم ... أأذبحهـــا غـــير ما رافق
فكيـــف احـــز بسكينـــي على ... قلبهـــا الساهـــد العاشق
يقولـــون هبـــك نصـــارى المسيح ... اباحـــوا المسيـــح بلا عائق
قرابـــين من لحمـــه ودماه ... تقـــدم للخاطـــىء الآلق
ونحـــن نقـــدس مي هواك ... الســـت عبيـــد اللـــه بالواثق ؟
فقلـــت لصحبـــي تفاحتي ... رجـــاء يعـــز على الطارق
اذا سرقـــت شوكة في الضمير ... وان اكلـــت غصـــة المارق
خليقـــة مي وتذكارها ... تحللها رقيـــة الخالق !..

هنا استعير من ذاكرة الرئيس سعادة ما نشره في صباح الخير عن هذه الواقعة اذ قال :

« ولما انتهى عبد الله قبرصي من القاء قصيدته محرما على نفسه اكل تفاحة مي التفت الى فؤاد ابو عجرم وقلت له :

ألست ترى فيهـــا سوى الاكل من معنى
وقد نزلت في القلب مني أو أدنى ؟

« فقام فؤاد وقال :

انا لست شاعرا ولكن قلبي شاعر واستهل بعبد الله قبرصي الذي رد عليه ارتجالا وقال :

بلى نحن ندري قبلك القصد والمعنى — اتجهل عبد الله من نحن من كنا ؟
عرفنا الهوى طفلا وكان ربيبنا — وانت رضيع بينما نحن قد شبنا

وهنا اجبته :

انا والهوى طفلان ما شأنكم معنا — ترومان تجديدا وقد شبتما وهنا
تعودان للذكرى وانى اعيشها — وانى لكم ارجاع ماضيكما أنى

وهنا ذهب عبد الله قبرصي واكمل القصيدة ومنها :

ففي العالم الحر الجديد ملاحم — عن الحب تروى وهي مأثورة عنا
وفي ارض سوريا دنى وملاعب — على الجرد والشطان تفنى ولا تفنى
واي جمال ما اكتشفنا جماله — نظل به حتى نجسده فنا
فاما تهادى عفة واباءة — فنعبده حتى ولو قيل اشركنا
نرى الكون فنا والزمان قصائدا — تغنى له والشعر أول من غنى
بحيرة لامارتين بعض نسيبنا — واحلامه رؤيا زمان به عشنا ...

راجع صباح الخير 94 تاريخ 30 - 5 - 77 وهكذا شبعنا من الشعر ... وظل جوعنا الى التفاحة يراوح مكانه ، اكراما لمي ... بل لكل تفاحة اطيب مما نظمنا فيها من الشعر وسكبنا حولها من الشعور .

كل ما يسبك ، شعرا او نثرا ، بكلفة او صنعة ، يحمل طابع التكلف والاصطناع ، مهما اتخذ من اشكال ومضامين ، احيانا باهرة واحيانا باهتة . اما ما يأتي ترجمة لمعاناة داخلية ، او تعبيرا عن وجدانية اصيلة يتسم بالصدق ويبلغ في تأثيره اعماق النفس ، حتى ولو كان مسبوكا بسبائك من خزف عوضا عن سبائك من ذهب ...

النثر او الشعر عندي ، يجب ان ينسلخا ، من اعمق الاعماق ، ليكونا ابنا حيا باقيا . وان يتجوهرا باسمى واثمن ما في الجواهر ، من سحر وجاذبية ، فاذا كان المبنى متناسقا مع المعنى فاللفظة الانيقة ، الجميلة ، الاخاذة ، تتلاحم مع مضمونها وتنصهر فيه فاذا هي الهيكل وهو الروح ، او هي الصدفة وهو اللؤلؤة ، فيتكاملان ... ويشرقان بلا مغيب من بعد ! ...

ولست اول القائلين بان اجمل القصائد هي التي لم تنظم ، واروع الملاحم هي التي لم تدون ... فقد سبقني الادباء والشعراء في التعبير عما لا يعبر عنه لا بالصورة ولا بالرسم ولا بالحرف ، فيبقى انفعالات وصورا داخلية مسحورة مرصودة ، يود القلم ان يلحق بها ، فتفلت وتهرب ... وتظل الى الابد هاربة مثل جنيات عبقر ، تعتقد انك قبضت عليهن ، فيما يكن في السموات السبع ، لا يلحق بهن حتى الخيال !

ليس هذا القول هراء .

هناك قصيدة اسميتها « مغربان » اي مغرب الشمس ومغرب الحبيبة ، حاولت آلاف المرات ان احفر عليها في اعمق اعماقي ، فما افلحت في ايجادها ولا في اصطيادها ولا في نبشها من ركام الانفعالات والاحاسيس والمشاعر ، وحاولت التحليق وراءها في الافاق العليا فما نلت منها وطرا ، فكانت هي النائلة لانها اعادتني اتعثر بانيال الخيبة .

كانت حبيبتي تأتي كل شهر مرة في زيارة عادية .. مرة واحدة تأخرت عن الموعد

فراحت تنتظر الى ان سمح لها بمقابلتي قبيل الغروب . فتقابلنا وتشاكينا ... ثم رحلت .

كانت تنحدر بها السيارة في منعطفات طريق الميه ومية ــ صيدا والشمس في استدارتها الوهاجة تأتزر بكومة من الغيوم ، تلونها بالوان القزح ، وتصورها باشكال وصور ساحرة ، وتنزل على مهل في اعماق اليم ، فتبقى الغيوم بالوانها على امتداد الافق ، كأنها مشلح كبير لف احزان النهار على ذراع الشمس الراحلة ...

ومغرب حبيبتي وهي تنحدر رويدا رويدا الى صيدا ، وحيدة شاكية باكية ، ترافقها كل مشاعري ، ملونة بكل الوان الاسى والحزن واللوعة والشوق ، لتغيب هي وسيارتها بعد لحظات في دروب البساتين وتختفي .. وتغيب ... كان ذلك مغرب الحبيبة !

والشمس التي كانت منذ الفجر تفجر في الناس روح العمل والانتاج ، وتملأ العالم بحرارتها وانوارها ، تغرق تنحدر الى قلب المياه ، لتغيب ... كان ذلك مغرب الشمس .

مغربان اذن ، مغرب حبيبتي ومغرب شمس الحياة والحرارة ، كانا يهزان كل عصب من اعصابي ، اذا ارتميت لوعة في قلب احدهما ، تلقاني القلب الاخر ، بكل ما في مغربه من سحر وجمال ...

وانوي في معتقل الميه وميه وبعده ، ان انظم مشهد الحبيبة المنحدرة رويدا الى بساتين الليمون في صيدا عن الربوة البيضاء في الميه وميه ، ومشهد الشمس الغاربة ، تنحدر رويدا في اعماق الظلمة ، تاركة وراءها غيوما تماثيل تماثيل ، وخطوطا حمراء حمراء ، فاذا الكلمات تعصاني ... واذا القلم ينجر تحت يدي جرا ، والصفحات التي اسود تظل بالنتيجة بيضاء لترمى في سلة المهملات ؟ هربت مني الحروف والكلمات والصور والمشاعر ! ...

من ينظم لي « مغربان » ... من يعبر عن شعوري . من يصور لي بالكلمات والاحرف والخطوط والالوان ، مغرب الشمس ، ومغرب حبيبتي ... مغربان ، واحد يلقي الكون بين احضان العتمة ، والامل ، والاخر يلقيني في احضان عتمة الوحشة ، بلا امل ...

تلك هي القصيدة التي لم انظمها ولن انظمها . تلك هي القصيدة التي ستظل كلمات واحرفا لا اجدها ، ومشاعر عميقة وصورا يستحيل علي التقاطها وجمعها لانها مبعثرة

في اعماق اعماقي ، مدفونة في اطواء نفسي ، انها بحاجة الى سحر ساحر لتتجمع ، وتتحرك ، وتصعد الى قريحتي ، وتجري على قلمي .. وتتبلور شعرا من شعور !

اي ساحر ، اي شاعر ، اي ناثر سيكتب عني « مغربان » مغرب الشمس ومغرب الحبيبة في آن معا ، في لحظة من لحظات الحياة المقيدة المعتقلة الحزينة ؟ ...

اين القلم الذي سيتخيل شاعرا ، واقفا على ربوة في الميه وميه ، من المشارف المطلة على صيدا ، يودع في لحظة واحدة شمس الحياة ، وشمس حياته اي حبيبته ، الغاربة في بساتين صيدا ...

وديع الياس ...

وديع الياس مجاعص ، رفيق سعاده الاول وموضع سره وثقته ، وابن عمته ، رجل غير اعتيادي . انه ليس كسائر الناس ، لا يتعالى على احد ، ولكن لا يحب ان يظهر وكأنه مثل كل الذين يلتقيهم او يعايشهم . انه يعزل نفسه وينفرد .. دون استعلاء ولا استكبار .

قامة فارعة جسم رياضي مقدود من الفولاذ او من صخر صنين .. انف كأنف النسر ورأس ابدا شامخ ، وعينان تقدحان النار ساعة الغضب والندى ساعة الابتسامة والرضى والفرح .

عرفته يوم اصطحبني في ايلول 1935 لتعريف رفقائنا في ضهور الشوير الى شخصية الزعيم ، كانوا يقسمون يمين الخضوع لقرارات سعاده دون ان يعرفوا انه هو المقصود ولقد سبق وشرحت كيف صعدت مع سليم سعد الله يمين (انطلياس) ووديع الياس الى الضهور وكيف القيت خطابا وواجهت دموع الفرح من الجميع وفي طليعتهم وديع الياس نفسه .

ثم تمكنت بيننا الاواصر . كلما عرفت وديعا اكثر احببته واعجبت به اكثر .

لم اكن وحدي من المعجبين . كل الذين يسبرون اغوار الرجال ولا يتطلعون اليهم من السطح الى السطح ، يزنون الرجال بوزنهم الحقيقي . سعاده نفسه في قصته عن « دير سيدة صيدنايا » وصف البطل باوصاف وديع الياس . بطل قصته على ما ادرك كل قراء القصة كان وديعا بالذات .

منحناه رتبة الامانة بعد استشهاد سعاده فلا قبل ولا رفض ولكنه من ضمن طبيعته وعزلته وانفراده تصرف دائما امينا على الامانة .

اولاه القوميون ــ بعد سعاده ومعه ــ ثقة مطلقة فكان مكتفيا بثقته بنفسه ، قليلا ما يكترث برأي الاخرين او ثقتهم .

لا اقصد تأريخ وديع بل القول ، ان هذا المارد الجبار ابن الصنوبر والحقول والاودية والجبال ، الشامخ الانف كالنسر ، الذي ما ترك الشمس تسبقه يوما الى الحقول ولا اهمل اخر نسمات الليل النقية ، يملأ بها رئتيه ، هذا المارد الجبار ادخل الى قمقم الميه وميه ، وصار سجينا كسائر الناس .. يعيش في اجواء المعتقل مع من يختارهم ويصطفيهم ، وينبذ من لا يختار . من اصفيائه كان الامين جريج والرفيق الياس سمعان وكاتب هذه السطور .

كان قد اشتهر بقوة بأسه ، وقوة ارادته ، وقوة اعصابه ، يهابه الكبار ويحبه الصغار والمتواضعون .

اشترك في معركة بكفيا ــ اول اذار 1937 ــ وابلى البلاء الحسن مع الكثيرين من رفقاء ضهور الشوير والمتن والشوف وبيروت . الا انه قاد المعركة مع جميل قيامه وفؤاد فرح مفرج بفروسية نادرة ، ساعة راح يستولي على البنادق ويحطمها ويرميها ذات اليمين وذات اليسار ، لكنه مع الاسف ما سلم من ضربة على « نافوخ » رأسه عطبته فاضاعت توازنه ، ووقع ارضا ونقل الى السجن عوضا عن ان ينقل الى المستشفى .

لم يمكث طويلا في السجن (في بعبدا) فقد سعيت شخصيا للافراج عنه وعن كل الشباب الذين سجنوا معه يومذاك ولكنه اعتبر انه اهين . ان تاريخ حياته اهين . فرغم ما اظهر من بطولة في جولاته وصولاته ، اعتبر ان الضربة التي تلقاها غدرا على رأسه من الوراء كانت ضربة تمريك ومحاولة اغتيال اكثر منها ضربة رجل امن يدافع عن نفسه او عن امنه .

هذا الاسد الجريح ، الاسد الذي غدر به ، اصبح يفضل الحياة الداخلية ، على الحياة الخارجية ، كان له بعض الاصدقاء ــ واعتز اني منهم ــ ولكن لم يكن له عشراء بالمعنى الصحيح ، فقد كان يؤثر الوحدة والانطواء على الذات .

عندما كان في الجبل لم يكن الجبل ليتسع لجبروته ، فكيف يطيق ان يعيش وراء الاسلاك الشائكة ، بعيدا عن صنوبره وحقوله واهله .. الحرية كلها لم تكن تتسع لكبريائه وفروسيته ، فكيف يتسع المعتقل ؟

والتقينا في الميه وميه .. كان وديع قلما يعرف الفرح ، لا تحسه الا حزينا ، لا تحسه الا كئيبا يهرب من لقاء الرفقاء القادة . ولا يثق بهم . لا يريد ان يعاشرهم اصيب بعقدة الشعور بالاضطهاد . راحت الشكوك والريب ، تتآكل دماغه ، وتشتعل بها عيناه ، فاذا به يفرج عن غضبه بتكسير شيء ، يضرب طابة او ما شاكل .

الاسد الجريح في القفص لم يعد يثق بأحد . كان همه الاوحد كيف يكسر القفص ويرحل .. الى دنيا الله الواسعة . انزواء وديع جعل حتى رفقاءه يخشونه ويتحسبون له ، يتحسبون ان ينفجر غيظه على احد منهم ، فيصيبه بضربة لا تبقي على نفس ! ..

وكان اكثر الرفقاء الواجفين اولئك الذين يتصورون ان وديعا يشك بهم اكثر من سواهم لسبب او لاخر .

لا اعرف كيف تحرش به كردي في المعتقل ، فاذا بوديع يغضب ويركله برجله فينقلب الكردي ، فينقض عليه وديع بكل ثقله محاولا خنقه ، كأنما كان ينتقم لحريته .

سمعت صراخ الكردي . كنـت وحـــــدي لحسن الحظ ، صحت به ، وديع امرك ان تترك الرجل . امرك باسم سوريا وسعاده . ما ان رآني وسمعني حتى عاد الى صوابه وعفـا عنه وراح يهدأ روعه دونما حاجة لاحد حتى لي ..

هل تكون مثل هذه الواقعة على ما فيها من شراسة ، علاجا لمن تثور اعصابه وتعصف به الهواجس والوساوس ، فلا يجد منفرجا الا بان ينفجر لكي يهدأ ويرتاح ؟ لست ادري . ما ادريه هو ان وديع الياس انبل وارق من عاشرتهم شعورا ونفسا . المعتقل وحده اطاح بأعصابه وشعوره ! ... الذي اعرفه انه بعد تصادمه مع الكردي ، ارتاح .. لم نعد نشعر ان نظراته تقدح الغضب ولا انه ناقم وثائر على كل شيء ...

الكردي من الشمال السوري ، لم يقبل ان يضرب من قبل وديع دون ان يضمر له الحقد والشر . تآمر عليه مع مصارع من حلب ــ نسيت اسمه ــ وفي صبيحة احد الايام ، راح الحلبي ينتظر مرور وديع الى الحمام ، فما ان تواجها ، وكان يخفي وراء ظهره ابريقا من فخار ، حتى انهال به على وديع ، دونما سابق انذار ،فأوقعه ارضا ، وما ان تمالك وديع نفسه ، حتى انقض عليه يريد خنقه ، الا ان رجال الامن والمارة حالوا بين الفريقين ..

كل من في المعتقل من رجال امن طوقوا وديعا ليحولوا بينه وبين الغدار ! ..

هكذا دائما يحدث لنا نحن القوميين الاجتماعيين . السلطة ضدنا سواء كنا على حق او كنا على خطأ . وديع الياس كان المعتدى عليه ولكنه سيق الى سجن المعتقل ، فيما بقي المصارع الحلبي حرا طليقا .

بالتأكيد لو كنت انا نفسي مصارعا لثأرت على الفور لوديع الياس . حتى يومنا هذا اكن لهذا الرجل احتراما واعجابا غريبين . ولكنني ما سكت . ذهبت الى الادارة

احتج . شاهدت وديعا في حبسه مدمى . طيبت خاطره . خففت من آلامه . سألته اذا كان محتاجا لطبيب او علاج . فأجاب بالنفي .

فجأة شاهدت سيارة اسعاف تدخل الى المعتقل حملت في داخلها ، عرفنا ذلك فيما بعد وديع الياس ، ليعالج في احد المستشفيات وليفرج عنه بعد اسابيع .

كان وديع رغم عدم الاشتراك معنا في اجتماعاتنا ولا في اجتماعياتنا ، درعا لنا وسيفا وترسا . كان حامي حمانا . كان الناس يعرفون انه مارد في قمقم فاذا افلت من القمقم ، لا يمكن ان يقف بوجهه كل المعتقل وكل قوى امنه .

وديع الان فوق الثمانين .. لا يزال جبارا ولكنه جبار متقاعد ، .. يحق للجبابرة ان يتقاعدوا ايضا في سن معينة . لا يستطيع الانسان الا ان يجمد نشاطه متى بلغ سنا معينة مهما كابر واستقوى ..

وديع الياس .. الامين والوفي .. الطيب والنبيل ، سيظل في تاريخنا اسما لرفيق سعاده الاول في صباه ، .. سيظل في خيال كل منا ماردا من مردة حزبنا العظيم ، مارد قوة ومارد اخلاق مهما جار الزمن على جسده او على اعصابه .

ديب كربجا

في رياق ، في حقل مزروع بالذرة الصفراء ، نصب في قلبه عرزال ، اجتمعت اول مرة الى الرفيق ديب كربجا (توفي منذ عشر سنوات) ، بواسطة الرفيق الاديب يوسف الدبس ... كان يوسف مؤسس الحزب في البقاع وخاصة منطقة زحلة – رياق – دير الغزال – قوسايا ... هو الذي دخل في بيروت ، في مبنى الامن العام الفرنسي ، في مكتب نعمة تابت Cunnard Line ، انطلق بكل زخم الشباب ، وحرارة ايمان الشاعر ، يبشر ويقنع ويجمع الاعضاء من كل الطبقات .

واستدعاني لاكون عراب ديب كربجا وسواه ممن تفوتني اسماؤهم الان . لا بد ان نجيب الفيكاني وجوزف الكعدي كانا بينهم .

في حقل الذرة وفي ظل العرزال اقسم ديب كربجا ورفاقه يمين الانتماء بحضوري .

كان اسمر اللون ، ميالا الى السواد ، تلتمع عيناه بالبساطة والبراءة والرجولة معا . لم يكن عالما ولا فيلسوفا . كان عاملا وحسبه فخرا بالعمل المنتج المستمر ... وحسبه فخرا ان ما تعلمه في المدرسة القومية حفظه وعمل به حتى اخر لحظة من حياته .

انقذ سنة 1935 من السجن والمحاكمات ، ولكنه علق سنة 1941 في المعتقل . انه من جوار مطار رياق ، المنطقة العسكرية . اذن يجب ان يساق هو ورفاقه ولو من باب الاحتياط وراء الاسلاك الشائكة .

كان الرفيق ديب سكوتا ، هادئا ، لا تخرج من فمه الكلمة الا رصينة مهذبة . احد عسكريينا الرفيق منير الملاذي ، استخدم عشيا للمعتقلين . فوقع الاختيار على ديب كربجا ليكون عشي القوميين الاجتماعيين وحدهم .

كان المطبخ المستقل الذي حصل عليه الرفقاء بعد اضراب شامل حركوه في المعتقل ، اضمن من ناحية التغذية ومن ناحية النظافة . وكان ديب كربجا سيد هذا المطبخ يديره بحزم وروية معا . يطعمنا طعاما شهيا ، فيغمرنا شعور باننا في فندق لا في معتقل .

المشرف الاداري كان ابراهيم يموت ، يمسك الدفاتر . يحصل ثمن المواد . يضبط دفع الاجور . يدير بدقة وامانة مملكتنا الصغيرة في المطبخ القومي في المعتقل .

تساءلت في عيد الاضحى المبارك 1942 لماذا يتوافد القوميون على غرفة الرفيق ديب ، وهم في ثياب العيد . قيل لي الا تعرف انه محمدي ؟ قلت لا واستغربت ، فانا ادخلته الصفوف الحزبية في رياق ، وكنت اعتقده ارثوذكسيا او كاثوليكيا او مارونيا . لم يكن يدور في خلدي انه مسلم سني او شيعي ... رياق بلد مسيحي كما اعرف .

سارعت لارتداء ثياب العيد ، ودخلت الى الغرفة وقدمت له تهاني . كان الرفقاء بالاجماع يحبونه ويحترمونه ، فلم يبق احد لم يدخل غرفته معايدا .

وتمر الايام وتكر السنون ، وتطرح على الحزب اسئلة بالفرنسية من السيدين مقدسي ولوسيان جورج (مراسل جريدة لوموند حاليا) فيحيلها الى رئيس الحزب آنذاك عبد الله محسن بوصفي رئيسا للمجلس الاعلى لاجيب عليها . كان ذلك في اواخر سنة 1958 ..

من بين تلك الاسئلة : ماذا حققتم كحزب ، ماذا أنجزتم ؟ فكان جوابي : اننا الغينا الطائفية من صفوفنا بانتظار ان نلغيها من صفوف الشعب . هذه حقيقة لا يختلف فيها اثنان اذا كان الناس يختلفون في تقييم انجازاتنا الكبيرةعلى كل صعيد او تقييم عقيدتنا السورية القومية الاجتماعية .

وضربت مثلا ديب كربجا . وقلت اني انا ادخلته الحزب . وقد عاشرته سنوات . ولم اعرف مذهبه الا في الميه وميه . اجل في الميه وميه عرفت انه مسلم سني . ونشر هذا الحوار باللغة الفرنسية في جريدة الاوريان وباللغة العربية في جريدة « الجريدة » .

يبدو ان الرفيق ديب كربجا اطلع عليه . فدهشت اذ تلقيت رسالة مضمونة مع اشعار بالاستلام ، مرسلها ديب كربجا . فضضت الغلاف مستعجلا واذا به يكتب الي :

حضرة الامين الجزيل الاحترام عبد الله قبرصي

تحية قومية اجتماعية

وبعد فانك يا حضرة الامين حتى اليوم لا تعرف مذهبي . انا لست مسلما سنيا انا مسلم شيعي .

واسلم للحق والجهاد ... رياق في كانون الاول 1958

التوقيع : ديب كربجا

هكذا نتربى في الحزب السوري القومي الاجتماعي . لا يعرف احدنا دين الاخر . لا

يهمه ان يعرف . الرابطة التي تربطنا والجامع الذي يجمعنا هما العقيدة والنظام . بالعقيدة والنظام نتلاقى ، ونتآخى ونعمل ... ويبقى الدين علاقة خاصة بين الله والفرد ....

كل رفيق حر في ان يمارس شعائره الدينية ، ولكنه ليس حرا ان يعتدي على حريات او كرامات الاخرين .

قصة ديب كريجا دخلت في تاريخنا الحزبي وكان دخولها حريا بالتأمل .. في هذا الزمن الرديء الذي لا يزال فيه الذبح على الهوية سائرا على قدم وساق (مقتل ثلاثة شبان محمديين على طريق طرابلس بيروت) .

السرجانت أولدفيلد Old field

السرجانت اولدفيلد ، ممثل حكومة صاحبة الجلالة في المعتقل ... ليس له فيه مقر دائم ، ولكنه دائم الحضور . يتصل ببعض من يتقنون الانكليزية . او بمن يشار عليه بالتقرب منهم ؛ لعلهم يتقربون من حكومته ، هؤلاء الانكليز دهاة رغم برودتهم .

لا ازال انكره جيدا ، قصير القامة ، ازرق العينين ، ممتلئا حيوية ، لا يحاول انشاء علاقات صداقة بيننا وبينه ، كقياديين في الحزب . كان يكتفي بان يكون رئيسنا صديقه .

ونعمه تابت ربيب بيت يتقن الانكليزية ، والده مراسل التايمز في حياته ، جدته ارلندية ، هو نفسه خريج الجامعة الاميركية ، تحدثه فتستغرب جهله لغته العربية فيما يتكلم الانكليزية وكأنه جبل من ترابها .

كان اذن من الطبيعي ان يكون المحاور الحزبي للسرجانت اولد فيلد الامين نعمه ثابت . الا انني صدفته مرة في غرفة نعمه او طلب الى نعمه تعريفه بي : التقينا فكان اول ما قاله لي :

« لقد سبيتك مرارا ، كنا ننتظرك طوال الليل

« في اودية الكورة ، بناء على المعلومات انك ستمر من طريق ، فاذا بك تخدعنا وتمر من طريق آخر ، هكذا كنت تفلت من ايدينا فنغضب ونسب »

يشير الى ايام الفرار سنة 1941 ـ 1942 وكمائـــن الانكليز والفرنسيين لي »

قلت : « اني اسامحكم لانكم سبيتموني ... ولكني ما كنت لاسامحكم لو القيتم القبض علي ... اظل افاخر باني ما علقت في افخاخكم ولا مرة ، لاني كنت احسب حسابا لخططكم فاحبطها بالخطط التي ارسم ... »

خلاصة كل احاديثه واخباره كان ينقلها الينا نعمه ، كانت قد بدأت حرب خفية بين

حكومة صاحبة الجلالة والسلطات الفرنسية (حكومة فرنسا الحرة) فالبريطانيون يدفعون بالوطنيين اللبنانيين للمطالبة بالاستقلال والفرنسيون يتمهلون ويماطلون . رغم انهم يعدون . ما كانوا يريدون ان ينفذوا تحت ضغط الانكليز ..

الحكومة البريطانية كانت تبغي ان يأتي استقلال لبنان والشام بواسطتها ، ليكون منحة منها او دينابذمتهما لها ، وكانت فرنسا تغار وتعتبر ان حليفتها تخونها وتريد معاهدة ومركزا ممتازا .

وكان السرجانت اولدفيلد ينقل الى نعمه تطورات الموقف وما يحدث في الكواليس . كان اذن من غرائب الصدف ان تسعى بريطانيا وتبذل نفوذا ومالا في سبيل استقلال بلادنا . هي التي احكمت قبضتها على آسيا وافريقيا ، بحيث لا تغيب عن امبراطوريتها الشمس ! ... وكنا نحن في المعتقل نحاول الا نرتبط ولا بأي طرف لاننا رهائن وراء الاسلاك الشائكة . السياسات الدولية ميدانها خارج الاسلاك لا وراء الاسلاك . كل انزلاق نحو الانكليز كان ضربا من الجنون السياسي اذ نحن في معتقل تحت اشراف السلطة الفرنسية .

وكان من العسير ان نصدق ان الامبراطورية البريطانية ستتخلى عن اظلافها واسنانها واخطبوطها . لتكون لنا منقذة من الانتداب الفرنسي . ما كان باستطاعتنا ان ننسى وعد بلفور ولا ان ننسى سايكس ـ بيكو .

ومع ذلك ، فما كنا ـ بواسطة ممثلنا نعمه ثابت ـ لنرفض الاستماع الى السرجانت اولدفيلد ومحاورته ، والاستمتاع باخباره وتحليلاته بانتظار ان يكشف المستقبل الخفايا والنوايا .

ونخرج من المعتقل يوما من الايام في اواخر 1943 . وعندما اعود الى بيروت في مطالع الاربعة واربعين . يبادرني نعمه الذي اتى لزيارتي في اوتيل اوروبا . على المرفأ ـ اتعرف ماذا اكتشفت ؟ قلت ماذا ؟ اجاب هذا الملعون السرجانت اولدفيلد هو كولونيل وهو من اركان الجيش البريطاني في لبنان والشام ، لديه مكتب فخم ، طلب ان نزوره فهل نفعل ؟ وافقت ، كنت بالفعل مشدوها كيف ان الدول العظمى تفرز من رجالاتها ذوي الاهلية والاستحقاق ، فتخفض من رتبهم ، لكي يطمئن اليهم الناس ، فيما هم من الاركان فيرضخون بلا تذمر . وينفذون بصورة طبيعية لا كلفة فيها ولا تصنع . وتمت الزيارة ، كنا احرارا . لم نعد وراء الاسلاك عجبا كيف ان مكتب الكولونال

اولدفيلد مليء بالفاكهة . رحب اثاثه بسيط ولكن مرتب بذوق واناقة ... كانت الزيارة مجاملة ..

كانت بلادنا قد نالت استقلالها . ولم يعد علينا الا ان نستفيد من الاستقلال لنتقدم ... في هذه الايام السوداء (75 – 78) نعرف اننا لم نستفد من الاستقلال اية فائدة . لقد اسأنا استعماله يا للأسف !

الاستقلال كان وسيلة بيد الاقطاعيين والطائفيين ، والعملاء ليمتصوا دماء هذا الشعب وعرق جبينه . ويدفعوه الى حتفه عوضا ان يدفعوه الى تحقيق عزه وسعادته وقوته ! ... الاستقلال كان الوسيلة لاثارة الضغائن والاحقاد الطائفية ليستغلها فريق المتاجرين بالدين وينعموا بالجاه والسلطان والثروات المنهوبة !

المهم ان السرجانت اولدفيلد لم يكن سرجانت . كان كولونالا . لقد تعلمنا منه امثولة ان المرء في سبيل بلاده يمكن ان يكون جنرالا ، ويظهر بمظهر الجندي البسيط . المهم خدمة بلاده لا القابه ولا اوسمته ولا شهرته الفردية .

●بعد كتابة هذا الفصل القصير ، عرفت من الامين جريج صدفة ، ان اولدفيلد رقي الى مركز كبير في الانتلجانس سرفيس البريطانية . وانه التقى احد رفقائنا القدامى السيد بهجت خولي منذ سنة او سنتين في احد مستشفيات لندن . وسأله عن قادة الحزب ، وكلفه بأن يبلغ الامين جريج سلامه بصورة خاصة لأن بهجت ذكر له اتصاله المستمر به .

هكذا ظل الرجل يذكرنا كما نذكره نحن في هذه الذكريات حافظين له جميله في ما اسداه الينا من خدمات في زمن الحرب حيث يغترب الانسان عن نفسه وعن اخيه الانسان .... !

المعتقل والحب

كان المعتقل كما اسلفنا القول معتقلين : واحد للنساء والآخر لنا نحن الرجال . كان المعتقلان يتواجدان يوم الاحد ساعة القداس ، تأتي النسوة بثياب لائقة : ويلبس الرجال احلى ما عندهم ونقف كلنا . في حضرة الكاهن ، يتلو علينا كلام الله . قبل وصولي كان المعتقل واحدا للجميع كان مختلطا .

كيف استطاع مأمون اياس ان يقنص « ماغدة » وان تقنص ماغدة قلب مأمون — مع ان القنص لم يصبح موضة الا في السنوات الاربع الاخيرة ، سيظل ذاك سرا من اسرار الحب !

مأمون في عز شبابه ، جريء ومقحام وماغدة جميلة من بلاد البلقان . تلاقيا فتشاكيا فتحابا .

مأمون وماغدة الحب الاوحد في المعتقل .

الحب الذي لم يدم اكثر من ايام الاعتقال ، لان مأمونا ، ما ان عاد الى عالم الحرية والنضال وماغدة الى عالمها الفني . حتى انتهى الحب المعتقلي الذي ظن البعض انه حب ... خالد .

اما انا فكان حبي يرافقني في كل لحظة ، كان الوجد يأخذني في تياره النوراني كلما ازداد البعد وطالت مدة الاعتقال ... في الميه وميه كنت اسري عن نفسي بنظم الشعر وفي الرسائل التي كنت اكتبها الى الحبيبة . تندفع من اعماق صدري شوقا والتياعا . كذلك الامين عبدالله سعاده وحبه لمي (الدكتورة مي زوجته حاليا) كان شهيرا في معتقلنا .

الدكتور سماره : الذي خرج من المعتقل ، رساما ونحاتا كان يصنع لنا « براويز » من الحجر « الحواري » في الميه وميه ؛ كما يصنع الرسوم لنفسه ، لم يبق احد منا ما حمله تذكارا من الارض البيضاء اما انا فقد صنع لي اطارا لصورة حبيبتي ، تخيل فيه ان شعلة من النار تندلع من احد جوانبه ، متكئة على ورود وياسمين .. وقد حفر في

اسفله هذين البيتين من الشعر اللذين نظمتهما للمناسبة :

ايها النار تولع الحب في قلبي وتوري مطامحي وجهادي
ضمك الفن في اطار من الحب وانت الاطار ضم فؤادي

الحنين الى الحبيب يصبح في المعتقل نوعا من المرض المضني ، كيفما سرت تجد معتقلا يناجي البحر ، او يسير الهويناء على المشارف متذكرا . تواقا ، مشتاقا ، حالما ، بعد المعتقلين عن المرأة يشكل ثلاثة ارباع هموم المعتقل ، اما الذي يبقى للمعتقلين من الحب ... ومن الاحبة ،،، فالحنين والرسائل ومقابلة في الشهر ، تلتقي فيها العيون لا الشفاه .

روي لي السيد اديب شعيا ، الذي كان يراقب رسائلنا الصادرة والرسائل الواردة ، انه كان يستبقي رسائلي الى حبيبتي طوال اسبوعين ، وانه كان ينقل بعضها ليحفظها تذكارا . كنت اكتب قطعا من قلب ، اجهد النفس لتأتي بليغة العبارة ، متوقدة الشعور ، صارخة الاشواق ، تكاد حروفها تكوي قارئها في صميم احساسه . لقد كنت اعبر عن واقعي النفسي ، لقد كنت احب والكبت يضنيني حتى اليأس .

ولقد روت لي الانسة اديبة قربان ، وكانت هي ايضا رقيبة في الامن العام على رسائل السجناء والمعتقلين ، انها كانت تحب رسائلي وتحفظها وتنسخها احيانا وتحدث عنها الجيران والصديقات .

حفظت زوجتي تلك الرسائل وكنت اود ان انشرها ، لانها بالفعل صورة عن مشاعر المعتقل الولهان الذي يكتب لحبيبته فاذا كلماته نجوى ... وويله وحنين ، انها كلمات نبيح يكتب بدمه ومن دمه ، وفي الوقت ذاته ، صرخة جريح مكبل ، كان يود لو يحطم القيود ويحارب لكسر القيود التي تكبل شعبه !

الا ان الرسائل سرقت من مكتبي في الاحداث الداميات الاخيرة مع المكتب كله ... لا ادري ماذا يستفيد السارقون من رسائل لا يفهمونها لا تباع ولا تشترى .

ايها السارقون لقد سرقتم نتفا من قلبي ، عندما سرقتم رسائلي الى الحبيبة ... الا اكتشفكم يوما ؟ ! .

يا سارقي دمي ! ...

« لو سجنوني في قصر وقالوا لي ممنوع ان تخرج الا باذن ، او تدخل الا باذن ، لاحسست اني سجين » . هذه حقيقتي ويمكن ان تكون حقيقة كل البشر ، الانسان يولد حرا ويجب ان يحيا حرا ، حدود الحرية ترسمها القوانين للجم الغرائز والانانيات والمطامع والتنافس والتصارع . ولكن القيود على تحرك الانسان ، كقيود المعتقل ، تظل قيودا ثقيلة مهما تكن خفيفة ولطيفة حتى ولو كان آمر المعتقل السيد « نيقولا » .

قلت فيما سبق ، ان المعتقلين رهائن . انهم مجموعة من الناس ترتاب السلطات الحاكمة بامرهم او تتهمهم بالقيام بنشاط معاد للحلفاء ... كأن يكونوا حاملي جنسية دولة عدوة . حتى ولو كانوا من خصوم نظامها . او يكونوا مثلنا من حزب غايته الاساسية تحرير بلاده من كل سلطان استعماري وتوحيدها ونهوضها . فهو معاد بطبيعة نشوئه . لأي سلطة اجنبية تمارس عنه السيادة ، او تتصرف تصرف المالك بارضه وحقوقه ومصالحه .

الفرق بين السجناء كما كنا في حبس الرمل او حبس القلعة والمعتقلين السياسيين كما كنا في المية ومية هو الفرق بين مجموعة من العبيد محكومة من قبل جلادين غلاظ القلوب مجبرة على الاقامة في ما يشبه مواخير الخيل ومزارب البغال والحمير . وبين طلاب مدرسة داخلية ، مديرها ونظارها صارمون في المحافظة على الامن والنظام ، خاضعون لمراقبة دقيقة على المراسلات والسلوك والتقيد بالاوامر والتعليمات .

شعوري وانا اكتب عن المية ومية ، لا يختلف عن شعوري وانا اكتب عن حياتي كتلميذ داخلي في مدرسة دير البلمند حيث تعلمت سنة 1920 الى 1923 مع فارق غير بسيط اننا في الميه وميه غير ملزمين ببرنامج دروس محدد ومعفون من الامتحانات الموسمية وان كان اكثرنا يصلح اساتذة جامعات منا تلامذة مدارس . ان عارف النكدي مثلا كان موسوعة علمية . فهو رجل قانون ورجل ادب ورجل فكر . علي ناصر الدين مناضل قومي عربي وكاتب واديب وخطيب . صبحي العمري قائد شرطة دمشق

سابقا ومحمود الهنيدي من الاركان في الجيش . ناظم القادري محام لامع . وفريد زين الدين دكتور في الادب ، والاقتصاد . وكريم عزقول ، دكتور في الفلسفة . واذا كان قيصر اسود واحمد الصيداني ليسا دكاترة في اي علم او فن . فهما دكاترة في جمع المال ، استيرادا وتصديرا . اما الدكتور يوسف سماره ، وهو دكتور اقتصاد ـ فقد تبين انه دكتور في الرسم والنحت ايضا .واذا لم يكن علي بزي دكتورا في في الحقوق او التاريخ فهو مثقف ثقافة عامة ممتازة ويمكن اذا كان لا بد من لقب . ان نقول انه كان دكتورا في الظرف والكياسة . وفن الضحك والاضحاك ... كان علي بزي ابو هاني ، مرجع المعتقلين شبابا وشيوخا . عندما يشعرون بضيق الصدر يلجأون الى ظرفه الحاضر الناضر . فاذا بالنكتة تلو النكتة . واذهب يا يأس ويا خنق النفس ادراج الضحكات العاليات ، يملأن جو المعتقل وسماءه ! واما يوسف الدبس فهو دكتور في العاطفية الرومانسية ، لا تلقاه الا والابتسامة على شفته والدمعة في عينيه ! لي مع الاخ ابو هاني بصورة خاصة وقفات لا يمكن ان يمر عليها الزمن . ان التقادم يطريها وينقذها من اليباس والضياع .

كنا في زمن التصادم بين القومية العربية والقومية السورية . كنا في زمن التطرف ، ما كان الاخوان العروبيون يفهمون اننا لا نقل عنهم عروبة . ولكن لنا تحديدا للامة يختلف عن تحديدهم . فنحن نعتمد العلم وهم يعتمدون العاطفة واللغة اساسا للامة . الا اننا بالنتيجة لسنا قوتين متصادقتين . بل متكاملتين . اذ اية وحدة عربية يمكن الا تمر بوحدة الهلال الخصيب ؟ ... ومن الفرح ان الممارسة عبر الزمن القت في الخندق الواحد الكثير من التناقضات والمزايدات .

وكان الاخ علي ـ وكل الاخوة العروبيين ـ يعقدون معنا جلسات حوار محب . نخرج على اثرها ، غير متفاهمين ، فيلتقيني علي ويهمس في انني : « يا حوينتك تكون سوريا قوميا ... ؟ »

ونظمت قصيدة في الاستقلال منشورة في ديواني وحي الظلام ، لم اذكر فيها الامجاد العربية . فاستفدت من ملاحظته ورحت امجد العرب بشخص معاوية . وعلي بزي شيعي وقصة معاوية مع الامام علي شهيرة . فقال بعد ان سمع القصيدة بكاملها ؛ ليتك لم تذكر العروبة ولا ذكرت لنا معاوية ...

اما عن زمن خروجنا من المعتقل فكان يتصور ان ولده هاني وولدي صباح ، سيحضران الينا يوما من الايام الى الميه وميه على العكاز لحملنا مفلوجين الى ديار القبر ... كان يتصور اننا لن نخرج من الميه وميه الا بعد ستين عاما واكثر ..

اما الدكتور ميشال بولص من كفر عقا الكورة . المحامي القدير فقد مر في المعتقل اياما طوالا ومر من هناك ابراهيم حداد صاحب مجلة الدهور . كان الدكتور ميشال شريكي في غرفة واحدة في فترة من فترات الاعتقال،وكان يصاب بالارق فعلمني امثولة لا ازال اطبقها حتى يومنا هذا : اضع ملعقتين صغيرتين من العسل الصافي في نصف كوب من الماء . ثم بعد تنويبها اعصر فوقها نصف ليمونة حامض ، واشربها ، فاذا هي منوم من الطراز الفعال !

كان الدكتور ميشال لا يتعاطى مع المعتقلين ، يقرأ دون ان يكتب ، اذا التقينا حدثني عن ايامه الخوالي وهمومه العائلية . واذا لم نلتق فالدكتور ميشال يتمشى منفردا في ساحات المعتقل الرحيبة . كان منزويا ولكن رصينا ، ما احسست انه تخاذل رغم تبرمه وكبته .

للتاريخ اذكر ان اول قومي كتب مختصرا لتاريخ سوريا ـ سوريا الطبيعية حسب تعريفنا القومي ـ كان الدكتور بولص . ولكن ضيق وقته ما افسح امامه في المجال ليؤلف كتابا قيما في الموضوع . الا ان الكتيب الذي وضعه بين ايدينا جعلنا ندرك اهمية الدور الحضاري البارز الذي لعبته امتنا في التاريخ الانساني ، على مدى الازمان الغابرات .

مئات من الرفقاء الذين شاركونا الاعتقال ـ بخيره وشره ـ لم اعد اسمع عنهم شيئا . اكثرهم كابراهيم خوري عكار وشفيق غنطوس الكورة وحنا الخوري بشمزين سافروا الى عبر الحدود حيث لا يزالون على العهد ... وآخرون كمسعود عبدالصمد وفؤاد ابو شقرا ... ختموا نضالهم الطويل بموت هادىء في قراهم . مسعود عبدالصمد من اقدم واصفى المناضلين توفي مؤخرا في عماطور الشوف تاركا لنا من بين ابنائه رفقاء يكملون طريقه بشجاعة وقوة .

من ذكرياتي عن اسد الاشقر . الذي رأس حزبنا فترة من الزمن ـ انه كان شغوفا بالمعرفة . تتلمذ مدة على الدكتور عزقول دارسا الفلسفة . كان شغوفا بمقارعة الاخوة العروبيين صريحا في مقارعتهم دون عداء ولا سموم .

جمعته مع جورج مصروعه في غرفة هذا الاخير وعدد من الامناء والرفقاء ليستمعوا الى الكتاب الذي الفته في الميه وميه واسميته مصرع السمنة ... كنت احب ان ارى ردود الفعل والتعليقات والانتقادات .

كنت بالفعل فرحا اني على مدى يومين او ثلاثة الفت كتابا كأنما كنت استنزل وحيا ... اكتب ولا أكل لا ليل ولا نهار ، الى ان اكتمل المؤلف .

ورحت اقرأ والجميع يصغون بارتياح .

دقائق واذا شخير ... اسد الاشقر يغط في نوم عميق ويشخر ملتحفا عباءة عراقية ثقيلة الوزن . تجلب الدفء والنوم معا !

كان ذلك اقسى انتقاد سمعته لكتابي ... حتى كتابة هذه الاسطر في تشرين الثاني 1978 .

مقابل ذلك ، كان رفقائي في المعتقل ــ كما كانوا في السجن ــ يختارون لي من الخيرات التي تردهم من الخارج ، اخف المأكولات على المعدة واشهاها طعما . فارصفها على رف طويل عريض ... ويأتي الاخوة لزيارتي في آخر الاسبوع . وقد خلت مستودعاتهم من كل زاد . فيجدون ان هداياهم لا تزال على حالها ، مرصوفة رصفا فنيا . فيسألون متى تتناول هذه المآكل ؟ فاجيبهم : بعد حين . فيهجمون عليها يزدردونها دون ابطاء ... ويتضاحكون فهداياهم ردت اليهم مع الفوائد ؟ ... اسد الاشقر حفظ هذه الامثولة فكان ضيفي في اواخر الاسبوع دون موعد مسبق ! ...

اما انطون الرامي ــ وهو محام زميل لي ادخله المناضل الصامد يوسف الدبس في الحزب لانه من قوسايا في جوار دير الغزال ــ فكان طبيبي الدائم . يرفض ان اكون مريضا رغم ان الاطباء قرروا اني مريض ــ بالملاريا هذه المرة ــ وصفاته لم تكن تتجاوز الكأس الجيدة من النبيذ الزحلاوي . وبعض العسل مخلوط ببعض الموز وصفار البيض .

برأي انطون ــ وقد فقدناه باكرا جدا ــ ان الانسان اذا كان مريضا . وشرب كأسا زحلاويا يشفى . واذا كان صحيح الجسم واكل من وصفته العسلية فانه لا يمرض طوال حياته وقد يعيش دهرا ... شابا متنمرا او مستأسدا .

واتصور الان الياس سمعان وقد ادار بلياردو في صالون المعتقل ، فتحلق حوله هواة اللعبة يقتلون الوقت ، كما اتصور ابراهيم الشامي ــ طرابلس ــ وقد اصفر لونه من كثرة الحنين الى اهله والى الحرية . وبشير فاخوري توفي منذ مدة قصيرة ــ ونصائحه بان نأخذ حمامات شمس يومية لانها تغنينا عن اكل السمك . وكذلك بألا نترك اثرا للزبدة على ورق اللف ، فنقحطها بالسكين الى ان تكاد نقحط معها لحم يدنا ، وفلسفته

باختصار ان هذه الطريقة توفر غراما واحدا من الزبدة ، فلو حسب الانسان انه يعيش سبعين عاما ويوفر كل يوم غراما من الزبدة فكم تكون المرابح مدى الحياة ؟

واتصور ابراهيم يموت ، والدفتر في جيبه ، يطاردنا في آخر الشهر واحدا واحدا لندفع ضريبة المطبخ والطبخ ... لم نكن نقول بالاشتراكية بل نمارسها قاعدة حياة .

وقيصر اسود . الثري الامثل ــ وهمه كم سعر الذهب والخشب في البورصة . فيما همومنا متى نستقل ومتى نعود الى الحرية ... تسأل قيصر اسود اي نوع من العملة اضمن من الآخر فيجيبك على الفور : الذهب ، ذهب ، لا يمكن ان يصبح ترابا .

لو انني اتذكر جيدا ، لاعطيت القراء نماذج عجيبة غريبة عن المعتقلين ، فكأنما اضع الاجناس البشرية بين ايديهم لكثرة ما كان في المعتقل من اجناس ، وكأني اضع نماذج من شعبي تحت المشرحة . فيرون ــ حتى في المعتقل ــ كم يتفاوت هذا الشعب في درجة وعيه ودرجة وطنيته فهنالك من لا هم له الا وطنه ... وهناك من لا هم له الا معدته . والكاس والطاس ... والتجارة حتى في قلب المعتقل . ... وآخر لا هم له الا ان يزن ما يأكل بالغرامات لكي لا يزيد على معدته وزن شعرة ... يغسل يديه وفمه الف مرة بالنهار والليل .

كنا اربعة مرضى دائمين في المعتقل : علي ناصر الدين الذي كان يشكو من آلام في معدته . ويوسف الدبس الذي كان يشكو من اعصابه ! وانا ايضا كنت اشكو من كل شيء ، ولكن من اعصابي اكثر الاحيان ومنصور اللحام الذي كان يقوم بجهد ليمرض . ويرافقني الى مستشفى المعتقل ، رحمة الله على منصور اللحام ، فقد كان يمثل الصبر وطول الاناة والصمت ... الطويل .

المحامي الكبير نجيب خلف

سمعت نجيب خلف يتحدث عن الاستقلال ، في حفلة ختامية لمدرسة البنات الارثنوكسية ، في طرابلس سنة 1927 كنت على وشك الحصول على شهادة الدروس الثانوية (المعادلة للبكالوريا) ... هزني بفصاحته وبلاغته ... كما هزتني روح الوطنية الاستقلالية ، كما كنت اعيها .

بعد ان تلاقينا كمحاميين في قصر العدل لم تسمح الظروف بان تنشأ بيننا صداقة عبر الزمالة . كان الرجل اقدم مني سنا ، واشتهر في عالم المحاماة كما في عالم اللغة . كان يؤلف قاموسا في ستين جزءا على ما نمي الي . في السيارة يؤلف في المحكمة يؤلف في الترامواي يؤلف ، كان الرجل ماخوذا في شبه حرارة رسولية . كان يحيا للقاموس يحيا فيه . خبزه وزاده وحلمه وامانيه .

قليلا ما يبحث رجل من طبع المحامي نجيب خلف عن معارف واصدقاء وعشراء . لذلك بقيت بيننا العلاقة ضيقة لا هو حاول توسيع رقعتها ولا انا حاولت . كنت احترمه احتراما عميقا ، بينما كنت احب محبة لا حد لها . المحامين الشباب كاميل لحود وحبيب ابي شهلا وعبدالله اليافي وجان جلخ وجان تيان ونجيب الدبس وميشال عقل ورامز شوقي وانيس الصغير لماذا وكيف رأيته في منامي تلك الليلة من سنة 1943 في معتقل المية ومية ؟

حلم مزعج بقدر ما هو غريب .

رأيت المحامي الكبير نجيب خلف محمولا على كرسي ـ كالتي كانوا يحملون فوقها بابا رومية في الاحتفالات الكنسية الكبرى ـ ينقله جنود سنغاليون ... وصلوا به الى احدى الثكنات المخصصة للحرس واوقفوه . ظهره الى الحائط ، واطلقوا عليه النار ، فسارعت مع رجل آخر ونقلناه الى المستشفى .

افقت مذعورا ! الحلم حقا مزعج !

لماذا وكيف خطر على عقلي اللاوعي ، على عقلي الباطني ، على حواسي المستيقظة وانا

نائم حسب مذهب فرويد . ان تستحضر صورة رجل ليس من اصدقائي ولا من اهلي . فاشاهده في ذلك الحلم المزعج الغريب ؟ ... اشاهده يعدم امام عينـي رميـا بالرصاص .

كنت قد قصصت على اسد الاشقر ونعمة ثابت وفؤاد ابو عجرم وكريم عزقول ، قصة « فرن ريمي » الذي رأيته في الحلم يحترق . وكان يحترق بالفعل في قريتنا سنة 1940 فعلق اسد الاشقر بان قلبي الصافي قادر ان يستنطق المجهول ... والمستقبل ! ... طبعا ضحكنا جميعا للنكتة البارعة التي اطلقها اسد ليعني ان بعض احلامي يشبه احلام الانبياء ! ...

المهم اننا خرجنا ! كما سيأتي عرضه ــ من المعتقل في اواخر 1943 .

وفتحت مكتب المحاماة في مطالع 1944 .

في 3 تموز 1944 كنت انحدر من العدلية الى مكتبي الكائن في شارع المعرض ، بناية العبد ، واذا بي التقي الاستاذ نجيب خلف . وجها لوجه . دون سابق ميعاد .

استوقفني الرجل ، سلم علي بحرارة غير مألوفة . طلب الي ان احضر في اليوم التالي . الرابع من تموز جلسة في قصر العدل امام محكمة الاستئناف المختلطة برئاسة الرئيس روسا قال لي انها دعوى طريفة وهامة فهو مدعى عليه من قبل الاستاذ وجيه خوري ــ هو نفسه رئيس مكتب التحريات والمدعي العام الذي هدد سعادة بدس السم في طعامه 1937 وقد كان رفع الى رئاسة غرفة في الاستئناف .

الدعوى عبارة عن قدح وذم ، فقد اعتبر الرئيس وجيه خوري ــ ومن بعده النيابة العامة ــ ان لوائح الاستاذ نجيب خلف تتجاوز حق الدفاع الممنوح للمحامي للطعن بالاحكام الصادرة عن القضاء . وتوقعه بالتالي تحت طائلة احكام قانون العقوبات .

يبدو ان الغرفة التي كان يرأسها وجيه خوري حكمت ضد مصلحة موكل الاستاذ خلف . فاستدعى تمييز الحكم ، وراح يكيل الانتقادات اللاذعة الى المحكمة ، التي اعتبرته مرتكبا جرم القدح والذم بالقضاة الذي يعاقب عليه القانون بعقوبة تتراوح بين الشهرين والثلاث سنوات . والمحكمة الصالحة للنظر في دعاوي القدح والذم المقامة من غرف الاستئناف كانت المحكمة الاستئنافية المختلطة .

الجلسة اذن في 4 تموز ، الاستاذ خلف يرجوني ان احضرها مع اكبر عدد من

المحامين الشباب ـ كنت في الرابعة والثلاثين من عمري ـ لكي نستفيد من الحجج والمراجع التي سيقدمها في دفاعه عن حق المحامي وحصانته في الكلمة المقولة أو المكتوبة . وهو يمارس واجبه المهني .

استهوتني الفكرة ، فبادرت الى ابلاغ عدد من الزملاء فجئنا في شبه تظاهرة الى قاعة محكمة الاستئناف المختلطة . وجلس بعضنا والبعض الآخر بقي واقفا لعدم توفر المقاعد .

كان المقعد الذي اشغله وراء الاستاذ نجيب خلف مباشرة والى جانبي المحامي المعروف اديب مجاعص واعترض الاستاذ خلف على صحة التبليغ وكان بالفعل محاميا مدققا وواسع الاطلاع خاصة في احوال المحاكمات ـ فاجيب الى طلبه ـ وارجئت المحاكمة الى 11 تموز لتصحيح الخطأ المرتكب .

ذكرني بالموعد وذكرت بدوري الزملاء ، وكنت اول القادمين الى محكمة الاستئناف لاتخذ لي مقعدا وراء الاستاذ خلف بالضبط . وكنت قد تواعدت مع الاستاذ اديب مجاعص على اللقاء في القاعة . فبكر ايضا وجلسنا كلانا ننتظر هيئة المحكمة .

وفتحت الجلسة النيابة العامة ألقت مطالعتها مطالبة بالحكم على المعدى عليه . فهب الاستاذ خلف والقى مرافعة طويلة شفعها بكل ما في كتب الائمة . شرقا وغربا . من اسانيد وتعليلات . واذكر اني تعلمت كلمة دلاكة تعريبا للكلمة الفرنسية Delicatesse وقد شدد على ان لوائحه يمكن الا تكون دلكة Delicates ولكنها ليست قدحا ولا ذما . بل ممارسة لواجب المحامي في الدفاع عن حقوق موكليه . وان المحامي اذا لجم قلمه او لسانه . اضعف القوة المصاحبة لحق موكليه .

اخذت المحاكمة ما يقارب الساعة . جلس على اثرها الاستاذ خلف تعبا منهوكا وقع قلم الحبر الذي كان في يمينه على الارض . حاول الاستاذ خلف التقاطه ، فهوى لا حراك فيه . ضجت القاعة ، سارع البعض الى استدعاء طبيب واخرون لاستدعاء اسعاف وتحركت مع الاستاذ اديب مجاعص ، وحملناه جثة هامدة ورافقناه الى سيارة الاسعاف التي اقلته الى المستشفى حيث قيل انه مات بسكتة قلبية .

الحلم المزعج الذي شاهدته في اواخر 1943 في المية ومية صار حقيقة اذ نقلت بالفعل نجيب خلف ، انا واديب مجاعص واخرون الى المستشفى مات امام اعيننا .

ليقل لي القاريء العزيز ، اليس في هذا الحادث عجب ! ... ايمكن ان يكون صدفة ام هو سر من اسرار هذا الوجود ؟ ... طلسم من طلاسمها التي لا تعد ولا تحصى !

اكتب هذا الفصل في السابع من تشرين الثاني 1978 . منذ دقائق اتخذ المجلس الاعلى ـ وانا احد اعضائه ـ قرارا بالاجماع يقضي بالغاء التدابير المتخذة بين سنة 1974 ـ 1978 ـ بحق الرفقاء الذين كنا نسميهم « الخوارج » لأنهم خرجوا على المؤسسات الشرعية واسسوا تنظيما حزبيا مستقلا . اتخذ هذا القرار بعد الحصول على وثيقة تثبت حل الرفقاء هذا التنظيم الحزبي المستقل والتحاقهم بالسلطة الدستورية عقيدة ونظاما ومناقب ونضالا .

كان هذا القرار ايذانا بانتهاء عهد الفرقة والانقسام ، والعودة صفا واحدا ، لمواجهة التحديات المصيرية التي تهدد حزبنا وامتنا وكل جبهة الاحزاب والقوى التقدمية والقومية على الساحة اللبنانية والقومية والعربية .

الفرحة تغمرني . الحزب كله في فرحة . هنالك عند بعض العاملين ، هنا وهنالك ، بعض المخاوف والشكوك والحذر . لا نلوم هذا البعض لان الصراع اتخذ في السابق اشكالا رهيبة اصبحت الان ذكرى مرور غمائم سوداء في السماء الحزبية . غمائم سوداء تركت عبرا ولم تترك احقادا .

لقد كنت دائما على يقين اننا واصلون الى الوحدة . وان الاخوة المناضلين عائدون الى احضان المؤسسة الشرعية المستمرة لأنه ما من احد منا يطمع في هذا الحزب ، الا بتقويته وبذل التضحيات والعطاء في سبيله . ما اقسم احد منا يمين الانتماء ، حتى نذر كل ما يملك للأمة . فكيف يمكن ان يظل الحزب شقين وجناحين ؟

لقد عاد الرفقاء المناضلون ليعطوا دليلا آخرا لشعبنا العظيم ان الحزب السوري القومي الاجتماعي لا يمكن ان يتمزق او ينقسم وان ما حدث كان عابرا وطارئا ومفتعلا ، وان الذي يبقى هو الحزب الواحد الاحد ، حزب العقيدة الواحدة والنظام الواحد والارادة الواحدة والغاية الواحدة ! ... عاد الاخوة لكي لا تعود الينا

« الانشقاقية »التي ادانوها ولكي نستفيد جميعا من العبر والامثولات خلال فرقة الاربع سنوات الطويلة المرة المضنية ! ... عادوا لنثبت حقا هيبة المؤسسة العليا هيبة الدستور ، هيبة هذا الحزب الذي لا يمكن ان يكون في اي موقع او موقف متناقض مع عقيدته ومناقبه !

اهلا بالعائدين الى ساحات النضال والعطاء النظامية . اهلا بالعائدين لنشترك في الخنادق الواحدة ، تحت راية الزوبعة الحمراء ، في احباط المؤامرة المستمرة على حقنا القومي وشعبنا المزق ! ... ان ما جرى يجب ان يدرس في المستقبل في العمق لتستأصل اسبابه ودوافعه فلا يقع احد منا في التجربة المرة .... لقد كفى ما شربنا من المرائر ! ...

ولنعد الى معتقل الميه وميه والذكريات .

لم يكن يفوتنا خبر او حادث يجري وراء الاسلاك الشائكة ، كانت تربنا مع العرق والبيرة آخر الاخبار وآخر التطورات بواسطة الرفيق الياس قدسية كنا نتابع عن كثب الصراع بين فرنسا الحرة ــ فرنسا ديغول ، وبين الانكليز . الجنرال سبيرز كان يؤلب حوله انصار انكلترا ويحرضهم على المطالبة بالاستقلال ليستبدل النفوذ الفرنسي في سوريا ولبنان بنفوذ صاحبة الجلالة . لقد استفاد من حرب الاديين (نسبة الى أميل اده) والخوريين (نسبة الى بشارة الخوري) . فناصر هؤلاء ضد اولئك ... ولكن كان الشيخ بشاره الخوري قد انتخب رئيسا للجمهورية كما عين رياض الصلح رئيساً للوزراء وهما متفاهمان على الاستقلال تفاهما تاما .

رياض الصلح ــ كما ذكرت سابقا ــ كان من رجال الكتلة الوطنية في الشام ، ولكنه كان يعرف العقلية اللبنانية ، فتعاقد مع الماروني الشيخ بشارة لكي يستفيدوا من الظرف الدولي ، فيحققوا للبنان استقلاله ، ويضعوا ميثاقا « وطنيا » يتنازل فيه الموارنة عن فرنسا ، كما يتنازل المسلمون عن المطالبة بالوحدة السورية او العربية وتوزع الرئاسات على الشكل التالي : للموارنة رئاسة الجمهورية ، وللسنة رئاسة الحكومة ، وللشيعة رئاسة مجلس النواب وللروم الارثوذكس نيابة رئاسة الحكومة ونيابة رئاسة مجلس النواب .

وبدأت المعركة ساعة وقف رياض الصلح في مجلس النواب يطالب بتعديل الدستور وانهاء الانتداب وجلاء الجيوش الفرنسية وتغيير العلم وجعل اللغة العربية وحدها اللغة الرسمية .

تحرك المفوض السامي هللو مدفوعا من حكومة فرنسا الحرة في الجزائر وامر بالقاء القبض على رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وكل الوزراء بالاضافة الى القائد الشمالي الوطني عبد الحميد كرامي وسوق كل هؤلاء الى قلعة راشيا بينما عين أميل اده رئيسا للجمهورية . هنا ولاول مرة في تاريخه الحديث انتفض الشعب اللبناني مجتمعا ضد حكامه الفرنسيين وحلفائهم . نزلت المرأة بقيادة القوميات الاجتماعيات الى الشارع كما نزل الطلاب وفيهم عدد كبير من الرفقاء ، الى ساحات الجهاد . وتعاونت النجادة والكتائب تعاونا وثيقا ، على اساس « الميثاق الوطني » ، بدافع ومباركة من رياض الصلح وبشارة الخوري . كما تمرد رئيس مجلس النواب صبري حماده مع عدد من النواب في طليعتهم سامي الصلح وحبيب ابو شهلا والمير مجيد ارسلان وسواهم وانتقلوا الى بشامون حيث الفوا حكومة مؤقتة اتخذت لها دار الشيخ حسين الحلبي مقرا (الدار انتقلت بالارث الى الرفيق عادل الحلبي) .

وحدثت معركة بشامون التي هاجم فيها رفيقنا سعيد فخر الدين الدبابة الفرنسية والقنبلة في يده ، فاطلقت عليه النار فخر صريعا وكان شهيد الاستقلال الاول والاوحد . في بشامون وعين عنوب كان قد تجمع المقاتلون بقيادة الضابط اديب البعيني (وهو قومي اجتماعي) وبينهم عدد كبير من القوميين كان يستنفرهم المسؤول الاول يومذاك جورج عبد المسيح .

كانت هذه الاخبار تردنا تباعا ، فنكاد نهاجم الاسلاك الشائكة وحراسها لنطير الى ساحات النضال لنشارك المتظاهرين ونقدم معهم الاضاحي على منبح الاستقلال . الا ان كبيرنا في المعتقل المغفور له عارف النكدي لم يكن متحمسا ، كان يغلب عليه التشاؤم ، معلنا : « ان لبنان ما بيصير وطن ولا بيصير دولة » . كنا نعتقد ان هذا التشاؤم طبع فيه ، ولكن ها هي الأيام تثبت ان هذا الكيان اللبناني القائم على رمال متحركة ، لأن المغرمين به انفسهم ، لا يتورعون عن تدميره ونبحه متعاونين مع العدو الاسرائيلي بحجة انقاذه من الفلسطينيين لدفعه الى احضان الصهاينة ! نحن بالطبع ، كنا نبني موقفنا من لبنان على اساس احترام ارادة اللبنانيين ، الا اننا من الناحية العقائدية كنا ولا نزال نؤمن ــ مع احترامنا لاستقلال لبنان ــ على انه جزء من سوريا الطبيعية التاريخية ، وايماننا هذا ليس لمجرد الايمان ، بل هو مبني على الواقع الاجتماعي ــ الاقتصادي ــ الاستراتيجي ، لهذه البيئة المتكاملة التي سماها العرب الهلال الخصيب ، ولقد اثبتت الايام ان نظرتنا هي الصائبة ، لأنه من المستحيل فصل لبنان مصلحة ومصيرا وأمنا عن محيطه الطبيعي .

في هذه الاثناء كان الأمين جبران جريج يقوم بواجبه الوطني في قلعة راشيا حيث كان الرئيس الخوري والرئيس الصلح واعضاء الحكومة في الانفرادات معزولين عن باقي السجناء من 8 تشرين الثاني حتى 22 منه .

لقد عين محاسبا في مكتب القلعة ، وكان يحق له بهذه الصفة ، ان يغادر صباح كل يوم زنزانته للقيام بمهام المحاسبة . ومن المكتب كان يطلع على كل ما يجري في الخارج وينقله بامانة الى رجال الدولة المعتقلين .

كان الحزب اذن ، بشخص الأمين جريج ، حاضرا في معركة الاستقلال في راشيا لأن نقل المعلومات الى الحكام المعزولين في القلعة ، كان يرفع من معنوياتهم ، ويعطيهم الدليل على صحة موقفهم فيتصلبون ويصمدون . وهكذا كان الى ان افرج عنهم واعلن الاستقلال ورفع العلم اللبناني في اعظم تظاهرة شعبية اشترك فيها كل لبنان في 22 تشرين الثاني 1943 .

اعلان الاستقلال ، في غمرة الحماس الشعبي الذي شمل الساحل والجبل ، كان فرصة تاريخية للبدء بوضع مداميكه مدماكا مدماكا على اسس متينة . الاستقلال الذي اخذه الشعب بتضامنه كان طريقا ، كان جسرا ومعبرا . كان يجب ان ترسخ منذ البدء القواعد الكفيلة بتدعيمه من كل جوانبه ، الا ان الذي جرى هو العكس تماما . كرست الطائفية « بالميثاق الوطني » . ثم بعد وقت قصير ظهرت دولة «القباضايات» والفوضى والرشوة ، فصار لبنان مزرعة عوضا عن ان يكون دولة .

اننا في هذه الذكريات نحمل رجال الاستقلال الذين تتابعوا على الحكم مسؤولية ما حدث في السنوات الاربع الماضيات . ان بؤرة الرجعية انما دشنت منذ الخطوات الاستقلالية الاولى حيث كان يجب ان تدشن دولة التقدم ، دولة تحضير الشعب لأن يكون شعبا واحدا لا طوائف متناحرة

أجل كانت حصيلة اعلان الاستقلال من الناحية الداخلية توزيع الرئاسات الثلاث على السياسيين ، من ابناء العائلات الاقطاعية ، وبالتالي توزيع المغانم والمكاسب . هكذا فهم قادة الاستقلال نعمة الاستقلال ، فحولوه الى نقمة وبؤرة فساد واستغلال والا فكيف كان بالامكان ، لو ان الاستقلال تأسس على قواعد سليمة ، ان تتزعزع اركانه في رمشة عين ، وان يتدهور لبنان منذ 13 نيسان 1975 وحتى يومنا هذا ، تدهورا لا مثيل له في تاريخ الدول وتاريخ الشعوب .

قادة الاستقلال الذين اقمنا لهم النصب والتماثيل قادونا الى الحالة المؤسفة ، حالة الاقتتال والتمزق التي نحياها . اما كانت الفرحة ذهبية ، لو انهم كانوا رجال دولة ورجال استشراف لبناء دولة الاستقلال على اسس عصرية ؟ اما كانت الفرصة ذهبية لالغاء الطائفية ، عوضا عن الهروب الى الشعار الشعار التاعس : الالغاء من النفوس قبل الالغاء من النصوص .

من الميه وميه ، كانت انظارنا تتجه الى الحرية ... اعلان الاستقلال كان بالنسبة لنا اخلاء السبيل والفرج . ايمكن ان تصبح بلادنا مستقلة وان يظل الذين ضحوا بحياتهم في سبيل الاستقلال معتقلين وسجناء ومضطهدين وملاحقين ؟ .... لم يتحقق الحلم فورا ، ولكنه لم يتحول الى يأس ...

فرحتنا بالاستقلال عوضت علينا متاعب الاسر وشجونه ...

الى المعتقل الاكبر

كم كان يريحني ان اكتب تفصيلا عن لقاءاتنا وحواراتنا مع الاخوة المعتقلين الذين اصبح بعضهم ـ بعد المعتقل ـ وزراء ونوابا . من الشهيد المناضل معروف سعد الى الدكتور فريد زين الدين ، الى أحمد قمبر الى رشاد برمدا وصبحي العمري ، بل كم كان بودي ان اصف حياة واراء كل رفقائنا في المعتقل من عبد الله سعادة الى اديب قدوره ومن اسد الأشقر الى كريم عزقول ومن مسعود عبد الصمد الى جورج نصر ومنصور اللحام ومن يوسف الدبس الى ديب كربجا والياس سمعان الا اني اثرت ان اوجز واختصر فانا لا اكتب كتاب ادب بل ذكريات تصلح في معظمها اساسا لكتابة تاريخ نضالنا الحزبي لانها جزء منه .

وكما فتحت ابواب سجن القلعة لنخرج الى رحاب الحرية فتحت ايضا ابواب المعتقل واذا بنا قافلة وراء قافلة نعود الى عيالنا واعمالنا ... ثم الى حزبنا الذي لم ينقطع عن متابعة نضاله في الخارج . ولعل اجدرنا بتسجيل الاعمال والمواقف اولئك الذين عملوا في نطاق السرية وتحت الارض ، ولكنهم استمروا يعملون دونما خشية ولا وجل ، واستمر الحزب بهم وبنشاطهم .

في كل امة جنود مجهولون . في حزبنا ايضا جنود مجهولون . مهما كتبنا وكتب سوانا لن نتمكن من تدوين كل الاعمال ولا من سرد كل الملاحم التي كتبها القوميون بتضحياتهم وصبرهم ـ واحيانا بدمائهم ـ برا بالقسم الذي اقسموا بان يهبوا الدماء التي في عروقهم للأمة ومن لا تعز عليه دماؤه لا يعز عليه اي عطاء آخر مهما غلا ثمنا ... أجل لم يتوقف النشاط الحزبي ، لا ايام سجن القلعة ، ولا ايام معتقل الميه وميه . لذلك عندما عدنا الى رحاب الحرية كان كل شيء جاهزا لنستمر في النشاط والعطاء .

لقد منحنا انفسنا فرصة استجمام واعداد نفس ـ انا قصدت بتعبوره والقويطع والكورة التي كانت حصني الحصين أيام المحن والشدائد . تفقدت كل العائلات وكل المنازل وكل الامكنة . رأس الفضائل بنظري فضيلة الوفاء فكيف لا اكون وفيا للذين

تحملوا من اجلي الأذى والاضطهاد والقهر وكادوا ان يتحملوا الجوع والسجن .

لا احدث عن فرحة اللقاء باولادي صباح وضحى وعاطف ــ كان عاطف قد اصبح ابن سنة ونصف ــ ولا عن الفرحة بلقاء الحبيبة ، بعد طول غياب ، لأن ما كتبته بمناسبة العودة من سجن الرمل وسجن القلعة لا يضاف اليه سطر واحد يخرج الانسان من معتقل الميه وميه ، مشتاقا الى الحرية الواسعة ، الا انه يجد نفسه في معتقل اوسع . ليس في العالم حرية قبل نهاية الحرب ! الحرب لم تنته بعد ... لذلك لم ينته عهد الرقابة ولا عهد الملاحقات ولا عهد الجواسيس . لقد خرجنا من المعتقل الأصغر الى المعتقل الأكبر . نكتة العودة الى الحرية كانت لقائي مع ولدي عاطف الذي تركته في شهره الرابع ، فلما خرجت من المعتقل كان قد اصبح يمشي ويتكلم . وصلت مع والدته الى المنزل في بتعبوره . فما ان اشعلنا القنديل حتى صاح : بابا ، تقدمت وضممته وعانقته قائلا : تشرفنا بابا ، تشرفنا . لقد تعرف عاطف اخيرا الى ابيه ! ....

حوالي الخمس سنوات التي مرت بين سجن وتشريد ... لم يعد لنا بيت ولا لنا مكتب . خسرنا كل شيء . اثاث منزلنا سرق او نهب . مكتبنا سرق او نهب ... كان علينا ان نعود الى بيروت صفر اليدين ... وان نعيد تأسيس المنزل وتأسيس المكتب .

في المرة الأولى اي في حزيران 1941 على اثر صدور العفو عانينا الامرين لنجد منزلا ، فلما فقدناه صار من المستحيل العثور على منزل آخر . ولو عثرنا لما تسنى لنا دفع السلفة النقدية المفروضة على كل مستأجر للمالك .

ثم من اين لنا المال للتأسيس ؟ ...

كان يجب ان نلجأ الى الرفقاء والاصدقاء احدهم اسبيريدون ديب (اميون) الذي لم نذكر عنه كلمة في هذه الذكريات ، ــ وكان من رفقائنا الصامدين في سجن القلعة ــ انجدنا بمبلغ مئتي ل . سورية ... وحده هذا المبلغ كان رأسمالنا .... سجل يا تاريخ ان غياب خمس سنوات عن الساحة ، لم يترك لنا مجالا لأي حركة لولا هذا الاسعاف السخي من الصديق والرفيق اسبيريدون ديب (اميون) .

اني اتعمد استنكار هذه الأمور الشخصية ، لا كأية ذكريات اخرى ، لأقدم نفسي صورة حية وصادقة ، عما عانى رفقائي من اعضاء الحزب وقادته من عوز وحرمان وخسائر . لولا الدكتور اسبيريدون ديب (هو اليوم طبيب جراح في الخارج) . ما كان متيسرا لي ان اعود الى العاصمة وان ارمم اوضاعي السكنية والمهنية بعد تدميرها تدميرا كاملا .

ولكن في العاصمة ، الى اين نلجأ . زوجتي وثلاثة اطفال ؟ ... ما عثرنا على ملجأ الا في اوتيل اوروبا ــ الاوتيل الذي تواضعنا على تسميته بالبابور ــ . انه على المرفأ ــ عند آخر خط سكة حديد الشرق .... يحيط به مبنى لشركة المرفأ من جهة ، ومن جهة اخرى تجار الجلود وكل حمالي المتاجر وكل الشاحنات نهارا . اما ليلا فهو معزول عن العالم ، لذلك تلعب الجرذان من حوله في ملاعب لا يحسدها عليها جرذان سجن القلعة التي تحدثنا عنها في ما سبق ! ...

الاخوة شاهين وخليل نجيم وعجاج الشويري اصحاب الفندق ، بدافع الصداقة والمروءة ، قدموا لنا جناحا ــ اكثر من متواضع ــ في الطابق الأول قرب ما كان قديما يسمى بغرفة الطعام . استصلحناه وفرشناه بالتقسيط والتقتير ...

كان ولدي البكر صباح . قد بلغ الثامنة من عمره . علمناه ان يتكل على نفسه وان يشعر بالمسؤولية ، ازاء العائلة . كان يذهب الى السوق ويحمل على ظهره الطري المؤن ويحاسب الباعة بدقة . كان يتصرف كرجل صغير . والى ذلك كان يصطحب اخته ضحى ، احيانا وحده واحيانا بمعونتي او الموظف لدي في المكتب من اوتيل اوروبا الى المدرسة الاهلية في وادي ابو جميل ! ... كان قطع المسافة نوعا من الاشغال الشاقة على الطفلين وعلي وعلى مستخدمي ! ...

كانت حياتنا مضنية في الجناح المعتم . الا انها لم تكن تخلو من بعض الموائد العامرة . الاهل والاصدقاء والرفقاء يعرفون حقيقة حالنا فيعذرون . لا يمكن ان انسى حفلة حلوة اقمناها على شرف زملائنا العائدين من معتقل الميه وميه عارف النكدي وعلي ناصر الدين وعلي بزي وزهير عسيران ... كثيرا ما تكون الصداقات الشخصية مدخلا جيدا لعلاقات سياسية او حزبية . ليست المصالح وحدها هي التي تحكم هذه العلاقات . كم سهلت الصداقة الشخصية من مصاعب ، وكم فتحت ابواب التحالف او التعاون او التعامل بثقة ومحبة بين الجماعات والاحزاب . والا كيف تتم اللقاءات والجبهات ؟ يطيب لي ان اسجل ان اسلوبي في العمل السياسي ، كان منذ ذلك الزمان يرتكز على هذه القاعدة كنت ولا ازال اؤمن بالعمل الجبهوي الصادق والمخلص .

كان يجب اولا ان نخلق الموارد للقيام باود العائلة وتأثيث المنزل ، والمكتب . طبعنا كتاب مصرع السمنة بواسطة دار النهضة لصاحبيها مأمون اياس وزكريا اللبابيدي ، فما افادنا باكثر من مئة ليرة سورية لا تغني فقيرا ولا تفقر غنيا ! ....

ثم طبعنا مجموعتنا الشعرية « وحي الظلام » على نفقة ابن العم حنا طنوس القبرصي ـ جد الامين حنا سجيع القبرصي ـ فكانت النتيجة افضل لأننا فرضنا الكتاب على الناس فرضا ، فاستقامت ميزانيتنا المالية ، ولم تعد على اكتافنا ديون باهظة .

ثم جاءت اطرف دعوى مرت بتاريخي المهني ، دعوى نقولا موسى او موسى نقولا ـ كما اذكر ـ من نيحا قرب دوما ... البترون ! ...

كان للرجل خال توفي في ريتشموند ـ فيرجينيا ـ الولايات المتحدة في منتصف الثلاثينات ، أوكل تحصيل حقه الارثي في تركته الى الشيخ شامل كسبار (طورزا) وقسطنطين ديموستاني (تاجر محترم في طرابلس) وتعهد بان يدفع لهما بدل اتعابهما اربعين بالمئة من المبلغ الذي يحصل .

جاء هذا الرجل الى مكتبي يصحبه احد اعز اصدقائي حنا سابا (من كفور العربي ـ قرب دومـــا) وفي المكتب كرسيان فقط ، وطاولـة كانت زوجتي تضع عليها ماكنة خياطتها . وحنا سابا كان من الذين اخفوني عن عيون السلطة ، اذا ذكر القراء اسماء من كانوا يحمونني ايام الحرب من الجواسيس ورجال الأمن !

سألت القادمين : اذا كان شامل كسبار وقسطنطين ديموستاني لم يستطيعا خلال تسع سنوات ان يعثرا على التركة ، فما عساي ان افعل ؟

قال حنا سابا : جرب حظك ...

وقع الموكل تعهدا بدفع ثلث المبلغ الذي يحصل . وكنت قد نسيت كل شيء يتعلق بالمهنة حتى هوية الطوابع ، فقبلت ان يوقع التعهد على طوابع بريدية عوضا عن الطوابع الاميرية .

ورحت ابحث عن اسم محام : أوكل اليه الأمر في مدينة ريتشموند ... فاذا بي اجد اسما راق لي أننا وعينا وهو غوردون اند غوردون Gordon and Gordon لأني كنت قد ألفت هذا الأسم في الاعلانات عن مشروب « الجن » ووقع الموكل لهم الوكالة وكتبت انا رسالة من زميل الى زملاء مع كل المعلومات والتفاصيل . وارسلت رسالة مضمونة بالطائرة ونسيتها تماما .

بعد اربعة اشهر ـ لا ينسى القارىء اننا كنا لا نزال ابان الحرب ـ وصلت الي من المحامين الزملاء الرسالة التاية : « نحن مفوضو التركة من قبل المحكمة . صفيناها »

واودعنا المبلغ وقدره اثنا عشر الف دولار في صندوق المحكمة » « ارسلوا لنا الايصال المرفق موقعا عليه من الموكل » « ومصدقا من قنصلية الولايات المتحدة ، لنرسل لكم المبلغ فورا » .

وما صدقت ان الانقاذ من الازمة المالية يأتي عن طريق ريتشموند ـ فيرجينيا . مهما يكن الانسان موزونا وهادئا ، يفقد اتزانه وهدوءه . القدر الذي يسلبك حياتك احيانا هو نفسه القدر الذي يفاجئك بالنعم والخيرات والحظ السعيد ... احسست اني اصبحت دائنا بعد ان كنت ارزح تحت اعباء الديون .

اجار الشقة المتواضعة ـ ولنقل التعيسة ـ في اوتيل اوروبا اصبح مضمونا معيشة العائلة واقساط المدرسة والضروي من الملابس صارت كلها مضمونة ... الرسالة وحدها رأسمال ضخم ، فالمبلغ الذي يعود للموكل ـ ويعود لنا ثلثه كبدل اتعاب ـ صار في المصرف يمكن ان نسحبه بمجرد ارسال الايصال القانوني ....

ان هذه الذكريات ـ حتى في جانبها الشخصي ـ تظل مفيدة لعلماء النفس وللروائيين والقصاصين ... ولاكمال « فيلم » لا بد ان تتقاطع بعض مفاصله بالاخبار الخاصة لتزول عنه نكهة الاسى والقلق والاضطراب .

جئنا بالموكل من الشمال وزففنا اليه البشرى ، ولولا عناية الله ، لكان نقل بعد ان سمع الخبر الى العصفورية عوضا عن ان يعود الى ضيعته ... ما كان يصدق لو لم نستلف على المبلغ المودع في البنك سلفة من الصديق عجاج الشويري وندفع نصفها الى الموكل لينتعش ويصدق ، ولننتعش نحن ايضا ونصدق ان لنا رصيدا في احد بنوك العالم ! ... بعد ان كنا نحن رصيد الحرمان في بنوك القدر !

كان الدولار في ذلك الزمان ـ زمان مكتب القطع الموضوع تحت اشراف السلطة المنتدبة ـ 220 قرشا سوريا . ولكن كان سعره في السوق السوداء 400 قرشا . وجاء الاغراء من هذا الفارق الكبير . كان يجب ان نحصل على ترخيص من مكتب القطع ... فقصدناه مئة مرة ، نصعد في كل مرة 140 درجة دون مصعد ولا من يحزنون ، لنعود بخفي حنين ، مدير المكتب كان بحاجة الى رشوة ونحن ما تعلمنا ان نرشو احدا ...

وبالنتيجة ، صممنا على طلب المبلغ بواسطة بنك الدولة ، مصرف سوريا ولبنان . وجاء المبلغ ... فسلمنا صاحبه ماله واستلمنا مالنا ... ووقفنا على رجلينا وصار بالامكان الهجوم على الفقر بعد ان كان الفقر هو المهاجم !

لا يجوز ان ننسى عملا خيرا صدر عن رياض الصلح فقد راجعناه بواسطة وفود عن كل المعتقلين السابقين في الميه وميه ، فرصد لنا من « قرش الفقير » في مكتب « الميره » مئتي الف ل . سورية ، وزعت على المعتقلين كل حسب المدة التي قضاها ، وقد اشرف على التوزيع الاستاذ ناظم العكاري يعاونه كاتبه جوزف نصر (كلاهما حيان يرزقان اطال الله بعمرهما) ... لا يجوز الا ان اسجل اني كنت صاحب الفكرة وان اكثر المعتقلين وكلوني لملاحقة التعويضات وتعهدوا لي بدفع خمسة بالماية من المردود .... فكان المردود علي من هذا المردود مبلغا لا بأس به على الاطلاق ! ....

في اوتيل اوروبا تدارست مع نعمة ثابت موضوع الاجتماع الصاخب في عيناب ، كما تدارست معه خطابه في بعقلين عن « الواقع اللبناني » ... لنقلها في هذه الذكريات بصراحة : لولا انطون سعادة لكنا كلنا مع الواقع اللبناني ، لأننا ما فهمناه ــ نحن رجال الفكر في الحزب ــ نقضا لمفهوم الأمة ، والقومية ، بل فهمناه تفسيرا مرنا لتصريح الزعيم الشهير في اول عدد من جريدة النهضة عن الكيان اللبناني ....

ان سعادة الزعيم والمؤسس هو الذي استطاع بمحاضرة واحدة ان يصوب الانحراف الفكري الذي وقع فيه نعمة ثابت ، ووقعنا فيه معه ، فاستمر هو في خطأه فسقط واصلحنا خطأنا فاستمرينا على خط النهضة سائرين ، لا نحيد عنه قيد شعرة ! القادرون على اصلاح خطأهم أو الرجوع عنه هم وحدهم القادرون لأن المكابرة طبع من طبائع المخلوقات العاجزة في اكثر الاحيان .

عندما كنا نتداول في المعتقل في شؤون العقيدة وشؤون السياسة وشؤون التنظيم ، كانت تمر امامنا بعض التصورات للآتي ، للمستقبل ... كان قد خطر ببالنا الا يقتصر تأليف المجلس الاعلى على الامناء الذين كان قد عينهم سعادة بمرسوم قبل سفره ، بل ان يتعداهم الى الطاقات التي برزت اثناء الممارسة ، على الصعيد الفكري او السياسي او الاداري ، فاستقر الرأي على اضافة فايز صائغ وعبد الله سعادة وعبد الله محسن وبعض الاسماء الاخرى التي لست متأكدا منها ... ان وقائع معينة ، وحوادث معينة ، جعلتني اتذكر هذه الاسماء دون تردد ... اما الاسماء الباقية فاترك تعدادها لمن تكون ذاكرتهم ادق او اقوى

كنا نعرف من مقدمة مرسوم منح رتبة الامانة اي القانون الدستوري عدد 7 ان المجلس الاعلى يتشكل من بين الذين يحملون رتبة الامانة ومع ذلك توافقنا ان نخالف هذا النص في المقدمة باعتباره غير ملزم لنطعم المجلس بدم جديد بنخبة من الشباب المتفوق الذي يساهم في اغنائنا بالفكر النير ووقع اختيارنا على الاسماء المشار اليها فوق ، فايز صائغ لانه كان قد بدأ يشارك في الانتاج الفكري على نطاق واسع ، وعبد الله سعادة ، لانه عمل ايام الحرب كقائد مميز باسم جلال طالب ، وكانت قد برزت شخصيته في ممارساته القيادية الناجحة ، اما عبد الله محسن فلأنه شغل مسؤوليات ادارية وتحمل تضحيات جساما وصمد . ويبدو لي اننا اضفنا خالد موره لي لأنه اظهر استعدادا نفسيا لتحمل المسؤولية وبرز ايضا كاداري في الشام بعد ان انشأنا بناء على طروحاته والحاح بعض الرفقاء العاملين لجنة تنفيذية عليا في دمشق لادارة العمل الحزبي في الجمهورية الشامية ... خالد موره لي سبب لنا متاعب كثيرة على ما اذكر لأنه حرض بعض الرفقاء على القيام بحركة شبه انفصالية .

أما مجلس العمد فقد أعدنا تشكيله برئاسة نعمة ثابت واوكلنا عمدة الاذاعة الى الدكتور كريم عزقول بعد ان اقسم يمين الانتماء وعمدة الثقافة الى فايز

صايغ الذي صار له دوران هامان ، دور في القيادة العليا تشريعي ـ تخطيطي ، ودور في السلطة التنفيذية ، ولقد قفز فايز قفزة نكية وبارعة ليصبح نوعا من الدينامو المحرك لكل الدوائر الحزبية . ان تفوقه كمفكر وخطيب ومحاضر وكاتب فرضه علينا قائدا في تلك السنين المبكرة ولعل هذه القفزة المتسرعة هي التي تسببت بسقوطه لاقدامه على اعتناق فلسفة كيركيغارد الفردانية واتخاذه من الحزب منبرا للتبشير بافكاره عوضا عن التبشير بفكر الحزب المجتمعي .

في حزبنا سمة بارزة ـ واظنها قائمة في كل الاحزاب هي تعاقدنا بان نكون ارادة واحدة في اتجاه واحد بوحي عقيدة واحدة تطبيقا لنظام واحد . بفضل هذا الانصهار الكلي كنا نحب بعضنا حبا لا حد له ـ ولا نزال لولا بعض الانحدارات والاستثناءات ـ ونثق ببعضنا ثقة تكاد تكون عمياء . كنت ـ ولم ازل ـ اقرأ ما يكتب رفيقي لا بعين الناقد ولا بروح الشك ، بل بروح الرفيق المعجب بما يكتب رفيقه ويبدع . كجماعة لا يزال هذا الموقف دليلنا في علاقاتنا الرفاقية ، الا ان التحفظ لم يعد استثناء ! ... ثم ان ثقافتنا الحزبية انذاك ، من فؤاد ابو عجرم الى جبران جريج ، ومن معروف صعب الى اديب قدورة ومن كامل ابو كامل الى اسد الاشقر ، لم تكن بالعمق الذي يسمح لنا بأن نكتشف الانحرافات عن المبادىء التي ترتكز عليها العقيدة علميا وفلسفيا ، رغم اننا كنا قد قرأنا نشوء الامم مرات ومرات . العصمة في هذا الموضوع كانت وقفا على سعادة ـ المشرع الاساسي ـ الذي حبك العقيدة حبكا محكما ومتكاملا من هذه المبادىء الفلسفية والعلمية .

لم نستطع نحن القادة مثلا ان نكتشف الانحراف في الواقع اللبناني الذي القاه نعمة ثابت سنة 1945 في بعقلين ولا الانحراف في بيان فايز صائغ الثقافي الذي وضعه في نفس العام ، بينما سعادة في مغتربه كشف الخلل بمجرد اطلاعه على الخطاب والبيان « في الواقع اللبناني » تبين له ان نعمة ثابت يتجه الى فهم لبنان على انه امة كما ان فايز صايغ خرج على مفهوم سعادة المجتمعي للقيم ، وعلى ان المجتمع هو هدف نضالنا لا الفرد . لقد اتبع فايز المذهب الفرداني في الفلسفة بينما علمنا سعادة في النهضة فلسفة الانسان ـ المجتمع التي تبدو نقيضا ـ وهي بالفعل الى حد ما نقيض ـ للمذهب الفرداني .

كان كريم عزقول يغطي نشاطنا الاذاعي وفايز صايغ يغطي بما يكتب وما يؤلف نشاطنا الثقافي ، في مقالاته وخطبه ومحاضراته ونشراته ، ان دراسته عن الطائفية ،

وعن الجامعة العربية ، تصلح حتى يومنا هذا ان تحفظ في تراثنا الثقافي الاجتماعي والسياسي ....

وكان من اهم تطلعاتنا في القيادة الحزبية ان نؤمن في ظل الاستقلال مرحلة طويلة من الاستقرار والهدوء بقصد ترميم اوضاعنا واطلاق الحزب في كل الميادين وكل الجهات ، ان اكثرنا كان خلال الحرب قد اهترأ صحيا وماليا . كان من الواجب ان نستشفي من الاهتراء .

الهدف رقم واحد الذي وضعناه نصب اعيننا كان رخصة للعمل الحزبي العلني . يجب ان نتفاهم والعهد الاستقلالي على حد ادنى من التعاون . لم يكن بالامكان الترخيص لنا ، اي تسليمنا علما وخبرا وفقا لقانون الجمعيات العثماني ـ الذي لا يزال ساري المفعول حتى يومنا هذا وهو مؤرخ في سنة 1909 ـ الا باسم الحزب القومي ، لان الحزب السوري القومي كان قد حل بمرسوم حكومي ، ثم ان كلمة « سوري » كانت ـ ولا تزال على ما يبدو ـ بعبعا مخيفا للانعزاليين الذين كنا نسميهم « اللبنانيين الاقحاح » لكي لا نزعج خواطرهم الكريمة ، حذف كلمة « سوري » خفف كثيرا من الاثقال ، وافسح لنا في المجال ، ان ننجح في اقناع اولي الامر في السلطة ان يسلمونا رخصه وعيدنا في دار نعمة ثابت في بئر حسن عيد الحصول على الرخصة ، كما عيدنا باقامة المهرجانات والاحتفالات الشعبية .

لم يكن من السهل ان نحصل على الرخصة لولا اننا كنا مسنودين ، اني على يقين ان قرابة نعمة ثابت بزلفا ثابت زوجة كميل شمعون ساعدت على التقارب بين الحزب وبينه ، فاغتنمها نعمة فرصة للضغط . كنا ولا نزال في لبنان معروفين بالقوميين . عندما تذكر امام اي لبناني « القوميين » يعرف انك تعني السوريين القوميين الاجتماعيين .

لله كم افادتنا هذه الاحداث اللبنانية لسنتي 1975 1976 ليست كلها شرورا فمن الشرور احيانا يطلع بعض الخير . امس الاحد في 19 تشرين الثاني ـ كان موعدنا مع مهرجان عيد التأسيس السادس والاربعين . عشرات الالاف من القوميين اشبالا وشبلات ، مقاتلين وغير مقاتلين واصدقائهم تجمعوا في شارع الحمـراء، من اوله الى اخره ، ترفرف زوابعهم الحمراء الى جانب الاعلام اللبنانية على الابنية وفي الايدي ويهتفون ويصفقون انهم يحمون حريتهم ببنادقهم .. انهم يقفون وقفة العز في يوم العز . ان رؤوسهم تكاد تطال السحاب اما انا فسرت في الاستعراض وراء سيارة رئيس الحزب يكاد قلبي يفلت من ضلوعي فرحا واملا .

كم انذهل عندما اتذكر اننا عيدنا سنة 1944 ابتهاجا واغتباطا ، لحصولنا على ترخيص من الحكومة يسمح لنا بالعمل الحزبي العلني ، وكيف نعيد ونبتهج سنة 1978 وقد حصلنا على حريتنا ببنادقنا ومواقف العز والبطولة في خنادق الثورة الحقيقية ، خنادق الدفاع عن وحدة لبنان وارتباطه المصيري بمحيطه الطبيعي وفي الوقت نفسه خنادق الدفاع عن المقاومة الفلسطينية ! اننا نصيح بملء حناجرنا وبملء صدورنا تحيا سوريا ، ان الناس صارت تعرف ان حياة سوريا تعني ايضا حياة لبنان ، لان البلدين توأمان ، يتنفسان برئة واحدة ، مصيرهما واحد وحياتهما واحدة ، وان كانا مستقلين سياسيا الواحد عن الاخر في الاعراف الدولية وبسبب الاوضاع الطائفية التي كانت في اساس استقلال الكيان اللبناني .

ولكني اسأل نفسي ، لولا اعيادنا المتواضعة في بئر حسن ، ومن ثم في عيناب 1944 وبعقلين 1945 وضهور الشوير 1946 ، لولا تلك الاعياد والاحتفالات ، هل كان بالامكان ان نصل الى سنة 1978 بهذه القوة وهذا الاتساع ؟ ...

هل تعيد طريق النصر الا بالتضحيات والصبر ... وجماجم الشهداء ؟ ؟ ...

كنا قد اخترنا طريقنا السياسي في لبنان . نحن مع بشارة الخوري ضد اميل اده . نحن اذن مع كميل شمعون والمير مجيد ضد الدار الجنبلاطية . لم يكن هنالك خيار . اما ان تكون قيسيا او تكون يمنيا . اما ان تكون جنبلاطيا او تكون يزبكيا .. ثم لا يجوز في السياسة ان يتحجر الحزب او يتقولب في قوالب الجمود اللامنتج .

الحزب الشيوعي كان في ذلك الزمان قد صنفنا حزبافاشيا.ولم يكن لنا أمل في ان نتكتل .. أو نؤلف جبهة كما هي الحال الان مع الاحزاب التقدمية وان تكن مثل هذه الجبهة حلما من أحلامي شخصيا منذ تلك الأيام .

الكتائب اللبنانية والنجادة رغم دورهما في معركة الاستقلال ، لم تكونا في تكوينهما الطائفي بقادرتين على الالتقاء بنا ولا على أي صعيد . لقد عرفنا منذ ذلك التاريخ ، وقبله بزمان ، كما تشهد كتابات سعاده ، ان الكتائب وجدت لمحاربتنا .

انتخابيا كان كل جبل لبنان دائرة واحدة ، من حدود جبيل الى آخر حدود الشوف . كانت هذه المنطقة ولا تزال محور العمل السياسي وقائدته في الوطن الصغير . موقعنا سياسيا بعد ان ناصرنا بشارة الخوري ضد اميل اده ، انحصر في هذا النطاق ولا مجال لتعديله آنيا . كانت اثاره السلبية محدودة في الظروف الراهنة ولكنها تلك الظروف ، جرتنا فيما بعد ، الى مواقف وسياسات لا نزال نعاني من مضاعفاتها التاريخية ، رغم اننا محونا اثارها بدماء شهدائنا الابرار وبمؤتمر ضخم هو مؤتمر ملكارت سنة 1969 .

من سجن القلعة ، الى معتقل الميه وميه الى المشارد ، الى الحملات المغرضة ، الى الاتهامات والاحكام الاعتباطية ، كانت قد طغت موجة كاسرة هددت الحزب بالاندثار . لقد طال عهد الاضطهاد والارهاب ، كما طالت دروب الشقاء والاحتمال .. ظن الناس ، كما ظنوا دائما ، ان القوى التي اطبقت على الحزب ، مصممة على خنقه

وازالته من الساحة قد نجحت وحققت اغراضها . كان علينا ان نعطي الجواب . كان علينا ان نظهر بمظهر الاحياء الاقوياء . لقد اخترنا عيناب مسرحا لمهرجاننا الاول ، في صيف 1944 . لو طلب الي ان اختار اسما لذلك المهرجان ، لأسميته مهرجان الانبعاث ...

المكان لا يزال قائما . مررت به ، بصنوبراته العتاق وسنديااناته الاعتق منذ مدة قصيرة يوم قصدت عيناب للسلام على المناضل الأديب الامين منير الشعار الذي عاد من فنزوالاليودع والده قبل وفاته بأيام قلائل . المكان منذ 34 سنة لم يتغير ــ عيناب كلها لم تتغير الا في ما اضيف الى دورها التاريخية من دور جديدة وعصرية .

الوجوه التي لا تزال عالقة في ذاكرتي ، تختصر في وجهين بارزين : الشهيد عساف كرم والسفير حاليا غسان التويني ، مندوب لبنان في الأمم المتحدة .

والمشهد الذي لا ينسلخ من ذهني ، هو مشهد الرفقاء القوميين الاجتماعيين ، يسيرون صفوفا بديعة النظام ، ليأخذ كل مكانه في الساحة ، المعدة للمهرجان ، المطلة على عيناب وبيروت والساحل ...

انناي ما زالتا تسمعان هدير الرصاص الذي كان يعانق اغصان الصنوبر والسنديان ، كلما ورد مقطع في خطاب حماسي او بيت من الشعر ينبض بالحياة والثورة ... والتحدي .

كان يوم عيناب يوم اثبات الوجود بعد غياب خمس سنوات متواليات .

صحيح اننا كنا نثبت وجودنا كلما دعت الحاجة ، اثبتنا وجودنا بمواقفنا السياسية . اثبتنا وجودنا في معركة الاستقلال . ولكنا لم نكن قد عرضنا عضلاتنا العسكرية بعد ان ظن الناس ان الاضطهاد اصاب منا مقتلا .

يوم عيناب كان عرضا لعضلاتنا العسكرية .. اذن لقد لعلع الرصاص . لقد اثبتنا ــ على الطريقة اللبنانية الكلاسيكية ــ ان حزبنا يحسن مداعبة الاقلام ، ومداعبة المنابر ، كما يحسن مداعبة الرصاص . **يتقن لغة السلم كما يتقن لغة الحرب .**

كان علينا ان نبرز وجودنا العسكري ، وان ندلل ان لنا عضلات جبابرة ، فدللنا . الصحف السيارة يومذاك اشارت الى المهرجان ، بعضها خائف واجف وبعضها فرح جذلان ، وبعضها متهم ومجدف !

لقد سمعنا كل شيء وقرأنا كل شيء ونحن فخورون باننا عدنا الى الحرية اقوياء ... لا مهزومين !... عدنا والعود احمد .

كان عساف كرم يقود القوميين تتقدمهم الزوابع الحمراء . وكانت الحفلة الخطابية قد حددت الساعة الثالثة بعد الظهر . لا أذكر كل الخطباء . نعمة ثابت وفايز صائغ من الاركان لا بد ان يكونا قد تكلما . عريف الاحتفال غسان التويني كان يقف على المنبر ، امامه طاولة عليها صورة سعاده مكبرة ، يتلمس في ثقة المراهق حدود مسؤولياته الادارية اما عساف كرم فكان في عز شبابه . قامة كالرمح ، وجه لوحته شمس زبوغا . مشية الضابط المدرب القوي وطلة القومي الاجتماعي المهيب الصارم في ملامحه وتحركه ونبراته .

صورتي اخطب في المهرجان والى جانبي غسان التويني ، الذي كان لا يتجاوز الثامنة عشرة من عمره بقيت محفوظة بين اوراقي حتى عام المحاولة الانقلابية آخر سنة 1961 . ذهبت مع المحاولة ... لقد كان غسان في ابان تفتح شبابه على الحياة . كان يطل وفي اطلالته طموح وايمان . كان ناشطا في صفوف زملائه الطلاب في الجامعة الاميركية وكان القلم قد صار طيعا بين انامله .

يومئذ ، أخذت بمشهد الصفوف البديعة النظام . اخذت بحماس الرفقاء والمواطنين . شعرت ان هذا الحزب نفض عنه غبار المحن والشدائد ليطل ماردا لا يقهر . خاطبت القوميين الاجتماعيين وكأنهم جيش .

« يا جيشنا القومي . يا جيش الزوبعة الحمراء . يا جيش سعاده . أنتم نواة القوة التي ستغير وجه التاريخ في أمتنا . أنتم البرهان الذي لا يرد ان حزبنا العظيم لا يقهر . واننا لا بد منتصرون » .

كان ايماننا بأنفسنا وبالحزب قد خف . لأننا من لحم ودم نتأثر وننفعل ، رغم ما اكتسبناه بالمراس والتجربة من قدرة على المقاومة والصمود .. يوم عيناب لم يعد لنا الايمان بانفسنا فحسب ، بل أعاد الينا الايمان بالنصر . لقد رحنا نكرر أقوال المعلم : ان فيكم قوة لو فعلت لغيرت وجه التاريخ .

لقد شعرنا أننا قوة فعلا لا كلاما .

لا يمكن أن أجزىء ذكرياتي . اني أرويها كما أتذكرها . علاقاتنا بالناس ، بالاحزاب ، بالعالم قد تغيرت ، انقلبت احيانا رأسا على عقب . هذا لا يعني ان تغيير هذه العلاقات ، يمكن ان يغير الماضي . لقد غيرنا الحاضر وقد يغير المستقبل . اما الماضي فسيظل ماضيا لنستفيد من دروسه وعبره ونذكر حقائقه وان مرة مؤسفة مؤلمة .

ذكرى وعد بلفور ــ سنة 1944 كانت مشؤومة لأنها ذكرى الوعد المشؤوم سبب كوارثنا القومية المتمادية ، ولأنها ايضا ادخلت عنصر الدم في صراعنا العقائدي مع رفقائنا الشيوعيين حاليا .

كانت الذكرى يوم احد . منفذ بيروت العام كان اديب قدوره . المجلس الاعلى ومجلس العمد اصدرا تعليماتهما بوجوب استنفار القوميين في بيروت والشوف والمتن والساحل وتجمعهم امام البرلمان قرب ساعة العبد ، ليسيروا من بعد في تظاهرة تتجه الى السراي القديم على ساحة البرج حيث يطل عليها رجال الحكومة .

وكانت الاحزاب ، الحزب الشيوعي والنجادة وعصبة العمل القومي والنقابات وسواها قد تنادت لاقامة مهرجان خطابي في سينما روكسي ووزعت الدعوات على المواطنين . خال زوجتي الاستاذ فهيم خوري الذي هو عضو مؤسس في عصبة العمل القومي ، ارسل لي دعوة مع عائلتي . لم يكن مطلوبا مني أن أواكب القوميين في ساحة البرلمان ، فاتجهت مع زوجتي ووالدتها ــ امي الثانية ــ مريم خوري بربر الى سينما روكسي لحضور المهرجان الخطابي .

ما ان بلغنا المدخل وكان فريق من النجادة مع شرطة بيروت على الباب الخارجي يحافظون على الأمن ، حتى انبرى لي المهندس انطون ثابت . الذي طرد من الحزب القومي سنة 1935 ــ فالتحق بالحزب الشيوعي على ما يبدو ، ومنعني من الدخول قائلا :

ــ انت غير مدعو لمثل هذا الاحتفال .

فأجبته : انني احمل بطاقة دعوة .

فقال : ليس على البطاقة اسمك ، انني امنعك من الدخول .

أجبته : وزوجتي وحماتي ؟

قال : ممنوعتان ايضا ...

كنت آنذاك في الرابعة والثلاثين من عمري ، لا يزال دم الشباب يغلي في عروقي ، فتركت زوجتي وأمها واندفعت باتجاه انطون ثابت أريد ازاحته من طريقي لأدخل ، فلحقت بي زوجتي مولولة ... (يا للمرأة ساعة تكون غير مدربة على التحدي كم تؤذي الرجل !) ثم انبرى لي شرطي ثم آخر ، وقال لي قائدهم : الأفضل الا تدخل يا استاذ فنحن هنا بأمر الاستاذ انطوان . اذا سمح دخلت واذا رفض خرجت ، فار دمي . متأكد انا لو ان زوجتي وامها لم تكونا جانبي ، لاقتحمت وقاتلت وليحدث ما يحدث . ولكن فجأة تذكرت القرار . تذكرت التجمع في ساحة البرلمان . قلت في نفسي ، سأعيد رفيقتي الى الفندق ــ فندق اوروبا ــ ثم انسحب بلباقة ، اخبر رفقائي عن انطون ثابت ونقتحم السينما ونعطل الاجتماع . نعرف ان طلقة نار في مثل هكذا ظروف تبلبل اكبر حشد !... يا للغضب كم يعطل من العقول ويشوه من الافهام !

عدت الى الفندق كما قررت ، فما ان دخلت الباب حتى سارعت زوجتي وامها الى اقفاله ورائي واحتجازي . هددت بخلعه.توسلتا ، غضبت ، لاينت . ما اجداني كل ذلك نفعا . عرفت زوجتي وامها انني ذاهب الى مقاتلة انطون ثابت وجماعته فصممتا على منعي من الخروج .

الساعة الثانية والنصف افرج عني . كنت قد تغديت ونمت واستيقظت توجهت الى الهاتف لاتصل بالمسؤولين واخبرهم عما جرى ، فاذا بي اصادف الاستاذ بطرس نجيم ، الذي كان مساعدا قضائيا ثم رفع تدريجيا الى ان اصبح رئيسا لغرفة الجنايات في محكمة التمييز . ثم احيل الى التقاعد منذ بضعة اشهر فخسرت العدلية ركنا كبيرا من اركانها . قال لي الاستاذ بطرس ، ان معركة دارت بين القوميين والشيوعيين سقط فيها ادوار شرتوني وواحد من جماعتكم .

ثم روى لي الاستاذ بطرس كيف اعلن عريف الحفلة خبر مقتل ادوار شرتوني ، وكيف وقف المحتشدون داخل السينما دقيقة صمت . وكيف اثار المذيع غضب الحضور ونقمتهم ضد القوميين الاجتماعيين .

نزلت الى المنزل اخبر زوجتي وحماتي ما حدث . ركعتا تصليان شاكرتين الله على بادرة انطون ثابت في منعي من دخول قاعة الاحتفال في الروكسي ليتصور القارىء ان المذيع في القاعة يعلن مقتل ادوار شرتوني في معركة مع القوميين ، وانا داخل القاعة ماذا كان حل بي ؟!...

انطلقت سريعا الى دار منفذية بيروت . عرفت التفاصيل :

بينما كان رفقاؤنا يتجهون من ساحة البرلمان باتجاه البرج يتقدمهم حسن الطويل على دراجة نارية يحرسها فرسان الشوف ، وقادة الحزب في الطليعة ، مروا امام السراي . خطب فيهم رئيس الوزراء . شيوعي أرمني تحرش بدراجة حسن الطويل . صاح أحدهم : يهودي ، فأنخن ضرباً وجراحاً .

مر القوميون تحت شرفات فندق سافوا ، فانطلقت على رؤوسهم زجاجات البيرة والكازوز الفارغة . استمروا في مسيرتهم حتى ساعة عصور ، تجاه صيدلية قدوره ، وتفرقوا بناء على أوامر رؤسائهم وفيما هم يتفرقون هاجمهم ادوار شرتوني على رأس فرقة من رفاقه مارا بالزاروب الذي بين عصور وكاراج العلمين ، متجها الى حيث يتفرقون . اصطدم بطلائعهم ، قتله احدهم بضربة موسى في عنقه فخر صريعا . حتى الان لا نعرف القاتل . في تلك الاثناء كان احد رفقائنا ابراهيم منتش متجها من مركز عمله عند الحاج نقولا بردويل وولسن مجدلاني الى منزله ففاجأه شيوعيان ارمنيان وقتلاه على الفور .

رصيد 2 تشرين الثاني شهيدنا ابراهيم منتش وشهيدهم ادوار شرتوني . شكرا للمولى انها كانت المعركة الاولى والاخيرة ، فالصراع الفكري ليس بالضرورة صراعا بالسلاح ، كما ان الصراع الفكري ليس بالضرورة افتراءات واتهامات لشحن النفوس وتعبئتها بالحقد والنقمة ... عندما نقول اننا حزب المحبة والعقل نعني ما نقول . اكره ما نكره ان نصيب احدا من مواطنينا مهما كان في موقع العداء لنا بأي سوء أو شر أو مذمة !...

نؤمن بالثورة ، ولكننا لا نؤمن بالاغتيال ولا بالارهاب ... نحن لسنا ولا يمكن ان نكون حزب برابرة وعنفيين من اجل العنف !... اذا كانت بعض الحوادث الفردية قد وقعت ، فالحزب لم يقررها بل الافراد انفسهم ، وكم طردنا من المتفلتين لكي نصل الى النتيجة التي بلغناها اليوم : اعلى درجة من الانضباط والنظامية .

على اثر هذا الصدام ، تحركت المفوضية العليا والحكومة اللبنانية لدس ــ السموم

في صفوف الحزبين وتحريض الواحد على الآخر ، بقصد اضعافهما وانهاكهما ، من داخل ، الا ان الحكمة تغلبت وبقيت الحملات الكلامية على اشدها دون ان يتحرك السلاح وكان اكثره عصيا وخناجر !

تحول التحقيق في مقتل الرفيقين شرتوني ومنتش الى القاضي الراحل رضا التامر فحقق ودقق على غير طائل ... ولا يزال اللغز قائما ...

لم يكن يفهم اخواننا الشيوعيون ان خلافاتنا العقائدية لا يجوز ان تكون سببا للتباعد والفرقة والتصادم . ان العدو الخارجي يتربص بنا ـ خاصة نحن العقائديين ـ ويكيد لنا ويتآمر علينا ويخطط لايقاع الوقيعة بيننا . لقد تقاتلنا فما استفاد من اقتتالنا الا هذا الاجنبي واننابه . لو اننا وعينا سنة 1945 ما وعيناه الان ، لما نزلت بنا الكوارث ولا حلت بنا الرزايا .

إن بلادنا عانت وما تزال تعاني شرور الطائفية والتمزق العشائري المتأتي من هذه الشرور . فهل يجوز لنا نحن التقدميون ، القاصدون خلاص الشعب وانقاذه ثم اسعاده ان نقدم له شرور التعصب الحزبي وما يجره من تمزق ويلات ؟

ان امامنا مرحلة نضال جبهوي نتلاحم فيها ونتضامن ، قد تطول الى سنوات مديدة ، بل امامنا مرحلة يجب ان تعيد النظر كثير من الاحزاب والفصائل في مواقفها ومواقعها ، فتتوحد وتندمج ، ان المصلحة القومية ، مصلحة شعبنا وجماهيرنا ، تفرض ان نمكن تلاحمنا الجبهوي ونصعده ، وان تتوحد الفصائل المتقاربة وتندمج . الوحدة هي دائما طريق الخير والتمزق والانقسام شر ووبال .

يوم الشوف 1945

كنت اصطاف مع عائلتي في عاليه ، في ضهور عاليه ، القوميون الاجتماعيون قرروا اقامة مهرجان الصيف في بعقلين ، في عاصمة الشوف ، المهرجان ــ هذا العام ــ لم يكن لقوميي الكيان اللبناني ، بل للقوميين في كل كيانات الوطن السوري . الباصات تحركت من كل انحاء لبنان كما تحركت من كل انحاء الشام . لا انكر اذا كان وفد فلسطيني قد شاركنا في الاجتماع الشامل .

لقد زالت كل الموانع وذللت كل العقبات ــ كان العهد ــ عهد بشارة الخوري ، قد اطلق يدنا من كل قيد او شرط ، الهتافات بحياة سوريا كانت تضايق اكثر اللبنانيين محبة لنا او اعجابا بنا . ولكن السياسة اللبنانية تسقط كل المخاوف ساعة تشاء ، وتوقظ كل المخاوف ساعة تشاء ايضا . لذلك لم يستغرب احد الزحف الكثيف الى بعقلين . الذين قاموا بالاحصاءات ذكروا ان عدد الباصات بلغ 662 ، وان السيارات الصغيرة كانت تعد بالمئات . ضاقت بعقلين بالوافدين .

اما الضيوف فكانوا من كل المستويات ، الحكومة تمثلت بالمير مجيد ارسلان والدكتور تلحوق ، والصحافة بالاستاذ جبران التويني ، والشعب على اختلاف مشاربه بوفود من الغرب والشوف وبيروت وكل لبنان وكل الشام .

التجمع كان في ساحة رحبة امام بيت الاستاذ امين خضر ــ حفظت مقاعد للضيوف ، والذين ما تسنى لهم الجلوس وقفوا على مدى ساعات ، لا يملون ولا يتعبون ... مسؤولونا في الشوف من فؤاد ابو عجرم الى حسن الطويل حماده الى كامل ابو كامل الى رفيق ابو كامل الى كل الشباب الطالع والجيل المناضل تضافر لانجاح الحشد وتنظيمه ليكون له ما قصد منه من تأثير على الناس خصوما كانوا او اصدقاء او محايدين .

لفت الانظار ان المير مجيد ارسلان ، وكان وزيرا للدفاع في ذلك العهد ــ كما في اكثر

العهود ـ مشى مع قيادة الحزب ، نعمة ثابت وحسن الطويل وفؤاد ابو عجرم ومجلس العمد بمن حضر من اعضائه ، يستعرض الصفوف القومية . كان الاستعراض ـ دون قصد منا ـ شكلا من اشكال التحدي للقوى السياسية المعارضة واخذ علينا اننا ما تنبهنا لهذا الأمر !... ان القيادة الحزبية كانت آنذاك في طور التدرج ، فاذا سلكت سبيلا وضعت على عينها طماشات وسارت باتجاه واحد .

لقد لفت الانظار ان الوفود ـ قبل وصولها الى بعقلين ـ مرت بقصر بيت الدين حيث كان يصطاف الرئيس بشارة الخوري ، وطالبته بالقاء كلمة من على الشرفة الداخلية للقصر ، كنت أنا نفسي على رأس هذه الوفود . لا ادري من الذي كلفني او اذا كنت أنا كلفت نفسي أن أقوم بهذه البادرة . اذكر ان رجال الحرس الجمهوري قالوا لي عندما طالبتهم بان يطل الرئيس ويبارك الوفود ، بانه يتناول طعام الغداء . كانت الساعة الثانية بعد الظهر ، فطلبت اليهم ان يوصلوا له بطاقة مني ارجوه فيها الا يخيب املي باطلالة على الجموع المحتشدة . واوصلوا البطاقة واذا بالرئيس يأتي ومعه بعض ضيوفه ، فصعدت الى الشرفة لأحييه ، وأخاطبه ببضع كلمات حماسية ، فيرد علي بخطاب قصير صفق له القوميون طويلا . واخذت لنا صور تذكارية كانت محفوظة في مجموعاتنا فاستلبتها التحريات المتواصلة والسجون والملاحقات (عثر على هذه الصورة الامين جريج ونشرها في كتابه مع انطون سعاده (الجزء الثالث) .

كان لمرور الحشود القومية في قصر بيت الدين لتحية الشيخ بشارة الخوري مغزىً آخر من التحدي للقوى السياسية المعارضة ، من طبيعتنا اننا نتحدى دون ان نحسب حسابا للعواقب .

ايكون تأثير كميل شمعون يومذاك ، وهو من الكتلة الخورية التي سميت الكتلة الدستورية ـ ام تأثير الانكليز هو الذي دفع نعمة ـ وكان الموحي بسياسة الحزب الداخلية والخارجية ـ الى اتخاذ ذلك الموقع ، ام ان الخطوة الاولى التي خطوناها ـ اي خطاها الحزب ونحن في المعتقل ـ بتأييده لائحة بشارة الخوري 1943 هي التي تسلسلت عنها الخطوات التاليات ؟ الصحيح ان المنطق يفرض القول تكرارا ان الخطوة الاولى كانت حاسمة ، عندما تختار حليفك على الساحة السياسية اللبنانية ، لا يمكن ان تبدله كما تبدل قميصك . التحالف في لبنان يمشي احيانا آجالا . لنلاحظ كيف ان المير مجيد ما استطاع فك ارتباطه بكميل شمعون الا نادرا ، رغم انه قال لي سنة 1960 شخصيا ـ وكنت برفقة نصري ابو سليمان رئيس المكتب السياسي ـ ان كميل شمعون العبان وبخيل ... الخ ...

قلما كان يخلو مهرجان من مهرجاناتنا من صوت بلبلنا الفريد المناضل يوسف تاج ، او من صوت شاعرنا المتفوق عجاج المهتار ... اذا خلا المهرجان يوما من قصيدة لعجاج او من اغنية قومية ليوسف تاج ، فان احدهما مريض بالتأكيد او متغيب عن ارض الوطن ... على ذكر يوسف تاج ، كان بشارة الخوري يستدعيه الى القصر الجمهوري ليطرب ضيوفه عندما كان يقيم المآدب لرؤساء او ملوك العرب ، او لكبار الضيوف الاجانب !

في مهرجان بعقلين ، الذي قلما كان الشوف قد شهد له مثيلا من قبل ، القى نعمه ثابت خطابه الشهير « الواقع اللبناني » . كما القى فايز صائغ خطابا جامعا . عندما يصل الامين جريج في كتابة تاريخ الحزب الى مهرجان بعقلين سينقب بالتأكيد على الخطابين وينشرهما في حينه .

صفق الناس طويلا ــ ونحن منهم ــ للخطباء . اكرر اننا ما كنا قد بلغنا درجة التعمق في فلسفة النهضة لم نلاحظ على الاطلاق ان نعمه ثابت خرج عن الخط العقائدي فصفقنا له جميعا دون استثناء كبارا وصغارا .

ان صاحب الدار التي جرى فيها المهرجان كان الاستاذ امين خضر . القى كلمة في المناسبة كان لها الصدى المستحب .

تنظيم المهرجان كان رائعا . مهرجاناتنا مثل لباقي الاحزاب ، لانها بالفعل ودون تبجح تتميز بالانضباط والتلبية ودقة التنفيذ والمراقبة .

اذكر عن مهرجان بعقلين ، ان احد القوميين تحمس وهتف هتاف الحزب ، يا ابناء الحياة لمن الحياة ؟... فما ان انتهى ، حتى دوت الساحة بالتصفيق ، وتلا التصفيق اطلاق عيارات نارية ، ما لبثت ان شملت الصفوف قريبها وبعيدها . احسسنا وكأن المكان تحول الى ساحة حرب . سارع العميد فايز صائغ الى المنصة ، ومن وراء مكبر الصوت صاح بالقوميين :

باسم سوريا وسعاده آمركم بالكف عن اطلاق النار .

لحظة ، وعادت الاسلحة الى مكامنها . وساد صمت عميق ، ما عكره من بعد صوت طلقة واحدة .

اتوقف هنا عن متابعة ذكرياتي ، فقد نصحني طبيبي وصديقي الدكتور سامي قائدبيه ، ان اقصد لندن لاجراء ما يسمى عملية « تمييل » شرايين الصدر والقلب في

مختبر الدكتور ادغار صاوتون Edgar Sowtonوقد حدد موعد العملية في 30 تشرين الثاني 1978 . لقد اعددت نفسي لكل الاحتمالات ومواجهة كل المخاطر . فقد ينصحني الدكتور صاوتون باجراء عملية استبدال الشرايين اذا كان الانسداد قائما .

سبق وكتبت ، انني ايام الشباب والعنفوان ، لم اكن اخشى الموت . انه قدر الانسان باكرا جاء أو متأخرا ... ولذلك وبكل بساطة كتبت وصيتي ومنها وصيتي الحزبية ، فاذا كان هنالك خطر ونجوت منه ، عدت الى التذكر والاستذكار والا فوادعا ذكريات وتذكارات !... شعوري في هذه المرحلة من العمر ، شعور ثقة بان الجسد ينحل الى اصوله الاولى الا ان الروح ـ وهي مجسدة بتاريخ نضالي يعصى على الفناء والنسيان ـ ستظل تهتف مع كل هاتف تحيا سوريا ويحيا سعاده !..

الغمة التي ترافقني الى القبر اذا توقف القلب عن الخفقان هي ما يحدث في لبنان من مآس وتمزق وفواجع . وحسرة لا اكتمها هي ان شعبنا ما زال مترددا امام الحقائق التي اثبتها الواقع ، حقائق نهضتنا القومية الاجتماعية طريق خلاص هذه الأمة من الويلات والفواجع .

(كتب هذا القسم من الذكريات في 20 ـ 11 ـ 78) .

ميشال العبد مغترب ثري ، اشتهر بمشاريعه الاقتصادية في المكسيك . ما نسي وطنه الأم ، فأهداه ساعة البرلمان ، التي عرفت باسمه ، ثم نقلت الى مكان آخر منذ بضع سنوات . خطر له صيف سنة 1946 ان يدعو الاحزاب العاملة في لبنان ــ ما عدا الشيوعيين ــ الى مأدبة عشاء في فندق بيت مري الكبير . انتدبني الحزب مع جورج عبد المسيح لحضور الحفلة ، وكلفت أن ألقي فيها كلمة الحزب .

ما ان استقام كل من المدعوين في مكانه ، على الموائد المرصوفة في فضاء الفندق الرحب ، بالشكل الكلاسيكي ، اي طاولة الشرف في الوسط وقد جلس اليها الرسميون والصحفيون ورؤساء الاحزاب وصاحب الدعوة ، والى يمينها ويسارها طاولتان جلس اليهما باقي المدعوين ، دون أي ترتيب مسبق ، حتى بدأت الحفلة الخطابية .

كان خطيب الكتائب يومذاك الاستاذ الياس ربابي ، قبل ان يصبح سفيرا في بون وفي الارجنتين ، وكنت انا قد اشتهرت كأحد خطباء الحزب .

لم أعد أذكر بالضبط الوجوه التي حضرت تلك المأدبة الا انني أتصور انها المرة الاولى والاخيرة التي التقينا فيها وجها لوجه مع ممثلي الكتائب في حفلة عامة وفي مأدبة خطابية ، وتكلمنا كل من موقعه في موضوع الاغتراب . بل يمكن انها المرة الاولى والاخيرة التي التقينا فيها دون ان تحدث مشكلة او ضوضاء او وشوشات او تساؤلات واستغراب !

ماذا قال ميشال العبد غير كلمات الترحيب ؟ لا أذكر . هل كانت له مطامع سياسية ؟ هل كان يخطط لترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية ؟ على غرار ما فعل الامير ميشال لطف الله قديما ؟ هل تكون كرسي الرئاسة مطمح المغتربين الذين يعتقدون ان بالمال وحده يصل الناس الى اعلى منصب في لبنان ؟...

المهم اني لا اذكر اكثر من كلمات الترحيب .

وقف من بعده خطيب الكتائب الياس ربابي . لم اكن أعرفه من قبل . فما تجالسنا

ولا تآكلنا ولا تشاربنا . ولا تناقشنا ولا تحاورنا ... لم يكن الكتائبيون قد اشتركوا بعد في مقتل انطون سعادة ... لم يكن التحاقد بيننا وبينهم قد اصطبغ بلون الدماء وان نكن باستمرار في مواقع متناقضة ومتخاصمة !...

الياس ربابي اديب . يكتب باسلوب ادبي بياني . لا يغوص كثيرا في الاعماق ، ولكنه ليس من جماعة السطوح والسطحيات . تحس ان في قلمه بيانا اصيلا وفي اسلوبه جانبية وان فكره لا يخلو من ابداع وجدة . ما يؤسف له ويؤلم ويحز في النفس ان الياس ربابي كتائبي ! كيف يمكن ان يكون الانسان اديبا وفي الوقت نفسه غارقا في افكار وعقلية جماعة القرون الوسطى ؟ ان الياس ربابي ، كسعيد عقل وادوار حنين ، ينهل من آبار الطائفية عوضا عن ان ينهل من سماء لبنان الصافية ، ومن أدبنا القومي والآداب العربية ، والفكر الانساني المتطور ؟... اي علم ، أي معرفة ، أي منطق يبرر الانعزال والانعزالية ويقاوم الوحدة او ... التضامن مع الشعوب العربية !!

بكلمة كيف يمكن لانسان ان يكون بلغ من الثقافة ما بلغ الياس ربابي ، ويظل متشبثا بالطائفية ، ولو سماها في أدبه بأسماء مختلفة ، وغطاها بالاقمار والشموس ، وكل ما في العربية من بلاغة وبيان ؟... كيف يمكن ان يبقى اديب من وزن الياس ربابي في صفوف الكتائب بعدما ارتكبت جريمة الخيانة العظمى ؟

وقف الياس ربابي وهو في عز شبابه وعنفوانه ، وشكر صاحب الدعوة ، وانطلق الى الحديث عن المغتربين الذين ركبوا الازرق الرجراج ، ليعمروا العالم حيثما نزلوه ، ويبنوا للبنان « امبراطورية لا تغيب عنها الشمس ...» ... ان توقهم منذ الفينيقيين الى الفتوحات هو الذي دفع بهم لركوب المخاطر ، واحراز المراكز والمراتب والثروات في كل حدب وصوب ، في رحاب الدنيا .

وجاء دوري ،

لم اكتب خطابي ، ولو كتبته لكان ضاع مع ما ضاع من اوراقي ومؤلفاتي اما بسبب السجون والمحاكمات او بسبب المنافي والفرار ، ولكنني اذكر ، ان اطروحتي كانت بعد شكر صاحب الدعوة ، عن ان اللبنانيين هجروا لبنان وهاجروا لسببين :

اولا : طلبا للرزق لأن لبنان ليس فيه من ثروة الا سماؤه وماؤه ، ولا مجال فيه لذي عزم ان يثري ...

ثانيا : او هربا من الاضطهاد والحروب الداخلية والخارجية وما جرته على لبنان من

مذابح واوبئة ومجاعات !...

وقلت ان آخر ما فكر فيه اللبنانيون ، والسوريون عامة ــ وهم يركبون المخاطر ، هو ان يعمروا البلدان التي نزحوا اليها ، ثم عطفت على هذا القول ، بان اللبنانيين ــ وهم من شعبنا السوري العربي الطموح الذكي ــ ما اغتربوا ليكونوا عالة على البلدان التي استضافوها فاضافتهم ، بل راحوا يكدون ويجتهدون ، فمن تجار يحملون « الكشة » الى صناعيين ، الى مزارعين الى اطباء ومحامين ومهندسين ، الى رجال فكر وسياسة ، عملوا وتفوقوا وكانوا مثالا يحتذى للمواطنين على ارض الوطن نفسه .

ان المغتربين ثروة للوطن يجب ان يرعاها وان يستفيد من طاقاتها وان يستردها الى ديار الآباء والاجداد ...

هز يدي الياس ربابي بعد المأدبة وقال اننا لم نتناقض في ما قلنا ، بل اكمل احدنا الآخر .

دونت هذه الواقعة ، لكي لا اغفل حتى امورا ثانوية كلقاء في مأدبة ، ولكني اشير الى ان نظرتنا الى الأمور ، ومنها إلى الاغتراب والمغتربين ، كانت تتناقض ولا تزال مع نظرة الكتائب وسواهم ممن يقيمون كل شيء بالمقاييس الطائفية او بمقاييس سعيد عقل السياسية الخرقاء المنحرفة !

يوم الشويـــر

ها أنا مرة ثانية في اثينا ــ في بيت ولدي ضياء . مررت لأودع احفادي ووالدتهم ولاصطحب ضياء الى لندن ، ولدي صباح بانتظارنا في العاصمة البريطانية وعاطف قادم للقائنا من كندا . اولادي يخافون علي من عملية استبدال الشرايين اذا احتجت الى عملية . لا يريدونني أن أموت ، رغم انهم لا يحتاجون الي ، بل انا الذي احتاج اليهم بعد ان تعطل قصر العدل ، ونضبت موارد المحامين . يطيب للوالدين ان يروا اولادهم يحيطونهم بكل ما في البنوة من لهفة وحنان ، في ساعات الخطر . بل يطيب للوالدين ان يشعروا ان اولادهم لا يستغنون عن حياتهم بسهولة . تلك هي الحياة دين ووفاء . اخذ وعطاء . عندما تشرف شمسنا على المغيب ، يجب ان يكون اولادنا في موكب الوداع مع شموسهم الساطعة وان لونها الحزن بلون الغمائم !...

ليست اثينا في هذا اليوم ، 27 نوفمبر 1978 ، مثلها في الصيف او حتى نهار امس . شمس الصيف ، وشمس الخريف المطلقة من السحائب ، شمس متوهجة ، تلفك بمثل الحرارة ، المنبعثة من موقدة لطيفة . لا تحرقك ولا تلهبك بل تلفك بالدفء ، الدفء الحنون اللطيف ، الدفء الربيعي الذي تنمو على انفاسه الزهور والورود والاخضرار .

لا اشعر ان الحياة بحاجة الي ، لا في الحزب ولا في العائلة ولا في المحاماة ، ولا في الوطن ... اشعر اني يجب ان اسجل ذكرياتي كل ذكرياتي ، لأني ، اكتب تاريخ حياتي او تاريخ الحزب ، بل لأن في حياة كل مناضل محطات ومقاطع تفيد الناس كل الناس عبرا ودروسا ... ولأن العدالة تقضي الا تظل بعض الاعمال وبعض المواقف مغمورة او مجهولة ، تدفن مع الجثمان في التراب البارد !...

لنعد اذن ، في هذا الجو الخريفي اليوناني المتوسطي ، الى عبد الله قبرصي يتذكر ... ولنتذكر ..

تركت القارىء في يوم بعقلين .

وها أنا اعود لأكتب عن يوم ضهور الشوير في صيف 1946 . خلال هذا العام كان قد تم اتصالنا بالمعلم في الارجنتين عن طريق اميركانيا . كان غسان التويني قد سافر الى هارفرد ، مفوضا عاما للولايات المتحدة ، وكان قد اصبح مركز ارتباط لنا بسعادة ، عدا انه تبادل معه رسائل هامة جدا ، لا نزال نقرأ فيها بعضا من تاريخ الحزب ، وبعضا من شروح لمبادئه وفلسفته بعد ان طبعت في النظام الجديد (طبعة دمشق) .

وجه سعاده بضع رسائل الى المجلس الاعلى ، اذكر ان رئيس المجلس نعمة ثابت لم يطلعنا على احداها ، لأن فيها نقدا لبعض الافكار والمواقف الحزبية التي اتخذناها في غيابه ، ويبدو لي من مراجعة رسائل سعادة ، ان ما ارسل منها الى نعمة ثابت ، وكنت قد اطلعت على اكثره لم ينشر اما لأنه اتلف او لأنه فقد .

المهم ان اجتماع ضهور الشوير في صيف 1946 انعقد تحت شعار : مفاجأة سارة .

كل الرفقاء تقريبا والمواطنين ظنوا ان سعادة وصل الى الوطن سرا وانه سيظهر فجأة في ضهور الشوير ويلقي خطابا .

الشوق الى المعلم كان قد بلغ اعلى ذراه عند القوميين وعند اصدقائهم وعند المعجبين بالحزب وبه . لذلك تنادى الناس الى ضهور الشوير في فندق القاصوف من كل حدب وصوب من آخر حدود الشمال الى آخر حدود الجنوب . والقوميون الاجتماعيون زحفوا بالآلاف يعللون النفس بلقاء قائدهم .

كنت اصطاف في بيت مري . وكانت المواكب تمر عبرها ، او تمر عبر بكفيا او تأتي مباشرة عن طريق قرنايل ــ بزبدين ــ المتين . كنت اخشى ان يعطل الكتائبيون المسيرة في بكفيا ... كنا نعرف انهم يكيدون لنا ايما كيد رغم ان مساعي للتوفيق بيننا كانت تبذل في ذلك الزمان على يد الاستاذ كمال جنبلاط ، سارعت الى بكفيا ووقفت على احدى الشرفات اراقب الزاحفين ... كان منظرهم رائعا . كل « بوسطة » تحمل اضعاف طاقتها . القوميون ــ وقد طلب منهم ان يمروا في بكفيا صامتين لئلا يعتبر هتافهم تحديا واستفزازا ــ ما نفذوا الاوامر بدقة . كانوا يهزجون في قلب بكفيا ويهتفون وقد بحت حناجرهم . لم يعترضهم معترض . الكتائبيون كانوا حكماء في تلك المرحلة على ما يبدو . ليتهم استمروا حكماء !

مشهد المواكب الزاحفة الى ضهور الشوير ، كان بالنسبة لي ولزوجتي التي كانت ترافقني مشهدا مثيرا ، يستمطر الدموع الفرحة . انا عاطفي في الاوقات التي لا مجال

فيها الا لانسياب العاطفة من القلب كانسياب المياه من الينابيع . كان ذلك اليوم عرسا من اعراس الحزب ، تماما كعرسه في بعقلين ... فكيف لا نطير فرحا واعتزازا ...

انطون سعاده ولد في الشوير سنة 1904 في اول آذار . فالشوير بالنسبة لنا ارض مولد المعلم ، ومسقط رأسه ، تأخذنا النشوة ساعة نذكر اسمها ، وهي ايضا مهبط الوحي ، لأنه في عرزاله على مشارف دير مار الياس شويا ، استنبط من اعماق وجدانه ، مبادىء الحزب السوري القومي .

كانت جانبية ضهور الشوير ، في ذلك المهرجان الضخم فعالة ومؤثرة اكثر من اية قرية او مدينة اخرى في الهلال الخصيب !... الا يذكر القراء خطابي في رفقاء الشوير في ايلول 1935 يوم انتدبت بوصفي عميدا للاذاعة لاعرف القوميين بزعيمهم الذي اقسموا له يمين الولاء دون ان يعرفوا شخصه !... الم اقل ان المسلم يحج الى الكعبة ، والمسيحي الى القدس ، اما السوريون القوميون فالى ضهور الشوير ، يحجون !...

ضهور الشوير اذن محجة لنا وارض مقدسة ! لذلك زحفت جموع القوميين وحشودهم بحماس وكثرة عددية هادرة ...

في الضهور اصطف القوميون من الساحة حتى ما بعد فندق القاصوف الكبير . وكان السير مؤمنا والسيارات تصطف في الامكنة المعينة لها دون تفلت او فوضى او صخب !...

كان الرفقاء يلفتون النظر بصفوفهم العسكرية ومشيتهم المنتظمة ، يخترقون الحشود بين التصفيق والهتاف .

الحفلة ابتدأت في الثالثة بعد الظهر . الناس كانت تشرئب اعناقها ، منتظرة المفاجأة . وكانت المفاجأة رسالة من سعادة تليت على الجماهير :

آمنتم بي ... وآمنت بكم ...

ما كان لنا في ضهور الشوير موقف صاخب وخطير كما « في الواقع اللبناني » ... في بعقلين ...

كانت الخطب عادية ، لا اذكر منها الا خطابا لفائز الصائغ الذي كان طلق اللسان الى حد ادهش معه الناس فما صدقوا ان الرجل يرتجل بل يكرر كلمات حفظها مسبقا .

كل شيء بعد هذا المهرجان صار معدا لاستقبال سعاده . كنا ننتظر اشارة منه لنفرح ونهلل .

عودة الى الوراء

كانت مرافقتي لسعادة سنة 1936 في رحلته الى « بلاد العلويين » ، المناسبة الاولى والاخيرة للتعرف الى صافيتا . ما ان فوتحت صيف 1945 بان اتوجه للدفاع عن رفقاء مدعى عليهم بالاعتداء على الشيوعيين حتى قبلت بسرور . ما خلت محكمة من دعوى على رفقائي ، قادة او اعضاء في سوريا الطبيعية كلها ، وكنت في ذلك الزمان المحامي المكلف بتأمين الدفاع عنهم ، فوقفت في حلب واللاذقية وحمص وحماه وطرطوس والشام ودرعا وعمان ارافع وادافع مطالبا لهم البراءة .

الرفقاء توافقوا ان ننزل انا وزوجتي ضيوفا في دار السيد قزما الخوري والد الرفيقين سليمان وشقيقه روبار .. الحقيقة انني منذ ذلك التاريخ لم التق هذه العائلة العزيزة اي لقاء .

ما كانت الرحلة هذه تستحق التسجيل لولا بعض اللحظات المعبرة .

اولا : في المرافعة التي القيتها في المحكمة ، وقد واكبني اليها الرفقاء القوميون الاجتماعيون في شبه تظاهرة ، تجنبت الاثارة والتحريض . كان التخوف من قبل القاضي ومن قبل الحكومة ومن قبل الحياديين من ان ينفجر الخلاف مجددا وان يتصادم المتخاصمون بدءا من قاعة المحاكمة وحتى ساحات صافيتا الفسيحة . لقد قلت ــ كما كررت مرارا في ما بعد ــ ان اي نقطة دم تجري من صدر مواطن ، صديقا كان او خصيما ، تجري من صدورنا نحن القوميين . ان حبنا لشعبنا حب عميق وصاف وشامل وانطلاقا من هذا الحب اخذنا على عاتقنا انقاذه ورحنا نبذل التضحيات والاضاحي دون حساب في سبيله .

وما الحادثة العارضة التي مرت في صافيتا بين المدعى عليهم من رفقائنا القوميين والمدعين من خصومنا الشيوعيين ، الا حادثة دفاع عن النفس لم نكن فيها البادئين بالاعتداء ، بل المبادرين الى رد الاعتداء . من هنا امل في ان تنتهي كل آثارها عندما يصدر فيها حكمكم العادل . وان يخرج المتخاصمون من هذه القاعة واثقين ان احقاق

الحق لا يكون بالانتقام والتحدي ، بل بالتسليم الى القضاء حتى اذا قال كلمته انحنى امامها الجميع احتراما ورضوخا .

وكان من حسن الحظ ان كان محامي الخصوم الاستاذ الفرد حاج من محامي الشمال اللامعين . (صار من بعد رئيسا لمحكمة استئناف الشمال ثم مستشارا في محكمة التمييز) . فقد اجاب على هذا الموقف بموقف رصين مماثل ، حتى اذا خرج الجمهور من السراي ، كان قد خيم عليه جو تهدئة لا جو تفجير .

ثانيا : اتاحت لنا هذه الزيارة التعرف الى الرفقاء قدامى وجدد ، والتحدث اليهم في مختلف المواضيع المطروحة واهمها الرخصة ، وهل اقتضت تنازلات عقائدية ام لا . كان رفقاء الداخل قلقين ان يعني « الحزب القومي » ، اي اسم الحزب الجديد في الرخصة ، تغييرا في العقيدة نفسها .

كنا في ذلك الزمان نحس اننا في الجمهورية الشامية اقوياء واحرار . فاستفضت في شرح الدوافع التي حملتنا على الالحاح في طلب الرخصة والحصول عليها . ان الحزب ، بعد ما حل به من اضطهاد وملاحقات ايام الحرب ، بحاجة قصوى الى محطة يستريح فيها لينطلق من جديد الى القمم . سردت في احاديثي كل الشكوك التي كانت متداولة . وارحت الضمائر القلقة ، كما اعطيت الحجج الدامغة ضد الحركة التي كانت قد نشأت في دمشق يغذيها بعض القياديين مطالبة بانشاء لجنة عليا للجمهورية الشامية ، تستقل في الادارة الحزبية عن المركز وترتبط به شكليا (وكان يقود هذه الحركة خالد مورة لي) .

عندما انتهت المهمة الموكولة الي ، راح الرفقاء يبحثون عن سيارة تقلني مع زوجتي الى طرابلس ، فلم يجدوا . المواصلات لم تكن سهلة كما هي الآن . فاذا بالزميل انذاك ــ الاستاذ الفرد الحاج ــ وكيل الخصوم الذي كان قد استأجر سيارة للذهاب والاياب يعرض عليهم ان نذهب معا في سيارة واحدة . بعضهم رفض والآخرون نصحوا بالقبول . اما انا فاستهوتني البادرة فقبلت شاكرا .

هنا يخطر لي سؤال : لو انني في مرافعتي لم اكن لينا ، ورحت اشن هجوما قاسيا على الشيوعيين ، هل كان بالامكان ان اعود مع محاميهم في سيارة واحدة ؟

ثم هل كان هجومي سليم العواقب ؟

الذين في سياق هذه المذكرات يأخذون علي المرونة والتساهل ورحابة الصدر ، ويطلبون مني ان اكون اكثر عنفا واشد مراسا ، وان اتصلب واقسو ، لهم في هذه الحادثة خير جواب .

بالمرونة والمحبة ، اديت واجب الدفاع عن رفقائي ، كما حلت دون تجدد الاشتباكات

والمشاجرات ، كما اشعت في صافيتا والمنطقة اسلوبا في الكر والفر ، في الصراع العقائدي ، اقل ما يقال فيه ، انه يحل المشاكل ولا يعقدها ، ويفسح في المجال للفكر ان يأخذ ويعطي ، في احترام متبادل بين المختلفين في الرأي او المختلفين في العقيدة .

انا مع مد اليد الى الآخر ، على ان تكون يدا قوية ، مرهوبة ، لا يدا ضعيفة . اني مع العنف الثوري في زمن الثورة فقط . ومع الديبلوماسية الذكية المؤمنة بالحوار والاخذ والعطاء ، في زمن السلم وايام الرخاء .

ثم ان العمل السياسي ليس ليوم ولا لشهر ولا لعام . العمل السياسي متى كان يتناول حياة امة في وحدتها ونهضتها عمل طويل النفس ، لا يمكن لمن يتنكبونه ان يرتجلوا او يتسرعوا او يهدموا كل الجسور بينهم وبين الآخرين ....

ها ان حزبنا مع الرفقاء المخاصمين لنا في العقيدة قد انتهى الى تحالف جبهوي قد يطول اعواما وقد يستمر بلا حدود .

انني اعتبر ان تفكيري في حفظ خط الرجعة مع رجال العقائد مهما كانت الفواصل بينها وبين عقيدتنا واضحة هو التفكير الذي يسود الآن ، والذي قيض لنا ان نلتقي في الخندق الواحد مع الكثيرين منهم . للتصلب والتطرف مكان وللحوار الاخوي والاحترام المتبادل مكان وقد يكون الاكثر نضجا والاكثر ثمرا . في بلادنا اكثر من اي بلاد في العالم هذا السلوك يجب ان يكون قاعدة التعامل بين الاحزاب .

قبيل العودة

كان الحزب قد التقط انفاسه ، منذ الاستقلال وعودتنا الى الحرية والمهرجانات الشعبية التي عقدنا والرخصة التي حصلنا عليها باسم « الحزب القومي » لم يحدث بيننا وبين السلطة الحاكمة اي صدام . سياسيا ، لم نكن على علاقة حسنة الا مع المحتاجين الى اصواتنا الانتخابية كل من صادقنا من الذين كنا نسميهم « العروبيين » و « المتلبننين » صادقنا بحذر .. كنا ولا نزال نخيف الناس داخلا وخارجا ، لأننا المثاليون الذين لا يتنازلون في سبيل المنافع السياسية او المادية مهما بلغت ، عن عقيدتهم ومناقبهم . الاقطاع السياسي والاقطاع الطائفي والاقطاع الديني ، وكل الاقطاعيين ، مهما توثقت بيننا وبينهم العلاقات ، كانوا يجاملوننا ونجاملهم ، كانوا يعرفون ان مبادئنا تتناقض مع وجودهم ومع نفوذهم . كانوا يدركون ــ ولو بالغرائز ــ ان التناقض معهم قائم وان الحرب بيننا وبينهم حرب فاصلة ، فاما نحن وتقدميتنا وثوريتنا واما هم ورجعيتهم ومنافعهم الخصوصية جاها وثراء وسلطانا ...

داخل الحزب كان هناك خطان ، الخط اللين السياسي والدبلوماسي ، والخط المتصلب العقائدي الصراعي . لم تكن الخيوط التي تفصل الخطين واضحة ، الا ان الاشخاص كانوا واضحين .. نعمة ثابت ومأمون اياس واسد الاشقر وفؤاد ابو عجرم وفايز صائغ وعبد الله سعادة واديب قدورة وغسان التويني وعبد الله قبرصي من الخط اللين ، من الخط السياسي ، من الخط الذي كان يضع في رأس اهدافه ابقاء الحزب في حالة هدنة مع السلطات الحاكمة ومع اصحاب النفوذ والسلطان ، فيعوض عن سني الضغط والملاحقات والاضطهاد ، فيشتد ساعده وتتراخى قبضة مضطهديه ومخاصميه والمتوجسين منه خيفة وحذرا والمتربصين به شرا وسوءاً .

من ضمن هذا الخط اللين ، كانت لنا لقاءات مع الست نظيرة جنبلاط ومع صهرها الفقيد حكمت جنبلاط ، ثم مع الاستاذ كمال جنبلاط نفسه الذي جمعنا في احدى الامسيات في بيت المحامي الشيخ موريس الجميل في فرن الشباك ، مع الشيخ بيار

وجوزيف شادر وكنت انا ونعمة ثابت وفؤاد ابو عجرم واسد الاشقر نمثل الحزب . ومن ضمن هذا الخط نفسه كانت علاقاتنا قد تحسنت مع جبرائيل المر وهنري فرعون وحميد فرنجية .. كنا بعد السجون والاعتقالات قد وجدنا سبيلا لانشاء علاقات ولو شخصية مع سامي الصلح وعبد الحميد كرامي وعمر بيهم ومع رياض الصلح نفسه بواسطة اديب قدورة . كان عهد بشارة الخوري عهد تعامل مع رئاسة الجمهورية بكثير من الانفتاح ...

عقائديا لم تكن داخل الحزب اية تساؤلات جماعية عن المضمون الفلسفي لنظريات فايز صائغ بل لا اذكر ان تساؤلات فردية حدثت . لم يصل الى المجلس الاعلى اي اعتراض او اي دراسة تشير الى تناقض فايز صائغ مع فلسفتنا الاجتماعية او حتى مع نظامنا . بل ان « الواقع اللبناني » الذي يشكل نوعا من « لبننة » الحزب لم يلفت نظر الا عميد الاذاعة آنذاك كريم عزقول وعميد المالية جبران جريج والمتصلبين كعجاج المهتار وجورج عبد المسيح وقلة اخرى ، وقد كتب بعضهم الى سعادة للارجنتين يلفته الى الانحراف العقائدي في ذلك الخطاب الذي القاه نعمة ثابت في مهرجان بعقلين . كما لا استبعد ان يكون عبد المسيح قد اثار حوله بعض الهمس بدوافع لا تخلو من العامل الشخصي . وكانت قد حصلت مشادة لا اذكر وقائعها بالضبط بين نعمة ثابت ومعروف صعب ادت الى ان يقدم معروف شكوى الى المجلس الاعلى الذي كان يرأسه نعمة . فاستدعي الدكتور عبد الله سعادة الذي كان قد اسس مستشفى في طرابلس ــ المينا وبدأ نجمه يلمع كجراح بارع ، ليرأس جلسة المجلس التي خصصت للاستماع الى الشكوى وكان موضوعها تفرد نعمة ثابت وخروجه على الدستور والعقيدة . وقد انتهت الجلسة الى تفاهم وتصاف لا الى حكم بالادانة او التبرئة . الطريقة اللبنانية في معالجة الخلافات حتى المبدئية منها . انتقلت بالعدوى الى مؤسساتنا القيادية . من المستحيل ان يتخلص الانسان الجديد من الانسان العتيق الذي يلازمه في جلده الا بطول المران ومجاهدة النفس .

الخلاصة اننا لم نكن باحسن حال . الا ان الاستقرار كان طابع المرحلة . لم يكن بد بنظري من فترة هدنة طويلة لاعداد القوميين الاجتماعيين لتحمل اي صراع يستجد . ومهما يكن الامر فان نظامنا المركزي الصارم كان يحمي القيادة ــ ويحميها حتى اليوم ــ مما يمكن ان ترتكب من اخطاء ... ونعرف ان سعادة قرر العودة بناء على توصيات المجلس الاعلى التي ابلغها اليه نعمة ثابت برسالة خاصة .

ونعرف بعد حين ان السفارة اللبنانية في الارجنتين رفضت تسليمه جواز سفر

لبناني ... اي تجديد جواز سفره ..

راجعنا حميد فرنجية وهنري فرعون ثم توجهت انا ونعمة ثابت وفؤاد ابي عجرم الى القصر الجمهوري لمقابلة الرئيس بشارة الخوري ، كان الجميع في موقف التريث لا الرفض . ولكننا كنا نستشف من بين الكلمات المرنة ان الحكومة ليست متحمسة للعودة بل على العكس ترغب في ارجائها الى ابعد حد ممكن ... لم يكن رياض الصلح مطمئنا لعودة المعلم ، لقد سمعنا انه كان يوجس منه خيفة على نفوذه في الشارع المحمدي .

هنري فرعون ثم حميد فرنجية قالا لنا ان انطون سعادة هو لبناني ، لا يستطيع احد منعه من الاياب الى وطنه ، ولكنه من الافضل ان يرجَأ ايابه الى ظروف اكثر ملائمة . كانت الحكومة تخشى القائد المثالي الذي لا يهادن ولا يساوم ولا يسلك طريق المرونة الا عند الضرورة القصوى .

وبينما الحكومة اللبنانية تتدارس ، ونحن نراجع علمنا ان الزعيم انتقل الى البرازيل حيث كان الاستاذ يوسف السودا سفيرا للبنان ، وانه تسلم من القنصلية جوازا باسم انطون سعادة مجاعص ،وسينتقل الى القاهرة في القريب العاجل . يوسف السودا احد كبار المحامين ومن مؤسسي المدرسة اللبنانية كان لبنانيا واسع الثقافة والصدر يؤمن بالفكر ويقدره ...

اجتمع المجلس الاعلى وقرر ايفاد نعمة ثابت وفايز صائغ الى العاصمة المصرية للاتفاق على برنامج الاستقبال وخطاب الزعامة والموقف العام .

وبالفعل توجه الرئيس والعميد الى العاصمة المصرية وتلاقيا مع الزعيم ثم عادا يحملان الينا بشرى اللقاء ، ولكن يخشيان من عواقب خطاب العودة الذي كان سعادة قد اطلعهما على بعض خطوطه العريضة ...

اذن سيعود ... سيعود الرجل الذي ولدنا على يده من جديد . الرجل الذي غادر الوطن ليتصل بالمغتربين وبعالم الحضارة الغربية حيثما امكن ، فاذا بالحرب تداهمه فيضطر الى البقاء في الارجنتين حوالى التسعة اعوام ونيف ، لينشىء جريدة الزوبعة فيحررها ويطبعها ويوزعها وحده ، او بمعونة بعض المتطوعين من الرفقاء .. الرجل الذي اضطر ان يقود الحزب حيثما استطاع الاتصال ، فكتب الرسائل الى اميركا الشمالية (فخري المعلوف ــ غسان التويني) والى البرازيل الامين بحليس (منيارة ــ عكار) والى سواه من المسؤولين والرفقاء ، كما كان يراسل الفروع في الارجنتين واضعا بعض القواعد للعمل الاداري والسياسي (مراجعة رسالته الى صلاح الدين الايوبي ، في فلنت مشيغن) . كما اضطر ليكسب اوده واود عائلته هو الزعيم المؤسس

ان يفتح محلا تجاريا يبيع فيه الورق ويسلم الطلبيات بنفسه على دراجة هوائية ! ....

الرجل الذي اراد وصمم وعمل على بعث الامة السورية ، لتبعث بدورها هذا العالم العربي الذي دمره الاستعمار العثماني والاستعمار الغربي .

الرجل ... الذي يكاد يقتلنا الشوق للقائه ، للاشتراك معه في الكفاح والجهاد ، والعمل المضني ، للمسير بالحزب الى اعلى قمم المجد .

عودة القائد

حدد موعد العودة في 2 أذار 1947 ، في الطائرة القادمة من مصر ... وزفت البشرى الى السوريين القوميين والى اهلهم واصدقائهم في كل مكان وجدت فيه فروع للحزب في الوطن وعبر الحدود وبنيا العروبة . في كل بيت بل في كل قلب كان للفرحة الكبرى مهرجان : القائد البطل ، المعلم ، عائد .. انه عائد حقا .. لم نكن نتصور خلال سنوات الحرب انه سيبقى على قيد الحياة في منفاه فنحن نعرف ما دبر ضده من مؤامرات ، لتصفيته معنويا او جسديا . في لبنان وحيثما حل او نزل . ثم لم نكن نتصور اننا سنقطع مرحلة المخاطر والمحاذير مرحلة الحرب العظمى ، ونبقى احياء ، فقد كان اعداؤنا يصورونا عملاء للنازية والفاشية ، فكيف يذهب هتلر وموسوليني ويبقى من بعدهما « العملاء الخونة » ؟؟؟ .... يا للتاريخ كم يسجل من مظالم انزلت بنا فقاومناها وانتصرنا عليها .... والبرهان اننا ما نزال في الميدان بثياب الميدان . وتمت المعجزة وبقي القائد حيا وسلم الجنود من الأعدام والاغتيال او الموت جوعا او مرضا او تعذيبا ؟! ...

وتمت المعجزة الاخرى : المعلم بلحمه ودمه يعود ليظهر على أرض لبنان الذي احبه ، الذي فيه ولد وفيه ترعرع ، وعلى ترابه الخير استنزل مبادىء وتعاليم ونظام حزبه : الحزب السوري القومي .. الاجتماعي .

لم ينم أحدنا من الفرح تلك الليلة السعيدة من ليالي الحزب ، من ليالي القوميين وعائلاتهم واصدقائهم ، الذين ملأوا بيروت قبل طلوع الفجر ، والذين كانوا فيها او في ضواحيها ، وهبطوها مع تباشير الصباح .. لم ينم احد منا ذلك الليل الطويل ... ليل انتظار فتى الربيع ، وكأنه قادم من وراء حدود الحياة .. كانه مولود من جديد او قائم من بين الأموات بعد صلبه ...

لم تكن هنالك الرملة البيضاء ، ولا كانت البنايات المحيطة بالجامعة العربية ولا الجامعة العربية كانت . محل مدينة العمران والبنايات الفخمة الحالية كانت صحراء

الرمال الفسيحة . والرمال الفسيحة احتلتها الحشود القادمة من كل مكان ... لقد غطت الجموع رمل بيروت تتزاحم وتتدافع .... ومن ذلك اليوم المشهود اخذ الناس امثولة ما نسوها ولن ينسوها : الحزب السوري القومي حزب النظام والقوة وحزب الصمود . ذلك الرمل الفسيح وقد تغطى بالنا س ينتظرون بلهفة الابناء الغيورين ، عودة الأب الغيور ، الراعي الصالح ، ضبطت مداخله ، فاذا القوميون حاجز طويل ، يتماسكون بالأيدي لكي تبقى الطريق الى المطار حرة . والحرس المكلفون بالصيانة يطوفون بسياراتهم المكشوفة كل المنافذ ، ينطلقون كالسهم يعودون كالسهم ليقدموا التقرير الى عميد التدريب جورج عبد المسيح . للحصول على الرخصة ، حذفنا الحربية والدفاع لنضع التدريب او الرياضة ، لكي نظل في نطاق التعابير التي لا تمس النظام العام Ordre Public ولا تخيف اجهزة الحكم . لكي يعطي النظام ترخيصا لحزب ، يجب ان يضمن اولا ان هذا الحزب سيكون له لا عليه !

نحن رجال المجلس الأعلى وقفنا مقابل مكان هبوط الطائرة : نعمة تابت في الوسط وفؤاد ابي عجرم على يمينه وانا على يمين فؤاد ابي عجرم .

لم يسجل حادث واحد مخل بالأمن . الدولة كانت تراقب من بعيد وتحتاط . لقد رسمت لنا خطة سيرنا وفرضت علينا الا نتخطاها ، ما سمح لنا ان نمر بساحة البرج ولا باب ادريس .

كان رجالها في أمكنة لا تفسح في المجال لأي احتكاك بهم . القوميون في يومهم الاغر شديدو الحساسية . اي اشارة او غمزة من السلطة أو من الخصوم قد تجرهم الى خوض معركة . الحماس بالغ اشده . ما احلاه هذا الحماس الايماني عندما يظل في أطار التعقل والحكمة فلا ينفلش فوضى أو غضبا هداما ! ....

الطائرة صارت في أجواء المطار ، تهبط بتؤدة ، الأعين مسمرة عليها . القلوب تخفق . الأعناق لا تحمل الرؤوس المشدودة الى فوق تواكب المحركات في الهبوط الهادىء المزمجر ! ... كلما اقتربت من الأرض كنا نشعر ان قلوبنا وضمائرنا اقتربت من السماء .

وصلت الطائرة وعليها القائد القاوقجي هكذا قيل لنا همسا . ظن القاوقجي ان الاستقبال له . الا انه سرعان ما عرف ان الاستقبال لقائد جيش القوميين الاجتماعيين ، لا لقائد جيش الانقاذ الذي لم تمده الدول المعنية بمستلزمات القتال ، ومع ذلك قدم من الشهداء والتضحيات ما يمكن قراءته تفصيلا في مذكرات

القاوقجي ! ....

لقد ناب قاسم حاطوم عنا في الصعود الى باب الطائرة لاستقبال سعادة .... الذي نزل منها واتجه صوب صفنا . ونحن كل في مكانه لا نتحرك .. نملك انفسنا ونتحكم بأعصابنا . البرنامج يفرض ان نتسمر في مكاننا فتسمرنا . لقد كنت اشعر بضغط لا يقاوم ان انسحب من الصف واهجم على الطائرة وأعانق المعلم اول المعانقين . ولكنه النظام .. وقد سلم النظام وضبطت اعصابي ...

المعلم بدأ بكبيرنا ثم بالأدنى ثم وصل الي . لا يمكن ان تزول من ذاكرتي تلك اللحظة . دموع الفرح والتأثر في عيني القائد . وجهه مليء بالدم القاني يكاد ينفر من عروقه يحملني، يرفعني ، يعانقني :: عبد الله ... حبيبي عبد الله . كم أنا مشتاق اليك ! ... هل يملك الانسان نفسه ، الزعيم في عينيه دموع .... فماذا في عيون الجنود غير دموع الفرح المكبوتة اذا لم تترقرق على الوجنات والأعناق ؟! ..

خرج القاوقجي ومن معه . وكل ركاب الطائرة نقلوا دون ازعاج او انزعاج . ثم تحركنا يتقدمنا المعلم الى الخارج . ما ان اطل حتى بدأ الهتاف ... والتصفيق . من يستطيع وقف السيل الجارف ؟ القوميون استطاعوا . بقي الممر حرا ولكن وراء سعادة دبت الفوضى . انا مثلا لم استطع الا بما يشبه الاعجاز ان اظل حيث يجب ان اكون . اعضاء المجلس الاعلى ورئيسه تمكنوا من البقاء حول المعلم أما انا فجرفني التيار بعيدا وراءه ! ....

مشهد وكلمة يظلان في رأسي محفورين حفرا من يوم اللقاء البهيج : المشهد رياض طه الفتى القومي الاجتماعي المؤمن الملتهب انذاك ونقيب الصحافة حاليا يوزع مجلة كان قد بدأ باصدارها في تلك السن المبكرة .وكلمة لي في تلك المجلة ، سعادة مجموعة عبقريات . من يبحث عن هذه المجلة كالمنقب الامين جبران جريح او الرفيق جان دايه يجدها حتما .

وسعادة يمشي يتؤدة ..... يبتسم للناس ، محييا يمينا ويسارا . والتصفيق والهتاف يستمران . وامامه فرقة الشوير الموسيقية ولاعبو السيف والترس ! ....

لقد سبق واقمنا مهرجانات ، وصفناها في حينه ، باكثر ما يكون من الدقة . أما هذا المهرجان فلم يسبق له مثيل . كان في تاريخ الحزب الأول في العدد والتنظيم . العدد والتنظيم المضافان الى العفوية . فالناس جاءت هرولة ، ركضت الى رمل بيروت مندفعة

بصورة جنونية لمشاهدة القائد العائد .... اجل الشعب احب سعادة حتى الجنون ، حتى العبادة ، وقد مضى الآن على استشهاده ثلاثون عاما والشعب وفي لقائده وفاء قائده له .

رحت القي نظرة على البوسطات والسيارات .لا تحصى (قدرتها الصحف بألف سيارة) . على الناس كالنمل مشرورون في طول ذلك الرمل وعرضه في يوم الثاني من اذار وشمسه المتألقة كأنها شمس كل صيف وكل ربيع صاف ! ....

وركب سعادة والمسؤولون سياراتهم الى بيت مأمون اياس في الغبيره .. كان بيت مأمون في الطابق الأول من بناية لها شرفة طويلة تطل على فسحة مشجرة بالصنوبر . الفسحة ليست باتساع رمل بيروت ، لذلك ما أمها الا القوميون والمقربون ... فيما تفرقت جموع الاصدقاء كل من حيث اتى .

في بيت مأمون اياس كان يجب ان نكون نحن اعضاء المجلس الاعلى والعمد مع سعاده عن يمينه وعن يساره . اختلط الحابل بالنابل . انا مثلا لم استطع ان اجد لي مكانا فبقيت في صالة المنزل .

تكلم فايز صائغ عميد الاذاعة مرحبا بالمعلم باسم الحزب . ثم تكلم سعاده فقال :

« **أيها القوميون الاجتماعيون :**

ان هذا اليوم هو اسعد يوم رأيته في حياتي حتى اليوم اذ أعود بعد نحو تسع سنوات اغتراب عنكم ، لانضم الى هذه الجموع النامية ، التي تمثل أمة ابت ان يكون قبر التاريخ محلا لها في الحياة .. بعد خمس عشرة سنة من جهاد نظامي عز نظيره في العالم كله نقف اليوم امة حية حرة منتصرة ، منتصرة على الارادات الاجنبية التي ارادت ان تبقيها ممزقة بين الطوائف والمذاهب الدينية التي مرجعها سماء واحدة ، اتت تعاليمنا القومية دينا جديدا واحدا موحدا ليرفع هذه الأمة اليها ، الى الخلود فيها .

اليوم تخفق اعلام لنا وليس الى جانبها اعلام اجنبية محتلة تخفق . واذا كانت اعلامنا هي وحدها تخفق اليوم فيعود الفضل في ذلك الى تعاليمكم ، الى ايمانكم ، الى عملكم والى جهادكم الموحد . نحن اليوم في حالة استقلال لا نظن انه الحد الأخير لتقدمنا في الحياة ، هو خطوة من هذه الخطوات التي تبتدئها هذه الأمة العظيمة الجبارة ، وهي خطوة هامة اعود فأقول ان الفضل في اتخاذها يعود الى عملكم وجهادكم المنظم .

انتم لستم كالفئات الاخرى التي جاهدت وعملت جهادا اعتباطيا متنافرا بعضه مع بعض ، ولم يكن عملكم في الساعة الهينة من تاريخ هذا الاستقلال . ان عملكم لم يكن انتهازيا ، لم يكن تحت حماية الحراب البريطانية كما انه في الماضي لم يكن تحت حماية الحراب الألمانية أو الروسية أو غيرها .

انتم ناضلتم عن هذه الأمة وحيدين وانقذتم شرف الأمة وحيدين ، يوم كان رجالكم قائدو النهضة في السجون مكبلين ولكن رؤوسهم ظلت مرتفعة وارادتهم ثابتة وعزيمتهم صادقة لا يحنون هاما ولا يتراجعون قيد شعرة عن المطالب العليا التي وقفنا النفس عليها . وانتم كنتم أمل الأمة الصادق ، لم تتخلوا عن قيادتكم لا يوم كانت في السجون ولا يوم كانت وتكون في ساحة الجهاد ، في ساحة القتال الفعلي كلما دعت الحاجة الى ذلك في وحدتكم وجهادكم المنفرد ، حين كانت ترتفع من فئات الأمة الأخرى اصوات تمدح الأجنبي وتحمده وتعلم الشعب ان يحني هامه لمدافعه وطياراته وحرابه ، انقذتم شرف الأمة ! أن موقفكم في ذلك الوقت العصيب هو موقف الأمة لا غيره .

هذه هي أعظم حقيقة لهذا الاستقلال ، لهذه الخطوة الأولى التي نقول ان خطوات اخرى ستعقبها الى ان تنال الأمة الأمل الاخير الذي ترمي اليه .

ان من انتصاراتكم ايضا انتصاركم على جميع الاشاعات التي اوعز الأجنبي المحتل بها وجارته نفوس مريضة في هذا الشعب . اليوم وقبل اليوم وفي كل ساعة من وجودكم يعرف الملأ انكم لستم ، كما اشاع الأجنبي واشاع الذين تبعوا الأجنبي ، اعداء للبنان والكيان اللبناني الذي يريده الشعب اللبناني .

ان عملكم القومي كان أصدق تعبير عن ارادة الأمة في لبنان وفي الشام وفي فلسطين وفي شرقي الأردن وفي ما بين النهرين .

الكيان اللبناني ... وما هو الكيان اللبناني ؟ أهو قالب من حديد يوضع فيه الفكر في لبنان لكي يضمحل في نفسه ، أم هو دائرة ضمان لينطلق الفكر منها يعمم الاخاء في الأمة ، يعمم الأتحاد ، ويوحد الصفوف ، ويجمع الأمة كلها على مستقبل لا نحيد عنه قيد شعرة .

ماذا يريد اللبنانيون من كيانهم ؟ ان يكون فيه النور وان يكون ما حوله محاطا بالظلمة ؟ ان يكون فيه النور وان يكون ما حوله محاطا بالظلمة ؟ اذا كان في لبنان نور فحق هذا النور ان يمتد في سورية الطبيعية كلها .

أنرضى نحن في لبنـــان أن يكون عندنا نور وان لا يشترك في هذا النور جميع أبناء أمتنا ؟ كلا ! هذا هو الكيان اللبناني وهذا هو التعبير الصادق عما في النفس اللبنانية من سمو ومن مرام خطيرة ، تدل على نفس خطيرة جبارة . كل ما سوى ذلك هو باطل لا يمثل لبنان ولا يمثل ارادة الشعب اللبناني على الاطلاق .

ان الكيان اللبناني هو وقف على ارادة الشعب اللبناني . وقد اثبت الحزب في جميع مواقفه انه يضع ارادة الشعب فوق كل اعتبار في هذا الصدد . وان تعاون الحزب مع الحكومات اللبنانية في جميع ما يتعلق بمسائل السيادة ، حتى حين لا يكون راضيا عن سياستها الداخلية ، لهو دليل قاطع على ان الحزب لا يريد ان يفرض على الشعب البناني شيئا فرضا .

وكان انتصاركم ايضا على اشاعة اخرى باطلة ، وهي ان القوميين الاجتماعيين هم اعداء العرب والعروبة . اذا كان في العالم عروبة حقيقية صميمة فهي عروبة الحزب القومي الأجتماعي .

ما هي هذه الجامعة العربية التي تمثل العالم العربي اليوم ؟ أهي فكرة العروبيين الخياليين الوهميين الذين يريدون امبراطورية عربية ووحدة قومية عربية ؟ ام هي تطبيق ما نادى به حزبكم من ايجاد جبهة من الامم العربية تكون سدا ضد المطامع الأجنبية الاستعمارية ، وقوة يكون لها وزن في اقرار المسائل السياسة الكبرى وتكون الوسيلة الفعالة لتحقيق ارادات هذه الأمم كلها . الجامعة العربية اليوم هي تحقيق ما نادى به الحزب القومي الاجتماعي ، فكنا نحن اصحاب العروبة الحقيقية وكان غيرنا اصحاب العروبة الباطلة . وبعد فنحن جبهة العالم العربي ونحن صدره ونحن سيفه ونحن ترسه .

اننا قد انتصرنا على الدولة المحتلة في هذا الجزء ، انتصرنا على احتلالها العسكري ، وانتصرنا ايضا على ما هو ادهى من مدافعها وسلاحها الناري ، على جميع الاباطيل ، التي رمت الى تنفير الشعب من قضية الشعب . كم مرة سمعتم ما رمي الحزب القومي الأجتماعي به من عمل لمصالح دول اجنبية . فقد عينوا لكم هذه الدول بالضبط فقالوا انها ايطاليا وانها المانيا وانهما مشتركان . وكان في هذه البلاد احتلال لهاتين الدولتين ، احتلال بمعاهدة مع فرنسا : وكانت لجنتاهما في هذه البلاد ــ فهل تدخلت هاتان اللجنتان في مصير اركان الحزب القومي الاجتماعي المسجونين من قبل الدولة المتعاقدة مع المانيا وايطاليا ؟ ما كان شيء من هذا قط ! انكم انتم الفئة الوحيدة التي

عملت بارادة الأمة وحدها غير مستندة الى حراب الأجنبي من اي نوع . وها صفوف الأمة التي كانت مبعدة عنكم بالدعايات الفاسدة تدرك اليوم هده الحقيقة ، وانها معكم ، لأنكم انتم تنقذون شرفها في احرج المواقف .

ايها القوميون الأجتماعيون :

أريد ان امثل لكم ، تمثيلا يشبه الحقيقة ، حالة الاستقلال الذي نحن فيه . أريد ان اخاطبكم بتشابيه السجن . واذا لم يكن كثيرون منكم قد دخلوا السجون ليعرفوا التشابيه التي أوردهـا فلعل الكثيريـن منكم قد عرفوا شيئا بالسماع .

في حالة الاستقلال الحاضرة خرجت الامة من « القواويش » التي كانت فيها . خرجت الامة من الحبوس في داخل البناية التي اعدها لها الاستعمار ، ولكنها حتى الآن لا تزال ضمن السور الكبير الذي يحيط ببنايات السجن . نحن الآن خارج القواويش ولكننا لا نزال ضمن السور . الابواب مفتوحة ، التي الى الداخل ، أما التي الى الخارج فلا يزال عليها السجانون وهم منا في الغالب .

هذ هي حالة الاستقلال التي نحن فيها ، غيرنا يريد ان يبتهج بها ، غيرنا يريد ان يكون كالطفل في يوم العيد قد أتوا له بثياب مزركشة ازرارها لامعة ، بعضها بشكل قائد قوى جيوش البر ، وبعضها بشكل امير بحر ، وبعضها بشكل قائد طيران ، ولكنها بالحقيقة البسة ليس الا . غيرنا يريد للأمة هذا المصير . اما نحن فلا تخدعنا الظواهر ولن نقصد في الحياة لعبا .

ايها القوميون الأجتماعيون :

ان جهادنا يستمر ، ويجب ان تذكروا دائما ان فلسطين السورية ان هذا الجناح الجنوبي ، مهدد تهديدا خطرا جدا . ان ارادة القوميين الاجتماعيين هي انقاذ فلسطين من المطامع اليهودية ومشتركاتها .

ولعلكم ستسمعون من سيقول لكم ان في انقاذ فلسطين حيفا على لبنان واللبنانيين وامرا لا دخل للبنانيين فيه . ان انقاذ فلسطين هو امر لبناني في الصميم . ان الخطر اليهودي على فلسطين هو خطر على سورية كلها . هو خطر على جميع هذه الكيانات .

واعود فأقول أن هذه الكيانات يجب ان لا تكون حبوسا للأمة بل معاقل تتحصن فيها الأمة وتتحفز للوثوب منها على الطامعين في حقوقها .

ان كلمتي اليكم ايها القوميون الاجتماعيون هي العودة الى ساحة الجهاد .

ايها القوميون الأجتماعيون :

كنت اود ان يتسع الوقت لأصافح كلا منكم ، كل واحد بمفرده وأتعرف اليه ، ولكن الوقت ضيق . وهذا الوقت لا يكفي . ولكن عزيمتي اليوم ، كما كانت في الماضي ، ان اقصد مناطقكم وازوركم فيها » .

ماذا كان يمكن ان يقول القائد الا هذه الكلمات القيادية ؟ قال لي نعمة تابت معلقا والزعيم لا يزال يخطب : « قل لجورجيت (زوجتي) ان تهيء لك فرشة جديدة .. فنحن ذاهبون الى السجن . هذا الخطاب اعلان حرب ستجيب الدولة عليه ، باعلان حرب » لم يخطىء نعمة ثابت في تقديره ولكنه اخطأ في خوفه . في مجال اعتزازنا بعودة سعادة ما كان يجوز ان نخاف ولو قادنا خطابه كلنا الى الموت ، لأننا انقذنا شرف الأمة ، حسب كلماته اما هو فقدانقذ عقيدة الحزب وهيبته .

لأول مرة اخذ فيلم للمهرجان . اعتقد ان هذا الفيلم محفوظ ، فقد عرض منذ سنتين في سينما كليمنصو ولم يتسن لي ان احضره (عرض اخيرا بحضور الرئيس عبد الله سعادة واعضاء لجنة الطوارىء في سينما ساروﻻ) .

اشرف سعادة بنفسه عليه ، فقد دعاني انا ونعمة تابت ومأمون اياس وفايز صائغ وعبد المسيح وبعض القادة الى قاعة على طريق النهر حيث عرض الفيلم في احدى الصالات واستمعنا الى صوت فايز صائغ يواكب مشاهد الفيلم . وقد وضع سعادة ملاحظاته عليه . اين هذا الفيلم الآن ؟ انه في حوزة السلطة الحزبية المختصة . يوما من الأيام سيعتمد هذا الفيلم كنقطة انطلاق لتكوين عرض سينمائي لحياة انطون سعادة من المهد الى اللحد . ظهر ذلك اليوم اقام نعمة نعمة تابت حفلة غداء في قصره كما اقام الامين فؤاد ابي عجرم مساء حفلة عشاء في داره احتفالا بعودة المعلم ، حضرها فضلا عن اركان الحزب ، عدد من أصدقاء الامين فؤاد . وقد كان سعادة يتألق في احاديثه وانسانيته .
ما كنا نحن وحدنا فرحين ، كان المعلم فرحا بلقائنا تماما كما يفرح الأب العائد من غربة طويلة باولاده البررة .

القيت ذلك المساء خطابا قصيرا حماسيا فاذا بسعادة يقترب مني ليهمس في انني : « لا تزال يا عبد الله خطيبا فياضا ونارياً ، احفظ كلمات سعادة لانها شهادات — اوسمة . ما كان يحب الأطراء فاذا قال لنا كلمة تقدير كنا نطير بها فرحا كأنها هدية

عيد الميلاد تهدى للاولاد وهم لا ينتظرونها . الهدية ـ المفاجأة افضل الهدايا .

ابرز ، ما في خطاب العودة ـ واترك تحليله للمؤرخين ـ هو اعلانه الاسم الجديد للحزب (الحزب السوري القومي الاجتماعي) . واعلان توضيح الحدود الشرقية للأمة بحيث تضم ما بين النهرين اي العراق التي كان التساؤل يدور حولها بأستمرار والتي بحثناها في السجن الأول وتحدثنا عن سوراقيا ... سوريا ـ العراق ! .... كما كتب سعاده حولها نقاط انطلاق .

لم يكن التأكيد على مجتمعية الحزب بالأمر المستغرب .

انه تأكيد لقناعة وردت خطوطها في كتاب نشوء الامم وفي شرح المبادىء والتعاليم . اما الذي أحدث فهو ما سمي بتعديل الحدود وادخال العراق في الوطن السوري . انا نفسي شهدت الرفقاء يصفقون بحماس لعبارة « بين النهرين » كما كنت أصفق مأخوذا .... فلما عدت الى صوابي ، رحت اتساءل : هل يجوز لسعاده منفردا ان يعدل حدود الأمة .. لقد اقسمنا يمين الولاء للوطن ، فهل يكون هذا الوطن قابلا للتضييق أو التوسيع حسب رغبة الزعيم ؟ الا انني ما وقعت في الضياع ولا في المبالغة .. كان يمكن ان اقع لو سلخ سعاده عن جسم الوطن قطعة ، فليس في الأمر غرابة ولا تجاوز خاصة وان الحدود اوضحت واقعا ثبتت صحته تاريخيا وجغرافيا بادلة قاطعة سردها سعاده في المحاضرات العشر . فيما بعد . جئت المعلم معترضا : هل يجوز التعديل ؟

شرح سعاده اولا الوضع من الناحية الدستورية ولأول مرة سمعت منه : انا جمعية تأسيسية دائمة .

استهولت العبارة في البداية ، وعندما دخلنا في التفاصيل رضخت . سعاده هو صاحب السلطة التشريعية والسلطة التشريعية لا تتجزأ ، فهي تشمل حق التشريع وحق تعديل التشريع . ان سعاده لم يغتصب صلاحياته . نحن سلمنا بها واوكلنا اليه تجسيد وتمثيل الارادة القومية العامة عندما اقسمنا على الخضوع للدستور ...

ثم دخل سعاده في العمق ، اذ اثبت بالنصوص كيف انه وضح الحدود الشرقية ولم يعدلها .. هنا ، تذكرت كلمات الدكتور جميل ابو خاطر ، الذي لفتني منذ سنة 1940 الى ان العراق داخل ضمن حدود الأمة السورية ..

كان القوميون مستعدين ، في لحظات استقبال سعاده والاصغاء الى خطابه ان يهاجموا جيشا مدججا بالسلاح وهم عزل ، فالرجل كان ذا نفوذ روحي على الرفقاء

والشعب لا يقاوم وقد جاء خطابه في بلاغته وعمقه وحسمه ليعطيهم الدليل انه القائد الذي يحق بل يطيب لهم ان يطيعوه لأنه لا يتكلم كلاما عاديا . ان في بلاغته وقوة تغبيره وشخصيته لمثل السحر لا يملك سامعه الا ان ينحني امامه مقتنعا ولنقل راضخاً .

تخوف نعمة تابت كان في محله . ما ان استكملنا ترتيبات ما بعد الاستقبال ، واستأجرنا منزلا في زقاق البلاط ليقيم فيه سعاده حتى جاءتنا اخبار السوء . قرر مجلس الوزراء ملاحقة الزعيم . التهم جاهزة . فمنذ الفرنسيين ــ وحتى يومنا هذا ــ « نحن اعداء الكيان اللبناني ، نثير النعرات الطائفية (صدق او لا تصدق) في كل ما نعمل وما نقول » ... وصدرت مذكرة التوقيف او الاحضار . ولكن قبل ارسالها للتنفيذ وصل الينا الانذار . في لحظات كان سعاده يختفي ، مصدرا اوامره لاعداد فرقة من المسلحين لحراسته في تحركاته . لقد قرر العصيان على الحكومة . لقد الهب القوميين بالخطاب التاريخي ، فليلهبهم اكثر بالموقف التاريخي !

لقد لمسنا جو العداء لسعاده عند مراجعتنا القصر الجمهوري ووزارة الخارجية مطالبين باعطائه تأشيرة العودة . ذكرت سابقا ان الرسميين ما كانوا متحمسين لعودته ويفضلون ارجاءها . كانوا يخشــون ما وقع ويتوقعونه . لم يكن هينا على مؤسس الحزب ان يسلم قيادة حزبه السياسية الى اشخاص تعبوا من النضال واسلسوا الانقياد للحاكمين طمعا بالراحة والاستقرار . من هنا نفهم سرعة تحرك السلطة لاحباط الاثر الضخم الذي تركه استقبال سعاده في نفوس الناس ، والذي سرت اخباره كالبرق في جميع انحاء لبنان والوطن السوري والعالم العربي والمغتربات . كما نفهم قول نعمة تابت لي والزعيم يلقي خطابه في الغبيري : « قل لجورجيت ان تهيء لك فرشة السجن ... » .

ولكن استقراء الاحداث التي وقعت فيما بعد ، وربطها بعودة سعاده يحملنا على الجزم ، ان عوامل ودوافع مركبة كانت وراء اصدار مذكرة التوقيف (الاحضار) . ان رياض الصلح ــ بطل الوحدة السورية في الماضي ــ هو مهندس ميثاق سنة 1943 ــ الميثاق الطائفي ــ الذي كرس لبنان دولة للطوائف والملل . فكيف يقبل ان ينبري له على الساحة اللبنانية والسورية والعربية رجل مسيحي اسمه انطون سعاده فيزايد عليه بالوحدة السورية ؟ ... الا يسحب من بين يديه دفعة واحدة اكثرية المحمديين السنة

بدءا من البسطة وانتهاء بالشام ؟ ... بمنظاره الفردي قيم وثبة سعاده العقائدية وبمنظاره الفردي ــ عدا الضغوطات الخارجية ــ قيم موقف سعاده القومي ....

وبشارة الخوري ، الذي كان يعد العدة لانتخابات تسهل له التجديد لرئاسة الجمهورية ، كيف يرضى بان يتحداه « ارثوذكسي » اسمه انطون سعاده فلا يعترف ببطولته ولا باستقلال لبنان وقد يعطل مشاريع التجديد او التمديد ؟ ....

ومناصرو رياض الصلح وبشارة الخوري ــ والـكتائب قبل الجميع ــ كيف يرتضون ظهور عبقري من وزن انطون سعاده ، يقود الشعب في طريق التقدم ، ناقضا كل مفاهيم الانسان العتيق ليبني على انقاضها مفاهيم الانسان الجديد . لقد دجنوا بعض قادة الحزب السوري القومي فصار الحزب القومي . لقد لبننوه فعاد سعاده يصوب ويدقق .

« واسرائيل » التي كانت تنتظر قرار التقسيم ، وتقوم بكل اعمال العنف بالتواطؤ مع الانكليز ، للانقضاض في ساعة الصفر على حيفا ويافا وعكا ، من اين اتاها هذا المارد الذي يبشر منذ ثلاثين سنة وما قبل بوجوب التصدي للصهاينة لاحبـاط مؤامراتهم ! .

قد لا يكون خطر في بال الحكومة اللبنانية ــ من كل هذه العناصر ــ الا عنصر واحد : مواجهة استقبال سعاده الشعبي الباهر بضربة حاسمة تزيل اثاره وترعب الحزب اذ ترهبه ! ... او عنصر اخر هو مفاوضة سعاده وهو في القفص بلوغا لاكبر كمية من التنازلات ولاخضاع عنفوانه لرغبات الحكومة ومشاريعها الانتخابيـة التجديدية فيصبح نعمة تابت آخر ! ...

هل قصد رياض الصلح وبشارة الخوري قصدا اخر اهم وادهى ؟ قد يكونان قصدا : شق الحزب : ألفصل بين سعاده وبين نعمة تابت . الحزب الذي طغى يوم الاستقبال بتلاحم صفوفه والتفافه حول زعيمه يبرز بعد ايام ، في حالة غليان انشقاقي .. لا استبعد صحة هذا التقدير ، واني ارى ان له ما يبرره في تسلسل ما جرى ، من الالف الى الياء .

المهم ان سعاده توارى بعد وصوله بايام قلائل . كنا قد عقدنا معه اجتماعا في عاليه ، كمجلس اعلى ، لمناقشة بعض المواضيع ... لم تبحث اية تفاصيل . جرى عرض عام للاوضاع الحزبية وللوضع السياسي .

بعد قليل من الوقت صدر قرار بحل المجلس الاعلى لعدم دستوريته . بقيت انا وحدي رئيسا صوريا للمجلس لاننا كنا قد رفعنا لوزارة الداخلية ، في غاية الحصول على علم وخبر « بالحزب القومي »، نظاما ينص على ان رئيس المجلس يمثل الحزب لدى الحكومة ويكون مسؤولا امامها ... لم يكن بالامكان ابلاغ الحكومة قرار حل المجلس ، خوفا على العلم والخبر . لنستوقف القارىء لحظة لنقول له : انطون سعاده مؤسس الحزب وزعيمه وقائده الفعلي ، لم يذكر له اسم في الرخصة لذلك ظلت الحكومة تخاطب الحزب بشخصي . انها احدى المفارقات التي واجهناها في حياتنا النضالية . لنبشر بالمباديء والتعاليم ، بسورية للسوريين والسوريون امة تامة ، وقانوننا الاساسي المدون في سجلات وزارة الداخلية شيء آخر . هذه احدى نتائج تجاهل الحريات العامة ، ومنها حرية التنظيم الحزبي العقائدي . الدستور اللبناني يكرس الحرية ، وقانون الجمعيات العثماني الصادر سنة 1909 يكاد ان يلغيها الغاء تاما . رحم الله الشهيد القائد كمال جنبلاط ، الذي تجرأ وحده 1970 وكرس حقنا وحق الشيوعيين وحق البعثيين بالعمل الحزبي العلني ! ...

فعليا اصبحت قيادة الحزب في يد سعاده . كان يتحرك وينشط معه فايز صائغ ، وجورج عبد المسيح ، وعبد الله محسن وجبران جريج وانيس فاخوري ومحمد راشد اللادقي وابراهيم يموت وفؤاد ابو عجرم واديب قدورة . وبدأ اسم وديع الاشقر يصعد رويدا رويدا . بقيت انا احتفظ بنشاطي المهني ، مساعدا في الشأن السياسي ، بصورة غير رسمية في البداية .

في الايام الاولى بعد صدور مذكرة التوقيف ، تبلبل الموقف ، بدأت معركة داخلية خفية . نعمة ثابت ومأمون اياس كانا قد ارتبطا بتعهدات سياسية مع شمعون ورياض الصلح وبشارة الخوري لم يكن بالامكان التخلص منها . كانا قد خططا لمرحلة استقرار ، لزواج وشهر عسل طويل . كل الخطط سقطت بما فيها مشاريع الزواج وشهر العسل . بدأت ابواب السجون تتحرك وتصرصر من جديد لتلتهم القوميين الاجتماعيين المرشحين باستمرار للشقاء ... والسجون .

الصدمة كانت عنيفة كانت هزة وزلزالا. ليس هينا ان يعود سعاده بعد غياب تسع سنوات ،ويستقبل استقبالا تاريخيا لا مثيل له في المظاهرات الشعبية في لبنان ، وان يشعر القوميون انهم بلغوا الاوج ، ثم فجأة ينهار كل شيء .

انا نفسي رحت الملم اذيال الخيبة . شعرت ان راياتنا نكست بسرعة . اصبت بما

يشبه الذهول . الفرق بيننا وبين سعاده ، او بالاحرى احد الفروقات الهائلة بيننا وبينه ، اننا كنا غير مدربين وغير مجربين . نعلو بشطحة قلم ونهبط باخرى . لم تتفولذ ارادتنا ولا اعصابنا تفولذت بعد . لماذا ارتعبنا ؟ لماذا اصبنا بنفس الضربة التي اصابتنا يوم انكشاف الحزب . كدنا آنذاك ان نرتعد خوفا . والان نعود الى الارتعاد . ما كانت حتى ذلك التاريخ قد تبلورت ثورتنا . او انها كانت قد ابتليت بالتعب ، واستنفدتها السجون والمعتقلات والمشارد فلم يعد لها طاقة على الاحتمال . الثوريون الاصليون يجب ان يكونوا في حالة تأهب دائم . الثوري لا يخاف ولا يرتعب . انه الصلابة والصمود .... والقدرة الدائمة اليقظة لمواجهة كل المخاطر .

الزعيم توارى . ونحن توارينا بانتظار ما سيحدث . سعاده راح يستنفر الرجال ليقاوم ، ونحن رحنا نستنفر ما تبقى لنا من قوة ، لنواجه بها الصدمة الجديدة . لا استغرب ولا الوم . كنا نحن القياديين في الحزب نخرج من المعتقلات والمشارد ، من عذاب روحي اليم طوال خمس سنوات . كنا نخطط لفترة نقاهة طويلة . الرخصة التي حصلنا عليها بنفود كميل شمعون افسحت لنا في المجال لنأمل ان عهد الملاحقات والاضطهاد ولى الى غير رجعة . وان الذين خسروا اما متاجرهم واما مكاتبهم واما وظائفهم سيعودون الى ترميم ما تدمر . نعمة تابت ومأنون اياس كانا يخططان كما سبق لزواج او لسفر او لعمل شخصي منتج ومدر ارباحا وجاها . جاء سعاده فقضى على كل هذه الامال . لاح من جديد شبح الملاحقات والاضطهاد . اكفهر الجو وتلبد بالغيوم الدكناء . عاودتنا الاحلام المزعجة . نحن اولا واخيرا من الناس . نصاب بفترات ضعف وتراخ . اما سعاده ــ رغم انه تزوج في المغتربات ورزق ابنتين ــ فكان عائدا بنفسية الثائر . كان عائدا من ضنى الغربة ، بشعور الاسد الذي كان سجينا في قفص ــ رغم طول المغتربات وعرضها ــ افلت منه لينطلق مزمجرا في دنياه الواسعة . كان لديه الحس الرسولي . اما نحن فكان لنا بعض هذا الحس لا كله . كنا بحاجة الى القائد لينقذنا من جديد من تهاويل العيش وتهاويل الخوف ... ومن سبات اللين والتراخي .... والاطمئنان الى نوايا الخصوم ! ....

المحاصيل الاولى لمذكرة التوقيف

دعك من البلبلة التي اصابتنا كأنما عدنا الى النضال من اوله . ودعك من الزلزال . سعاده العائد بدأ منذ لقاءاته مع نعمة تابت وفايز صايغ في القاهرة وكأنه يخطط لهجوم ، لتحديات . ما جاء لعمليات انكفاء او لعميات تغطية او لعمليات تمويه .

اعلن النفير العام . شعر القوميون الاجتماعيون ان فترة الراحة ، والتحالف مع السلطة ، دفنت في قبر الماضي ، فاذا بهم يهبون من كل حدب وصوب . الكل يطمعون بشرف حراسة الزعيم ومرافقته . الكل يطمعون بشرف الاستشهاد الى جانبه . هو يرد ما فاض عن العدد المطلوب ، وهم يعاندون . لو كان لديه سلاح ومال ، لكان المتطوعون حوله يعدون بالمئات .لقد اعاد الى النفوس الثقة به وبالقضية وبالنفس كما اعاد اليها العزيمة المتحفزة . ان موقف المعلم ، ثقته بنفسه ، تحديه للسلطة ، انقذ كل مواقفنا السابقة . وطد هيبة الزعامة وصلاحياتها . عاد انطون سعاده وكأنما هو كل الحزب . اعاد الى الحزب فروسيته وبأسه ... وقدرته .

ولان لكل شيء ثمنا كان ثمن مذكرة التوقيف ان برز الحزب من جديد في الصفحات الاولى في الصحف في لبنان والعالم العربي ، وبعض العالم . تصدرت اخباره نشرات الاخبار في الاذاعات . رجعنا الى ايام انكشاف الحزب زمن الانتداب . كنا بحاجة الى اعلام ودعاية . مذكرة التوقيف واخبار تحركات سعاده في الجبل ، كانت المفتاح . وكالات الاخبار تطاردنا لتقصي اخباره . المراسلون الاجانب يريدون مواعيد لمقابلات صحفية . المخبرون والمعقبون ورؤساء التحرير في جرائدنا اليومية ومجلاتنا الاسبوعية يسعون لسبق صحفي ، في خبر ، في مقابلة ، في لقاء مع سعاده ...

ان تجربتي الحزبية ، وقد بدأت منذ سنة 1934، اثبتت لي بما لا يقبل الجدل ولا الشك ان حزبنا يترهل في الرخاء وينمو ويشتد ساعدا في الصراع ، في العراك ، في العذاب والالم . لقد كدنا بين سنة 1944 و 1947 نترهل ونسترخي ونستسلم ، فاذا بوقفة سعاده التاريخية يوم 2 آذار 1947 ، وهي وقفة درسها ، وامعن فيها النظر ، لانه ما كان يرتجل المواقف ولا يرتجل الخطب ، فقد ادرك ان هزة زلزالية للحزب ستعيده الى صوابه ، ستعيده الى حقيقته ، ستصلب اعصابه ، وستطرحه من جديد ، حزب الصدام والتحدي في طول الامة وعرضها .

المحاصيل الاولى لمذكرة التوقيف ان الحزب استعاد نفسه ، بعد ان كادت تضيع نفسه والهوية في خضم السياسة اللبنانية الغريبة العجيبة !

انيس فاخوري

كأن ما كفانا شهداء ، يسقطون برصاص الغدر والظلم والعدوان ، على سائر الجبهات ، حتى يتآمر علينا القدر مع اعداء الامة والانسان ، فاذا السيارات عدونا الاخر قتلت في ما مضى رئيس المجلس الاعلى القائد المناضل الامين فؤاد ابو عجرم ، وتقتل تباعا مدى اشهر امينين اخرين ، من قيادييننا البررة ، هما الامين كامل ابو كامل والامين انيس فاخوري ، الذي قضى اثر حادث سيارة في آخر الاسبوع قبل المنصرم ! ...

لم اكن في الوطن يوم مات الامين كامل ابو كامل فما تسنى لي ان اذرف دمعة على قبره ولا ان اكتب كلمة في تأبينه ، الا ان صورة وجهه الوديع الصافي ، وتاريخ نضاله الطويل ، لا تبرح خيالي ، بل اني اشعر كلما استحضرت هذه الصورة ان نوعا من البركة يحل علي ، فالرجل كان تجسيدا للاخاء والمحبة للقضية ولرفقائه . كما كان في مطلع حياته احد قادة حزبنا ، متى طلبناه وجدناه ، في الايام الصعبة او الايام السهلة . اما الامين انيس فاخوري ، فهو صورة اخرى لرحابة الصدر والوفاء ، والى ذلك فهو من كبار كتابنا ومفكرينا ، فعندما كان لسبب من الاسباب لا يعمل في الادارة ، كان يوجه مداركه وذهنه وثقافته لاغناء تراثنا الفكري بالمؤلفات الثمينة .

لقد كان اول المستوعبين بيننا للمدرجية كنظرة فلسفية للحياة ــ وكتب فيها باشراف الزعيم نفسه صفحات مشرقات .

كما كان من نوي الخيال الواسع والبصيرة النافذة ، فقد تكشف له بالتأمل والتصور والاختراق ، وجه سوريانا بعد خمسة وعشرين عاما من تسلمنا الاحكام فيها . الحالمون احيانا يصنعون التاريخ ... حلموا احلاما كبيرة فحولوها الى حقائق كبيرة . لقد كان انيس فاخوري في مخطوطته التي لم تنشر بعد عن سوريا بعد خمسة وعشرين عاما ــ يحلم كيف ان هذا الوطن الجميل سيصبح لو تحققت النهضة القومية الاجتماعية قدوة للاوطان ومثالا ... بل فردوس الله على الارض ، رقيا وازدهارا ونظاما ونظافة واخلاقا .

اما كتابه عن التوراة واليهود ، فهو على نمط كتاب الاديب جورج كنعان والاديب اليازجي ورفيقنا فيصل النفوري دحض صارخ معزز بالايات والتحليل العلمي لكل افتراءات اليهود وكل ادعاءاتهم ومزاعمهم في ارض الميعاد ، واثبات مدوبان توراتهم قد نسخت وعطلت بالانجيل المقدس الذي نسميه العهد الجديد وان المسيحية هي ضد اعادة اي حكم زمني لليهود على ارض فلسطين .

لقد تعب النضال من انيس فاخوري وما تعب . ففي كل الميادين ، وفي كل الحقول ، وفي كل مكان من الوطن امه او اقام فيه ، كان العامل الصامت ، كان القلب الكبير المتدفق خيرا ، والعقل الهادىء المرن المبدع ، كما كان اليد السخية والنفس الابية .

القامة الفارعة والجسم الممتلىء ــ قامة جبار وجسم جبار ، كانت تحمل ــ مع صلابتها وايمانها وعطائهانفس طفل . لقد كان انيس فاخوري في طهارته البالغة حد الملائكية ، طفلا جبارا . اجل هذا الذي استحق ان يكون نائبا للزعيم فترة من الزمن بين سنة 1936 ــ 1937 كان طفلا جبارا وبالوقت نفسه مناضلا وعالما واديبا . ما رأيته يضحك الا نادرا . ظروفنا العصيبة ، الملاحقات المستمرة ، الاستشهاد المستمر ، ما كانت تفسح لنا في المجال ان نضحك كثيرا وان كان من حقنا ان نضحك لنجد القوة على حمل صليبنا المضني ونسير في درب الجلجلة التي لا نزال عليها نسير . لقد رأيته غالبا يبكي .

بكى انيس فاخوري وهو يشهق عندما حدثت المعجزة وتمت وحدة الحزب بعد انقسامه المحزن ، بكى دون ان يستطيع ايقاف دموعه المتدفقة عفوا لانه كان عطشانا الى الوحدة ، فكان حدوثها يوم عرس في نفسه ، يوم لقاء مع امانية واشواقه !

بكى انيس فاخوري في اجتماع الامناء المركزيين وهو يستجيرهم ، يتوسل اليهم ، ان ينهوا حالة الانشقاق ، ويستعيدوا تلاحم الصفوف المثالي ، الذي كان طابعنا وكنا فيه القدوة الحية للاحزاب والامم ! ..

وبكى انيس فاخوري على كل رفيق وشهيد ، عرفه ام لم يعرفه . كما بكى على الذين كان يعرفهم بكاء مرا . بعيني شاهدته يشهق في مقبرة الشهداء في حرش بيروت على قبر مناضلنا التاريخي زكريا اللبابيدي الذي كان علينا ــ لو ان دستورنا يسمح ــ بان نمنحه رتبة الامانة بعد الوفاة !

اجل تعبيرا عن فرحه كان انيس فاخوري يبكي ، وتعبيرا عن المه وحزنه وفجيعته

كان يبكي ... الرجل كان بحرا من الدموع لا ينضب !

ونحن الذين رافقناه منذ الفجر ، منذ طلعت تباشيره في النهضة ، شابا وكهلا ، ماذا نستطيع ان نعمل ونحن نتذكره ... هل نبكي ؟

لو كانت لنا عيناه ، لو كانت لنا عفويته ، لو كانت لنا براءته ، لكان من حقه علينا ان نبكيه مدرارا ....

الا اننا في هذه الايام القاسية ، هذه الايام التي تحول فيها قلب الانسان الى حجر ، التي تفرض علينا ان نظل بلباس الميدان ، مدرعين اليقظة والصبر والشجاعة والوضوح ، لا يمكننا ان نضعف ولا ان نلين حتى امام فقد اعز رفقائنا وامنائنا البررة .

اننا نقف صامتين خاشعين يدنا على الزناد لمقاتلة اعداء الامة والانسان ، اليهود وعملائهم ، اولئك الذين كرس انيس فاخوري جزءا كبيرا من حياته ليقاتلهم بالفكر واللسان ، سواء بمحاضراته ومؤلفاته او في النضال تحت راية الزوبعة الحمراء ، في كل ساحة وميدان .

هناك حقيقة تكاد تكون ازلية ، ان فكر بعض الناس ــ مثل الامين انيس فاخوري ــ لا يقدر ولا ينتشر الا بعد موته . وان صوت الموتى اقوى من صوت الاحياء وافعل وان كلمتهم نافذة وهم وراء حدود الحياة من كلمتهم وهم في ساحاتها الفسيحة .

لقد اهدانا الامين انيس فاخوري كتابه « نسف الاضاليل مرحلة اساسية في ازالة اسرائيل » في مطالع السبعينات ، وكان مخطوطة ، فقرأناه ودرسناه ، واثنينا عليه وباركناه ثم نسيناه . والان بعد وفاة الامين العزيز انيس ، وبعد ان استمعنا الى محاضرة الدكتور حسني حداد في ندوة الخريجين العرب في بيروت وهو يشدد على ان العطف الاميركي المسيحي على اليهود انطلاقا من التوراة ، هو شريك في القرار السياسي بتأييدهم وتبنيهم من قبل اميركا ، نشعر كيف ان رفيقنا الكبير قدم مساهمة ثمينة لاعلامنا والاعلام العربي بوجه عام ، لدحض افتراءات الصهاينة واكاذيبهم واضاليلهم ، بانهم شعب الله المختار ، فيها يثبت هو انهم الشعب المرذول الملعون الذي فتحت له ابواب الخلاص فلم يلجها ، واثر ان يبقى في الجمود والظلمة .

اليك يا امين انيس ، وانت الان وراء حدود الحياة ، تقديرنا لك ومحبتنا لك ولوعتنا

على فراقك ، بانتظار ان يفهم الناس حزبنا اكثر ويفهموك بالتالي اكثر ، فتصبح افكارك وآراؤك الطعام الدسم على مائدة الاعلام العربي في حربنا الاعلامية ضد « اسرائيل » ، هنا في لبنان اولا ، ثم في العالم الغربي الذي فرض علينا « اسرائيل » ظلما وعدوانا .

اليك ايها الامين العهد الذي نكرر : لن نلقي السلاح الا مع اخر شهقة حية ، كما فعلت .

انتخابات ... 1947

كان سعادة في رسالته من مغتربيه يلح ويستعجل تدبير امر عودته الى لبنان لانه كان يعرف ان معركة الانتخابات وشيكة . في سنة 1937 عرف كيف يتخذ موقفا سياسيا . وفي سنة 1943 عرفنا ونحن في المعتقل كيف نوجه رفقاءنا في الخارج لنجعل بشارة الخوري مديونا لنا بنجاحه في الجبل .

وها هو موسم الانتخابات مقبل . موعدها في 25 ايار 1947 . المنافسة السياسية كانت على اشدها بين السلطان سليم (شقيق رئيس الجمهورية) وبين رئيس الوزراء رياض الصلح . في الصحافة ، في الدوائر ، في القرى والدساكر والاحياء ، كان السلطان يجد سبيلا لنكرزة رئيس الوزراء واستفزازه . كان السلطان يريد بالاتفاق مع اخيه رئيس الجمهورية مجلس نواب طيعا ، يكسر نهائيا نفوذ الاديين ، ويطوب رئاسة الجمهورية للحزب الدستوري ، حزب ال الخوري . رئيس الجمهورية والسلطان سليم كانا ظاهرا يختلفان لان الشيخ بشارة الذي اراد الانتخابات معبرا للتجديد كان يخشى من غضب رياض الصلح ، لان لا تجديد بدون رضاه ، رياض الصلح كان السني القادر على تحريك المشاعر الوطنية والطائفية المحمدية اكثر من اي اخر في بيروت . الا ان الشيخ بشارة الخوري لم يأخذه بالملاينة والمسايرة والدبلوماسية على طريقته الجزويتية فحسب ، بل اراد ان يرهبه بالسلطان سليم وان يرغبه بابقائه الى جانبه وتطمينه الى ان « السلطان » سليم لن يخرج على ارادته مهما شبط ولبط .

سعادة منذ اللحظة الاولى ، وبعد اتصالات في العمق ، قرر ان يستغل الخلاف الصلحي ـ السليمي . فاذا بفريد الصباغ بما لمسه سعادة فيه من خبرة ودهاء في السياسة اللبنانية وكلف بان يقيم علاقات مع السلطان سليم باسم الحزب . واذا لائحة الجبل تضم اثنين من رفقائنا احدهما المحامي الرفيق سليم حتي (شملان) .

كان سعادة قد انتقل الى ضهور الشوير وتمركز في بيت فريد الصباغ الذي كان مستشاره في الشؤون السياسية اللبنانية ومن بيت فريد راح يشرف على فبركة الليستات

في كل المناطق حتى لكأنه خبير انتخابات ما غادر لبنان يوما واحدا بل تصرف ـ وعدد اصوات القوميين يومذاك لم يكن عديدا ـ وكأنه مركز الثقل وصاحب القوة المرجحة في المعركة .

جاء ـ بحضوري ـ انا ايضا من مستشاريه السياسيين ـ لاستاذان اميل لحود وبهيج تقي الدين المرشحون كانوا يتهافتون على الضهور ، من الشمال والجنوب والبقاع ، من بيروت والجبل . وسعادة يستقبل الناس كأن لا مذكرة توقيف بحقه ولا من يحزنون . ولذلك سهلت مرور الاستاذين اللذين كانا من اركان الخوريين في الجبل . وبعد ان عرضا الوضع الانتخابي ومطاليبهما من الحزب ، قال لهما سعادة « يا استاذ اميل يا استاذ بهيج : ضعوا اوراقكم على الطاولة ، لا تخفوا عني شيئا . مع الماكر انا امكر الماكرين ومع الصادق انا اصدق الصادقين . هذه المعركة سنخوضها معا ولكن بشرط ان نستهدف في حال النجاح صيانة الحريات العامة وخاصة حرية الحزب في التحرك والعمل ، دون حسيب او رقيب . ثم لا بد لنا من مرشحين حزبيين على اللائحة التي سنؤيدها .

طبعا لا اذكر جوابهما ، ولكني اذكر ان الاتفاق تم على خوض المعركة معا .

كنت مكلفا ان ادير المعركة الانتخابية في بيروت ، وان اؤيد لائحة عبد الحميد كرامي ـ بيهم ـ فيليب تامر . اذكر عبد الحميد كرامي لانه كان قائد المعارضة في العاصمة ... كان قد بدأ منذ استقالته من رئاسة الوزراء حملة شعواء مركزة ضد الشيخ بشارة والسلطان سليم . وهو يقصد ، من اقامته في بيروت ، وتحالفه مع ال بيهم والعائلات البيروتية المخاصمة لرياض الصلح ، ان ينال من نفوذ هذا الاخير وان يثبت له ، ان نفوذه ليس طرابلسيا ـ شماليا فحسب ، بل انه قادر على مقارعته في عقر داره على الساحة البيروتية بالذات .

كيف تم اللقاء بين كرامي وفيليب تامر ؟ بواسطة الوزير السابق فيليب بولس الذي استماله الافندي بسبب نفوذه الكبير على اصوات المحمديين في الكورة ، من دده الى بتوارتيج ومن القويطع الى برغون وبدبهون ..

وفيليب تامر لم يلعب في السابق دورا سياسيا ، ولا هو خبير انتخابات . ابن عمه فوزي عازار تعهد بقيادة معركته لصلته الوثيقة بكثير من المفاتيح الانتخابية ولعلاقاته الجيدة بالاحزاب والشخصيات السياسية المعروفة ولمكانته الاقتصادية البارزة .

تم الاتصال بالحزب عن طريقي . وكنت انقل يوميا اخبار المفاوضات وما تيسر عندي من معلومات الى الزعيم في معقله الشويري .

انا ومحمد راشد اللادقي كنا نعقد اجتماعاتنا الانتخابية في بيت عمر بك بيهم في بارك سباق الخيل ، على مقربة من دار السفارة الفرنسية . لا يزال صوت عمر بك بيهم ــ بلهجته البيروتية الاصيلة ــ يرن في مسامعي . ثورة في اوساط الارستقراطية على عهد بشارة الخوري والسلطان سليم والعائلة والبطانة . اخبار الرشوات والسرقات والمداخلات وصرف النفوذ تنشر على صنوبر بيروت قولا وفعلا يجب انزال الشيخ باي ثمن . كان عبد الحميد كرامي يصرح امامي ان كل علبة سجائر لاكي سترايك يدخنها المستهلك اللبناني توفر لآل الخوري دخلا يعادل عشرة قروش سورية ! ...

قيل في ما يعني لائحة صبري حمادة في البقاع ، ان صفقة تمت في القصر ، بتدخل الرئيس الخوري نفسه ، اذ دفع بحضوره الى صبري بك في ذلك الزمان اربعماية الف ليرة لبنانية لقبول احد المرشحين على لائحته لا اذكر بالضبط اسم الذي دفع .

هكذا الانتخابات في لبنان : بيع وشراء . كان الحزب ــ بنظر المثاليين ــ بغنى عن خوضها ، الا ان الحزب لا يمكن ان يصبح تيارا شعبيا كاسحا ، ان ينزل الى صميم الشعب ، ان يتفهم حاجاته ، وكذلك امراضه ، الا اذا عاش في صفوفه ، اذا اشترك في كل تحركاته ونشاطاته بوجه خاص في معركة انتخابية في طول لبنان وعرضه ، لا يمكن ولا يجوز تجاهلها او تجاهل اهميتها وآثارها على كل صعيد ، داخلي او خارجي .

مع السلطان سليم في الجبل : لانه معارض لرياض الصلح . مع آل بيهم وفيليب تامر في بيروت : لانهم معارضون لرياض الصلح ايضا .

اذن نحن في المعارضة ، في الجبهة التي اخذت على عاتقها عن طريق الشعب ان تسقط طغيان العائلة الخورية . شئنا ام ابينا ، لا يمكننا تبرئة الرئيس الشيخ بشارة الخوري من كل المداخلات والصفقات التي جرت في عهده وباسمه . الروائح الكريهة لا تنتشر في زاوية وتتوقف عند اخرى . انها تملأ الجو بدءا من السلطان سليم وانتهاء بالشيخ خليل الذي كان قد اطل على السياسة فجمع في سنة واحدة على ذمة « الافندي» ستة ملايين ل.ل.

وقرر سعادة ، بعد المفاوضات ، ان يتسلم الحزب ادارة المعركة في بيروت باسم المرشح فيليب تامر ، وكان علي انا المسؤول عن الانتخابات في بيروت ، ان اتسلم هذه

الادارة ..

لم اكن غبيا في السياسة اللبنانية ولا في العمليات الانتخابية . والقوميون ـ قيادة واعضاء ـ لم يكونوا بلا خبرة . يقاتلون جيدا ويديرون دفة السياسة جيدا ايضا .

طبعا كنا ندرك المخاطر . ولكن متى اخافتنا المخاطر ؟ ...

ورحت اتخذ التدابير لتنفيذ القرار . كان مساعدي الاول الامين انذاك محمد راشد اللادقي ، الخبير والبصير ، الذي شغل مسؤولية عميد الداخلية مدة من الزمن .

اتخذت من بيت الامين آنذاك اديب قدورة مركزا لاركان الحرب الانتخابية . جهزناه بكل الوسائل . الانتخابات تتطلب عصبا اسمه المال وعصبا آخر اسمه العضلات والسيارات . كما تتطلب يقظة دائمة واحتياطا لكل الطوارىء والمشاكل وهي احيانا لا تعد ولا تحصى ! ...

اثناء ليل 24ـ25 ايار كان كل شيء معدا بدقة واحكام . السيارات ، مراقبو الاقتراع ، والتعليمات مطبوعة ... ما كان ينقصنا الا الانطلاق .

باكرا صباح 25 انطلقت الفرق . تسلم كل مسؤول المواد الضرورية . وبت مع اربعة او خمسة من الرفقاء ننتظر التقارير عن سير التعليمات . ولدينا كل الوسائل للتحرك . كنت مفوضا باتخاذ اي قرار مهما كان خطيرا حتى اللجوء الى العنف اذا اقتضى الامر .

لم تمر اكثر من ساعة حتى كانت فرق مخفر حبيش ترسل موفدا ، يصعد الدرج لاهثا ، ويكاد يتمزق غيظا ويعلن لنا بصوت متهدج : القبضايات يسيطرون على المخفر . يرمون لائحة الحكومة في الصناديق دون حسيب ولا رقيب . الحكومة مصممة على كسب المعركة بالعنف او التزوير.رؤساء اقلام الاقتراع والشرطة ، يمنعون انصار المعارضة من دخول القاعة . المراقبون ينسحبون احتجاجا . المعركة بدأت باكرا وانتهت باكرا . الساعة العاشرة صباحا كانت المعارضة قد اعلنت انسحابها منها .

ما دقت الساعة العاشرة والنصف حتى كانت وفود الرفقاء تملأ المنزل والدرج والطريق العام في شارع المكحول . صخب وصياح وهياج . ما كان احد يتحسب لمواجهة التزوير والعنف العلنيين . لم يكن احد يتوقع ان يشترك رياض الصلح في خطة من هذا النوع . هل اخذ على حين غفلة . من الصعب التصديق ! ... لو كتب رياض الصلح مذكراته لكان بالامكان اصدار حكم بحيثيات دقيقة ..

طلبت من الرفقاء والانصار ضبط الاعصاب وسارعت الى حيث كان الرئيس عبد الحميد كرامي واركان المعارضة يجتمعون ليقرروا كيف يردون على التحدي . انا نفسي كنت قد جهزت سيارتين واحدة تتوجه الى مخفر مار ميخائيل على طريق النهر ، تقتحمه وتحطم الصناديق ، واخرى تقتحم مخفر حبيش وتقوم بنفس العملية . في ذهني صورة لرفيق متقاعد كان على رأس العملية هو بشير الهنا . اسريت في اذن الرئيس كرامي انني سأضرب . ليس من مجال لتسجيل موقف ضد الطغيان الا الهجوم المسلح على اقلام الاقتراع ، مهما تكن النتائج . هب عبد الحميد : ارجوك ، يا عبد الله ، ما بدنا دم . ما بدنا ضحايا . سنعالج الامر باساليب اخرى .

كدت اجن . ما هي الاساليب الاخرى الا التسليم بالامر الواقع ! ...

قررت ان اخالف . ان اتمرد . ان اتفرد . ولكني عدت الى نفسي اخيرا . لماذا يكون الحزب وحده دائما كبش المحرقة ! ...

عدت اعرض على المعارضة ان تضرب هي قلم مار مخايل على طريق النهر فاضرب انا قلم اقتراع مخفر حبيش . اتفقنا مع المتطرفين . ارسلت من يتابع عملية مخفر مار ميخائيل . لم يحدث شيء خلال ساعة . اجهضت الخطة . عدنا الى التسليم بالامر الواقع . لم اكن قادرا على تحمل مسؤولية ايلاع النار وانا لا املك اية وسيلة لاكمل . ليس لدى المعارضة كلها خطة عمل لمواجهة التزوير الشامل . كان همي الاوحد الا تكون الضربة الاولى من الحزب للحكومة لكي يتلقى وحده الضربة الاخيرة ! ...

جمعت الرفقاء والانصار في صالات بيت قدورة . وخطبت فيهم . احدهم بشير الهنا مزق ثيابه ، حلش شعره . كان الكثيرون يبكون . لماذا لا ندفعهم الى العنف ، يريدون ان يضربوا . ان يفجروا لجمتهم . كان خطابي فيهم تبريرا وتحذيرا لوقف العملية التي كنت قررتها فما سهلت لي المعارضة تنفيذها . وتحذيرا من ان نضرب وحدنا فنضرب وحدنا في نهاية المطاف !

دون ان اسأل احدا قصدت عند التاسعة مساء من نفس النهار دار آل تامر . كانوا قد سلموني دفعة اولى قدرها عشرة آلاف ل.ل. . وزعت منها قسما واحتفظت بالباقي للطوارىء . رد الرفقاء الامانات بعد ان قدم لي بعضهم حسابا بما انفق . بلغ مجموع الانفاق 1700 ل.ل. على وجه التقريب . ترتب بذمتي الباقي وقدره 8300 ل.ل. حملت

المبلغ الذي كنت احتفظ به في مكان امين ورحت اقدم الحساب . سلمت ما كان في جيبي دون ان اعده سابقا . حسبه السيد فوزي تامر فاذا به 7600 ل.ل. كان الناقص سبعمائة ل.ل. . دارت بي الدنيا . من مد يده الى المال ؟ لا يمكن . مستحيل .

قلت للسيد تامر : غدا الساعة الثامنة صباحا احمل ما تبقى . انا مسؤول عنه . طبعا قررت ان اسدده من جيبي ... قبل الثامنة صباحا ، وكنت كل الليل قلقا ، طرق الباب فهرولت لافتح واذا بالامين محمد راشد اللادقي. قال سلمتني. ٧٠٠ ل.ل. لم اصرف منها شيئا . جئت اردها . فهجمت عليه اقبله . كنت على ما يبدو سلمته المبلغ دون ان اسجله في الدفتر سهوا ...

باكرا حملت المبلغ لاوقظ السيد فوزي تامر من النوم واسدد حسابي واعود مرتاح الضمير .

واجهت انتقادا من الكثيرين . لماذا ترد المال ؟ اليس صندوق الحزب محتاجا ؟ اليس عندنا عائلات شهداء . كيف رددت المال دون ان تعود الى الزعيم لتسأله رأيه . كان جوابي حاسما : لقد تسلمت امانة . كان علي ان ارد الامانة ...

روى لي الامين الياس سمعان منذ اسبوعين اي مساء 15 ـ 5 ـ 1979 انه سمع تنويها من آل تامر وآل عازار بهذا الموقف . لقد انعكس بالثناء على الحزب كله ، لان الدين معاملة ولان حزب الاخلاق لا يمكن ان يتصرف ضد القواعد الاخلاقية وان يرتكب جرم اساءة الامانة ! ..

بعضهم قال لي : ما كان الفقر سيداهم آل تامر لو تحول مبلغ الثمانية آلاف ل.ل. لسد حاجات الحزب الضرورية . ليس هذا القول خاليا من الحقيقة . ولكن مفاهيمي الاخلاقية المثالية ما تركت لي مجالا للتوقف عنده ! . خطأي انني اتخذت القرار منفردا . التفرد هو دائما آفة حتى ولو صدر عن العباقرة والابطال فكيف عن انسان بسيط مثلي ! .

اجتمعـــنا كمجلس اعلى مرة واحدة بسعادة وبرئاسته ، في عاليه كما ذكرت سابقا ، وكانت جلسة محاسبة وعرض عام لما حصل . اذكر ان محورها كان يدور على مخالفتنا العرف الدستوري القاضي بانتقاء اعضاء المجلس الاعلى من بين الامناء اذ اضفنا الى جسمه اعضاء لم يمنحوا رتبة الامانة من قبل كفايز صايغ وخالد موره لي وعبد الله محسن واسد الاشقر وعبد الله سعادة . على اثر الجلسة اصدر سعادة مرسوما بحل المجلس واكتفى بمجلس عمد ابقى على رأسه نعمة ثابت . التفاصيل الادارية سينقب عنها سواي . اني اكتفي بتذكر لقاءاتي به وبما اذكر من اقواله واعماله .

لقيته المرة الاولى في سرحمول في منزل المناضل الصامد توفيق نور الدين والمرة الثانية في شملان في منزل الرفيق المناضل الصامد نجيب المقدم والرفيق الراحل كامل المقدم والمرة الثالثة في ضهور الشوير ثم في دار الرفيقة اليس الرياشي ، ثم مرات عديدة في الضهور .

كنت قد بدأت اسمع همسا ان نعمة ثابت لا يمارس صلاحياته كرئيس لمجلس العمد ورئيس للمكتب السياسي ، وانه واقع تحت تأثير شقيقته كلودا وكميل شمعون زوج الفقيدة زلفا ثابت وان احواله النفسية مبلبلة ومعقدة . اضطربت فعلا ، فانا ضنين بأي رفيق فكيف لا اضن بأصدق اصدقائي في الحزب ، وبأحد القادة الذين تحملوا مع المعلم مشقات التأسيس وازماته ، سارعت الى قصر آل ثابت في بئر حسن والتقيته ، وفهمت المشكلة النفسية التي كان يعاني منها . كان الرجل من اصفانا قلبا واكرمنا كفا والبقنا كياسة وظرفا . كنا بالاجماع تقريبا نطلق عليه لقب الجنتلمان Gentleman للدلالة على تميزه وتألقه . ما اخفى عني تبرمه بسياسة الزعيم التي نقضت كل سياسته وكل خططه وكل نهجه وكل .. تحالفاته . اسلوبي كان ولا يزال عندما اريد ان اصلح بين متخاصمين ، ان اوحي اليهما ان كلا منهما على حق . لا احسم الا بعد الاطلاع الشامل على الموضوع وتكوين قناعة مطلقة ، من هذه القناعة انطلق لاحسم لا (اخادع) عندئذ ولا اساير .

قلت ماذا تنوي فأجاب التقاعد والانصراف الى ترميم اوضاعي المالية والعائلية . صعقت وارتعدت وثرت ، ان القائد الذي بلغ مرتبة نعمة في قيادة النهضة وعرف بالرئيس او مجمع الرئاسات . لا يجوز ان يتراجع ان يتردد ، او يتقاعد ، أي ردود فعل سيئة سيحدث في الصفوف وخارج الحزب ؟ .

قلت : « اذا كانت لك مآخذ على الزعيم ، فالطريقة الفضلى هي ان تصارحه ، واذا كان لك اقتراحات فإليه يجب ان ترفع . ان الشكوى للاعضاء او للرفقاء انما تفسح في المجال للبلبلة . الشكوى يجب ان تقدم لصاحب الصلاحية في فصلها . هيا بنا الى لقائه » .

ما كان نعمة ليخالفني الرأي او يرد لي طلبا ، فتواعدنا وتوجهنا الى بشامون حيث قيل لنا ان الزعيم مقيم .

توجهنا الى بيت المسؤول الرفيق (الأمين العامل حاليا) خطار ابو ابراهيم (توفي منذ ايام) الأمين خطار من الرعيل الاول . تميز بالشجاعة والوعي والشاعرية . منضبط لا يحيد عن الخط ، تماما كالأمين الياس سمعان والأمين شكيب ابو مصلح والأمين محمد جبلاوي وماجد ناطور وعدد لا يحصى من العاملين في الوطن وعبر الحدود (الأمين شفيق مفرج مثلا) . فاجأناه عند الغسق . كانت الشمس قد غابت والظلام يتحرك ليلف الطبيعة الساحرة في بشامون وعين عنوب احراجا وتلالا ، الرفيق خطار مثل رفقائنا جميعهم في حالة تأهب دائمة ، يدعونا الى العشاء ، نعتذر لاننا نرغب في ملاقاة سعادة ــ دون موعد مسبق ــ لنعود باكرا الى المدينة . كانت سيارة تنتظرنا .

الرفيق خطار ليس لديه قنديل كهربائي ، لديه فقط قنديل طنبر ، نحن في اواخر نيسان والجو هادىء ، لا رياح ولا نسائم . فالقنديل كاف لاضاءة السبيل ــ المعبر .

مشى الرفيق خطار امامنا ومشينا وراءه .. مشاكلنا في القيادة كانت في ذلك الزمان تنحصر بنطاقها . ومحظور على الرفقاء الاطلاع عليها لا تسللا ولا باية طريقة اخرى . كل ما افصحنا عنه امام الرفيق الدليل . اننا نقصد الزعيم للتشاور في الاوضاع ، والقوميون كانوا يثقون بقيادتهم ثقة مطلقة ، فصدق .

ووصلنا الى دار الرفيق الصامد توفيق نور الدين ، احد مقاتلينا التاريخيين الواقف حتى هذه السن المتقدمة على سلاحه ، كان هو المرافق لسعادة في الحل والترحال . تخلى عن عياله واعماله والتحق بالحرس . كان في الصالة الامين الراحل الذي فقدناه مؤخرا كامل ابو كامل والسيدة معزز برتو . كان في خلوة مع سعادة . ضوء اللوكس المعلق على

نافذة الصالة يملؤها نورا وبهاء ، والسطح الطويل العريض مشعشع ايضا . كيف كان سعادة فارا من وجه العدالة ؟ كانت العدالة فارة من وجهه ، تخشى الاصطدام به وان طالبت شكلا بالقاء القبض عليه حيا او ميتا للحفاظ على هيبة السلطة .

انهى سعادة حديثه مع ضيفيه بسرعة . ما قبل الجلوس الى الطعام قبل ان يقابلنا . ما كان يعرف العبوس الا في ساعات الجلسات الرسمية او مع زواره من خارج الحزب . مع رفقائه كان دائما مرحا ، منفتحا ، هادئا بساما اذا كان عنهم راضيا .

انتحى بي وبنعمة على « دشك » (بنك خشبي) في طرف السطح وتبادلنا بعض عبارات المجاملة ، وبدأت انا الحديث لاطلاعه على الغاية من الزيارة .

اخذت المبادرة ، حسب الاتفاق المسبق مع نعمة ، وشرحت ان اخبارا تسربت الى الصفوف القومية عن خلاف يتصاعد بين الزعيم ورئيس مجلس عمده نعمة ثابت . وكيف ان هذه الاخبار في الظرف الراهن تشوش الاذهان وتثبط العزائم وتشكل مدخلا لدعاة السوء والمتربصين بالنهضة لافتعال ازمة داخلية . اني ارجو ان يعطى رئيس المجلس المجال لشرح موقفه ، ومأخذه ، واعتراضاته ، وتحفظاته واقتراحاتـه ، ليحصل عنده الاطمئنان الكامل الى صحة موقف الزعيم من جهة ، والى انه (أي نعمة) ليس موضع شك في امانته اذا كانت قد نسفت سياسته السابقة من اساسها صونا للقضية من الوقوع بين براثن السياسيين في مدرسة النفاق والارتزاق .

هنا قال سعادة : ان ما سمعته عن لسان نعمة يحملني على الاعتقاد بانه يتهمني بتخريب سياسته وانتقاد مواقفه والطعن بانحرافه العقائدي ، انني اقبل التهمة واريدك حكما بيننا . اجلس انت في الوسط ونعمة على يمينك مدعيا وانا على يسارك مدعى عليه . نستمع الى صك الادعاء من قبل نعمة .

قلت : يا أمين نعمة ، الزعيم يحكمني ، يخولني حق ادانته اذا كان مخطئا ، فهات ما عندك من مآخذ ، قل لي اين نال منك الزعيم مما تشكو وتتذمر . اين كنت موضع شكوك وريب واتهام ؟

انكر ان نعمة استفاض في سرد مأخذه وكان يتكلم همسا خجولا كعادته وحييا . كيف كلفه سعادة باجراء اتصالات ، ثم ارسل من يراقبه اذا كان اجراها ام لا ، كيف ان سعادة اساء به الظن . سحب منه ثقته . وراح يعدد واحدا واحدا ما اسماه مآخذ على تصرف الزعيم ازاءه هو الذي ما يزال رئيسا لمجلس العمد ورئيسا للمكتب السياسي .

سعادة ، تناول ورقة ، وطفق يدون اسباب الشكوى الواحد تلو الآخر ، حتى بلغ ما سرده نعمة الأحد عشر بندا .

ولما انتهى ، اجاب سعادة على هذه البنود بالتفصيل ، وبدقة وصراحة نعرفها عنه نحن اعوانه الاول ، اكره ما كان يكره اللف والدوران .. والتستر والتغطية .

كانت الساعة قد بلغت الحادية عشر ليلا . المائدة ما تزال منتظرة سعادة . هي جائعة وهو لا يشعر بالجوع . كم كان الرجل قادرا على الاحتمال !..

ما ان اتى على نهاية دفاعه ، وكان في بعض مفاصله دفاعا هجوميا ، حتى طلب الي ان احكم .

قلت : ما رأي الامين نعمة في ما عرض الزعيم ؟..

اجاب نعمة : لم يعد لي بعد هذه الايضاحات ما اشكو منه .

عندها قال سعادة وهو ما يزال هادىء النفس وديعا مبتسما :

يا نعمة لقد قدت الحزب طوال غيابي ، حوالي تسع سنوات . قدته على مسؤوليتك . لقد عدت الآن واقصد ان اتحمل مسؤولياتي وامارس صلاحياتي . اذا وافقت على السياسة التي رسمتها فلنتعاون باخلاص ولنعمل معا . اذا كنت غير موافق ، فالزم بيتك وكن من ضباط الاحتياط . اذا نجحت سياستي ، نجحنا معا . وان سقطت سياستي ، نستدعيك لتنفيذ سياستك . هكذا ننتصر معا او نسقط معا .

هل من اعتراض ؟

وصمت نعمة ، كان حكم الزعيم بالفعل حكما عادلا ، لم يفرض على رئيس مجلس عمده الاشتراك معه في العمل لتنفيذ خط سياسي لا يلقى لديه اقتناعا . ولكنه يرفض ان يسمح له بالمعارضة . اقصى ما سلم به السماح له ان يكون في الاستيداع ان يكون من ضباط الاحتياط . لم يكن نظام الحزب في زمن قيادة سعادة يتسع لأية معارضة من الداخل ..

ثم وقف سعادة ووقفنا . أدينا له التحية . انفرد سعادة بنعمة وابلغه بعض الاوامر وكلفه ببعض المهمات .

وانصرفنا نتعثر على الحصى والحجارة في طريق سرحمول بشامون على ضوء قنديل الطنبر الشحيح يحمله الرفيق خطار ابو ابراهيم ويسلينا ببعض نكاته ويهمس في اذاننا ببعض ابياته الشعرية الحماسية او الغزلية . كان خطار لا يزال يرى في وجه القمر صورة عن وجه الحبيبة ، وفي زقزقة العصافير صورة عن زقزقة شبابها المراح ..

اشهد ان نعمة ثابت كان مرتبكا . البراءة والصفاء اللذان كانا يميزان طلعته ، والحماس النابض بالشباب والحيوية ، كانت قد فارقته . كان يعاني من أزمة داخلية . ما كنت افهمها آنئذ . افهمها الآن ، عسير على القائد ان يعود جنديا ، وان يقول له القائد الاعلى انه اخطأ في كل خططه وفشل . ثم افهم ان نعمة كان قد عمل من سنة 1933 الى 1947 دون انقطاع مضحيا ، ساهرا ، متحملا كل صروف الحرمان هو ابن البيت العريق في ارستوقراطيته . لقد ادركه التعب والكلال ، كان قد باع ارضا في الرمول واطمأن وصمم على الزواج والاستقرار .

اما سعادة فلا تستوقفه هذه الترهات . القضية القومية قبل الافراد ومشاريعهم الخاصة . بنفسية الرسل كان يعمل . فلا الأخ ولا الصديق ولا الرفيق بذي اهمية عنده ساعة يوازن بين مصلحة الأمة ومصالحهم . انه ما رحم نفسه ، فمن يجروء ان يطالبه بأن يرحم الآخرين ؟.. انه ما طلب لنفسه يوما الراحة والاستمتاع بالحياة ، بل سعى الى النضال والصراع عن سابق تصور وتصميم ، والذي هذا طبعه ، كيف يسمح لمعاونيه الاركان بالاستسلام الى مغريات العيش ؟.. كيف يسمح لهم ان يفضلوا الزواج والاستقرار والرفاه على القضية المقدسة ؟..

بعد ايام كنا على عشاء في بيت الرفيقين نجيب المقدم وكامل المقدم في شملان . كامل فقدناه باكرا ، فيما كان ينضج في دراساته الاقتصادية مقالات ومحاضرات وكتبا . اما نجيب فلا يزال في الساحة ، يعطي بقدر ما تسمح طاقته . يكفي انه صامد منذ اربعين عاما ونيف !

الى دارتهم في شملان لجأ سعادة ايام التواري لبضعة ايام . تحولت الدارة الى قلعة تحرسها عيون القوميين واسلحتهم . وفيها كان يلتقي سعادة بالوفود من كل المناطق وبالصحافة وبرجال السياسة والفكر .

كان نعمة ايضا في ذلك اللقاء . قدم تقريرا عن نشاطاته والمهمات التي كلف بها . ما كان الحماس باديا على وجهه ولا في حديثه . استحال نعمة الى فاتر . كل مؤشرات الانهيار كانت هناك ساطعة .

اللقاء الذي حضرته كان بين الوزير السابق صبحي بك حيدر وولده السيد حنظل وبين الزعيم ومن كان حاضرا من الأركان وما كان يبحث وجوب تنظيم المعارضة للحكم القائم واسقاطه . كل من كان يعارض بشارة الخوري ورياض الصلح والعهد القائم كان مع انطون سعادة . يريدونه ان يعنف حملته على العهد لكي يلتفوا عليه مع العهد

عندما يدق ناقوس الخطر او عندما يلوح لهم العهد بالعودة الى احضانه !..

ما جاءه احد ليعاتبه او ليعارضه بل ليؤيده ويشد ازره !.. اما أحاديثه هو فادانة للنظام وتبشير بالنهضة .. كان الجو مرحا . الغبطة على الوجوه . لم يكن احد في ظل مذكرة التوقيف الصادرة بحقه ، اكثر حرية من الزعيم ، فما كان يمنع عنه شيء ولا هو يحتاج الى شيء !.. كانت مذكرة التوقيف طالعا مباركا . ولقد نوع سعادة امكنة اقامته عوضا عن ان يتسمر في مكان واحد . كما نوع مواعيده بين الاعمال الادارية ، وبين الاعمال السياسية والمقابلات الصحفية ..

من شملان والغرب انتقل الى بعقلين ، الى عاصمة الشوف التي شهد حزبنا فيها ايام امجاد وازدهار . يذكر القراء الحشد القومي في ساحة بيت الوطني الراحل امين خضر . قيادة الحزب كانت في مرحلة من المراحل بعقلينية فحسن الطويل حمادة وفؤاد ابو عجرم وكامل ابو كامل كانوا جميعهم في المجلس الاعلى . واكثر من ذلك كان لحسن الطويل حمادة منزلة خاصة لدى سعادة . كان يحبه ويقدره . فلا غرو ان هو اقام في ضيافته ردحا من الزمن ايام مذكرة التوقيف .

لم اقصده الى بعقلين . لا اذكر على الاقل اني قصدته ، ولكن الاحاديث التي كنا نتبادلها مع حسن الطويل راسخة في ذاكرتي .

نقل الي حسن ان سعادة قال له كلمة ما تزال ترن في انني : « يا حسن . لقد خرجت القضية مني اليكم فاذا رأيتم في اعوجاجا فقوموني بحد سيوفكم » .

كما نقل الي كلمة قالها سعادة بحضوره لرفيق اسمه حافظ كان ينوي ان يتزوج من فتاة غير مرغوب فيها من اهله وتسببت بمشكلة عائلية مستعصية . اما الكلمة فهي :

يا حافظ لا تجعل قلبك مقبرة لعقلك .

حوار طويل جرى بين الدكتور كريم عزقول ــ الذي مر اسمه كثيرا اذ شغل مسؤولية عميد اذاعة في فترة الرخصة وكان فايز الصائغ عميدا للثقافة في نفس المجلس . الحوار تم في بشامون . ننتظر يوما ان يتذكره الدكتور كريم ــ انا اذكر ، بعد ان جرى ذلك الحوار بمدة ، التقيت في عاليه وكنت برفقة الأمين الراحل فؤاد ابي عجرم كريما في منزله قرب الرون بوان على مدخل عاليه . قال لنا في ذلك اللقاء ان سعادة ، بنتيجة الحوار وجه اليه العبارة التالية :

« قد اخطىء ولكن لستم انتم الذين تستطيعون ان تكشفوا خطأي بل التاريخ والمستقبل » .

كان سعادة واثقا بنفسه ، واثقا ان تعاليمه هي خلاصة التأمل والتنقيب ونتاج العقل والعلم . انها ليست من بنات ارتجال ، ليست مصاغة لتناسب مقاما او موقفا او مرحلة . انها حقائق علم الاجتماع وسنن نشوء الأمم ومقومات وجودها وطرائق ومناهج الفكر السياسي النير المسيج بالعقل والمنطق والمعرفة .. العقل اليقظ العالم قلما يقع في الخطأ اذا لم يكن معصوما عن الخطأ .

لم يمر الشعب اللبناني في مراحل استقلاله الاولى بامتحان لحريته وكرامته وحقه اهم من مرحلة الانتخابات النيابية في 25 ايار المار ذكرها . اي شعب مهما كان مستكينا ، مستضعفا ، بليد الذهن ، كان يجب ان يتحرك لتلقين مستضعفيه وسالبي ارادته وحريته ، أمثولة وعبرة . كعادة اللبنانيين ، في آلامهم وافراحهم ، في تعاستهم او سعادتهم ، هبوا بعد الفاجعة يشنون حملات كلامية صاخبة . في المجالس العامة والخاصة ، في الصحف والمجلات المعارضة نبجت المقالات الطويلة والقيت الخطب والمحاضرات . لو ان بالكلام والصخب تسقط الحكومات والعهود في لبنان لكان على بشارة الخوري وحكومته ان يسقطا بعد ايام من اعلان نتائج الانتخابات المزورة . اذكر ان جريدة البيرق ، الموالية لحزب الرئيس اميل اده ، ظلت على مدى سنة واكثر تؤرخ اعدادها بدءا من 25 ايار لتذكر الشعب اللبناني بما لحقه من عار وكيف زورت ارادته وديست كرامته !..

الصخب لم يلبث كالعادة ان تحول الى صمت .. وسكتت الناس ــ طبعا على مضض ــ الى ان هب كمال جنبلاط بعد خمس سنوات ، وبعد ان احتدم الصراع بينه وبين رياض الصلح وبشارة الخوري ، وبعد ان ألب حوله شمعون وفرنجية وكثيرا من رجال السياسة والفكر ، يكتب في الأنباء « جاء بهم الاجنبي فليذهب بهم الشعب » ونقلت عنه هذه العبارة كل الصحف ، وسانده الرأي العام .. بقي الشعب مروضا مذعورا ، مهانا حتى ذلك التاريخ .. حتى ظهر القائد . لا ثورة ، لا معارضة مجدية بدون قائد شجاع .

ونستبق الاحداث لنقول ، ان اول عملية ثأر لكرامة الشعب اللبناني ، قام بها الحزب السوري القومي الاجتماعي في تموز1949ونزعم ان ثورة سعادة الاولى كانت الدافع الاقوى للقائد الشهيد كمال جنبلاط ليضرب ضربته المحكمة في 1952 .

نستعجل ذكر هذه الاستنتاجات ، لكي لا نترك القارىء مستسلما الى ان لبنان يستكين الى الأبد . ما ينقصه هو القيادات والوسائل والدعم . فعندما تنوجد يعرف

كيف يثور ، كيف يفتدى حريته بدمه .. كيف يخلع اثوابه العتيقة البالية اثواب الطائفية والاقطاع والخنوع ، ليلبس اثواب الثورة في سبيل التقدم !..

بالنسبة للحزب ، لم ينجح ولا واحد من المرشحين القوميين ، كنا قد سحبنا مرشحنا الارثوذكسي حافظ المنذر لضرورات سياسية ضاغطة كان مردودها علينا انسحاب حافظ من صفوفنا لأن طريقة سحبه ــ كما اذاع ــ لم تكن على سوية كرامته ولا على سوية مصلحة الحزب .

أميل الخوري حرب (تنورين) لم يكن جديا لا في ترشيحه لنفسه ولا في خوض المعركة . وكذلك سليم حتي في الجبل ظل ترشيحه الى آخر لحظة نوعا من المحاولة . اما نظمي عزقول في الجنوب فقد نشط نشاطا واسعا فحاز ثلاثة الاف صوت منفردا بوسائل الحزب ووسائله الخاصة فقط .

اما الذين ساندناهم فقد فاز عدد منهم لا يستهان به ، في طليعتهم وزير الداخلية غبريال المر ، الذي حفظ لنا الجميل قدر المستطاع في حكومة يهيمن عليها رياض الصلح ويسيرها المستعمرون او عملاؤهم من الحكام العرب .

كنا نعرف ان تحالفاتنا في المعركة ستنتج لنا اصدقاء اوفياء كما تنتج لنا خصوما شرسين ، الا اننا لم نتوقع اكثر من ازدياد رصيدنا الشعبي وتناميه المطرد . ان حزبنا راهن ويراهن دائما على الشعب ولولا ذلك ليئسنا من زمان ولما كانت لنا المواقف والمواقع الصلبة في حياتنا السياسية .

كان المنطق يفرض ــ بعد عملية التزوير المفضوحة ــ ان تبادر الحكومة الى ستر الكثير من عوراتها باوراق التين ومن جملة وسائلها استرداد مذكرة التوقيف التي صدرت بحق سعادة وبقيت دون تنفيذ . الا ان المفاوضات بشأنها لم تثمر . فكان من الطبيعي ان تصبح ضهور الشوير مزار الذين سقطوا في الانتخابات وتنادوا ليكونوا جبهة واحدة في وجه عهد بشارة الخوري ورياض الصلح ومناصريهم . والنقمة الشعبية العارمة ، كانت بحاجة الى من ينظمها ، ويوجهها ، وينفخ فيها الحماس ، ويدفع بالوقود لها تلو الوقود ، لتتوتر وتتصاعد وتنفجر . كان الحزب وحده المؤهل . ولكن كانت تنقصه كل الوسائل فأين يجدها ، والناس في لبنان قوالون غير فعالين ، واذا فعلوا فلهبة وتنطفىء . وقفزة وتتعثر . بغير الطائفية لم يكن هنالك وسيلة لالهاب الجماهير وسوقهم الى القتال !.. والحزب عدو الطائفية رقم واحد . يعتبرها رأس المعاصي والفساد ، فكيف يشهرها سلاحا فكأنه يشهر المعاصي والمثالب سلاحا !..

ومع ذلك ، لم يكن سعادة منشغلا بالتنظيم الاداري والعمل الاذاعي على كل صعيد قومي وعربي وانترنسيوني بل كان منشغلا ايضا بتقنية الغضب الشعبي في اقنية لا تصب اخيرا الا في العصيان والتمرد .. والثورة . وسنرى تفصيل ذلك في سياق هذه الذكريات .

الاحزاب اجتمعت في دار الوجيه البيروتي عمر بيهم بعد ايام من الانتخابات لتدارس عمل مشترك . جئت امثل الحزب . وقف المرحوم جوزيف شادر نائب رئيس الكتائب وقال : انا لا اكون حيث يكون الاستاذ عبد الله قبرصي لانه ليس لبنانيا . وقفت وانسحبت احتجاجا . نحن بنظر الكتائب ــ منذ تأسيسها ــ سوريون لا لبنانيون ، ونحن بالتالي « غرباء » او خونة ، نحن الذين جئنا بالعلاج الشافي للبنان من تمزقه وتنافره والمخاطر على كيانه .

هنا ايضا واجهت لوما من المعلم ، لأن الذي كان يجب ان ينسحب جوزيف شادر لا انا ..

اما لماذا انسحبت فأقولها بصوت عال : كل الحاضرين كان يهمهم العنصر الماروني في المعركة والعنصر الماروني تجسد في مراحل عديدة بالكتائب لأنهم برزوا « سيوف النصارى » وجنود مار مارون وحماة المارونية . كل الحاضرين لم يحركوا ساكنا ضد جوزيف شادر ، ولأني كنت حريصا على قيام الجبهة المعارضة ولو على حساب الحزب قبلت ان انسحب احتجاجا وغضبا .

هؤلاء الكتائبيون ــ مهما كان رأينا فيهم ــ عرفوا كيف يستغلون في كل العهود . يسايرون العهد القوي ، الى ان يضعف ، فينضمون الى معارضيه ويمشون في جنازته ، ليكونوا اول المستغلين للعهد الذي يخلفه . من لا يصدق ، ليسأل حليفهم كميل شمعون الآن ! وليسأل اركان الشهابية !.

اكمل كتابة هذه المذكرات من اثينا (اليونان) حيث استريح على شواطئها اللازوردية ـ انكر قرائي اني اعتمد في كل ما اكتبه على الذاكرة فقط . اذا وقعت في أي خطأ في التواريخ او في الأسماء ، فان الرجوع الى وثائق الحزب ونشراته وبياناته ، او الى الصحف الصادرة في الزمن المعني ، يمكن من التصحيح دون كبير جهد .

كنت في اواسط حزيران اخرج ظهرا من قاعة نقابة المحامين في بيروت وقد اضناني التعب والجوع . لكثرة الركض على درج قصر العدل صعودا ونزولا (ولمعلومات القارىء كنت في ذلك الحين احضر اكثر من عشر جلسات في اقل من اربع ساعات دون معين ولا مساعد) فاذا بالمرحوم زيدان ضاهر زيدان صاحب جريدة الاتحاد اللبناني او « الاحوال » آنذاك يبادهني بالسؤال التالي : هل صحيح ان هنالك خلافا بين الزعيم ونعمة ثابت واذا كان مثل هذا الخلاف ناشبا ما هو موقفك منه ؟..

يبدو ان جوابي الصادر عن جائع ومرهق ، لم يكن دقيقا ولا قاطعا ، كان فيه بعض الغمغمة والرجرجة . كنت فيه دبلوماسيا اكثر مني عقائديا فيما تفرض الظروف الخطيرة على كل القياديين مواقف واضحة وفاصلة .

كان الناس يتوهمون اني يد الزعيم اليمنى ، فما اقوله يتلقفه الناس والرفقاء ، وتسرب الخلاف بين سعادة ونعمة ثابت كانت له ردات فعل في الخارج اقوى بكثير من ردات الفعل الداخلية . فما ان ظهر تصريحي في الصحف ، (ساحاول العثور عليه ونشره) حتى جاءني رسول من قبل سعادة يدعوني لمقابلته ليلا في الخنشارة في بيت الرفيقة اليس الرياشي !.. لأخذ العلم اقول ، ادليت بالتصريح ولم اقرأه ولا اطلعت عليه لا قبل نشره ولا بعده .

لم تكن الليلة قمراء والسيارة التي اقلتني مع المرافق لم تصل الى المقر . كان علينا ان نسير مشيا على الاقدام في العتمة . لولا ان مرافقي كان يعرف الطريق جيدا ، لكنا تعثرنا واضطررنا لطرق الابواب استعلاما عن بيت الرفيقة اليس . كانت معروفة لأنها قابلة قانونية .

كنت في ذلك العام اصطاف في بيت مري ولكن لم يكن قد حان موعد الصعود الى الجبل ، فالاولاد في المدارس . كان يجب ان اعود الى بيروت في اواخر الليل .

ما كان سعادة يستقر في مكان واحد ، من باب الحذر واليقظة ، وللاستراحة من عناء المقابلات ، رغم ان مرحلة الانتخابات الصاخبة كانت قد مرت .. فاذا كان المقر الدائم في ضهور الشوير ، فان هنالك « مقرات » تتباعد او تتقارب وفق الظروف الأمنية .

وصلنا الى بيت الرفيقة اليس ، والعشاء جاهز . اكرام الضيف عندنا في الجبل يعبر عنه بالنبيحة ... فاما جدي ماعز واما كبش غنم . كان من حسن حظي ان النبيحة في ذلك الليل كانت جدي ماعز ، فانا مغرم بلحمه الطري ازدرده مع كأس من العرق ، فكأنما ازدرد زاد الآلهة !..

الرجل « الهارب من وجه العدالة » كان ذلك المساء طافحا بالبشر والمرح ، يتجلى في انسانية عفوية مشرقة وشفافة .

بعد العشاء ، وكنت قد استرسلت في سرد بعض النكات اجلسني الى جانبه وقال لي :

« يا عبد الله ، انت لا تقدر نفسك حق قدرها . لا تقدر مواهبك . لا تثقف نفسك كفاية . هل قرأت روح الشرائع esprit des lois لمونتسكيو ؟.. من هم هؤلاء المحامون الكبار الذين تملأ اسماؤهم عواميد الصحف ؟.. لو توفرت على الدرس والبحث والتنقيب لتفوقت عليهم جميعا . ماذا ينقصك ؟! » هكذا كان يربينا ذلك الراعي الصالح . يزرع فينا الثقة بالنفس ، لنندفع باستمرار الى التفوق ..

سبق وذكرت انني عندما اسرد بعضا من ثناء سعادة علي ، او على غيري لا اقصد التباهي ولا الاستكبار . لكن اقتصار سعادة او قل بخله علينا بغير النقد والتوجيه والارشاد ــ واحيانا التقريع ــ كان يجعل من كلمات الثناء دررا وقلادات ، نعلقها في اعناقنا اوسمة ونياشين ؟..

ثم كان لا بد من اسباب موجبة للثناء لانه ما كان رخيصا ومائعا كالثناء الصادر عن مسايرة او مجاملة .

ما ان انتهى سعادة حتى فاجأني بأن حمل سلاحه وطلب الي ان نخرج في نزهة معا . سرنا صامتين الى ان بلغنا مرتفعا يطل على البلدة النائمة . وفاجأني سعادة بسؤال : اذا استمر نعمة ثابت في تصرفاته وسلوكه واضطررت الى طرده ، ماذا سيكون موقفك بعد تصريحك لزيدان ضاهر زيدان بما صرحت ؟ قلت على الفور : ان اكبر اهانة يوجهها الي الزعيم هي هذه الاهانة . لا يسأل جندي مثلي أثبت في تاريخه الحزبي

نضاله وامانته ، هل ينفذ امرا او قرارا يصدر عن الزعيم ؟.. اما ما قلته لزيدان ضاهر زيدان فلم اقرأه منشورا . مهما يكن النص لا يهمني . يهمني ان رأيي النهائي والاخير هو تنفيذ ما يقرر الزعيم !..

وضع سلاحه ارضا ، وعانقني بحرارة . وقال لي : كنت اعرف يا عبد الله . كنت اعرف !..

هنا اخذت الكلام انا وقلت :

ان نعمة ثابت قيمة حزبية مميزة اخلاقا وثقافة ونضالا . لكي نبني رفيقا مثله يقتضينا الامر سنوات من السهر والمثابرة والرقابة . وخسارته تعني لنا كثيرا . تعني لي انا شخصيا الذي اعتبره من اقرب الناس الى قلبي ، نوعا من الفاجعة . انني اطلب من الزعيم اخذ مسألته بالروية والحكمة والصبر . هل بلغنا مرحلة اليأس ؟ اقترح ان نعهد الى الأمين انيس فاخوري معالجته من جديد . لا يجوز التسرع مهما تكن الاسباب . اذا كان له رأي مخالف لرأيك ، بالحوار نرده الى الصواب . لا بالقمع . نحاول اصلاحه . اقناعه . سحبه من تحت تأثير كلودا وشمعون .

يعرف القراء كيف ذهبت ونعمة الى سرحمول وعدنا راضيين . لذلك لم اكن قد فقدت الامل من انقاذه . كنت استهول خسرانه . لا يعوض نعمة بسهولة . واكثر من ذلك ، لا يجوز ان نبني رجالنا وندفعهم الى مصاف القادة ثم نطردهم كانما نرمي نواة او حصاة على جوانب الطريق !.. كيف يتحول قائد منحناه ثقتنا واطعنا اوامره ، وولیناه قیادتنا الى « خائن » بين ليلة وضحاها ؟

حسنا قال المعلم . سآخذ برأيك . سانفذ اقتراحك ، بلغ الامين انيس فاخوري ان يجري اتصالا بنعمة وان يتفهم كل مشكلته نفسيا وسياسيا . وان يقدم لي تقريرا باسرع ما يمكن . قلت اعطنا اسبوعين فأجاب بالايجاب .

وبالفعل ، عدت ليلا لأتصل بالأمين انيس في الصباح الباكر وابلغه الأمر . كان الأمين قدورة قد اخذ على عاتقه ملاحقة نعمة واقناعه بالعزوف عن القطيعة .. وتحذيره من سوء المغبة . فما افلح في اقناعه .

اللجوء الى الأمين انيس كان الطريقة الفضلى والفرصة الاخيرة . الأمين انيس محبوب ومحترم من الجميع . وقادر بوحي من اخلاصه وصدقه ان يؤثر وان يحقق .. فرحت في داخلي اني افسحت في المجال لعملية الانقاذ ، الا ان الأمل كان بارقة لا اشراقة !..

كان بالامكان ان اكرر مسعى سرحمول ، الذي سبق وعرضته بايجاز ، الا ان علاقتي الحميمة بنعمة كانت تفسد مسعاي ، فالرجل يعتقد انه قادر على التأثير علي اكثر مما انا قادر على التأثير عليه .

فلنضع المشكلة بين ايدي الامين انيس رغم انه لم يكن اقدرنا على التأثير والاقناع . الصفة البارزة بين صفاته هي انه بحر من الخير والصدق والاخلاص والبراءة الحزبية .. لا يطمع بشيء الا بانتصار القضية . انه ابنها البار اذا لم يكن الأبر .

لنر اذا كان انيس سينجح حيث فشلنا جميعا وخاصة انا واديب قدورة !..

صديقي الذي كان ...

لم اكن متفرغا للعمل الحزبي في فترة « التواري » ــ فترة مذكرة التوقيف . كنت اكلف بمهام خاصة وادعى الى بعض الجلسات الرسمية التي يرأسها سعادة عندما تكون هامة جدا . اذكر اني حضرت احداها في مخيم ضهور الشوير وشاهدت هنالك الاستاذ النائب كاظم الخليل الذي كان قد اهدى الحزب بندقيتين وكان قد اختلى بسعادة بضع دقائق ثم انصرف . الجلسة كانت مخصصة لبحث نتائج مساع كلف بها العميد فايز صايغ في جبل الدروز لاجراء مصالحة بين آل الاطرش وبعض العائلات العريقة (آل العيسمي وسواهم) . الحزب كان قد نما في الجبل نموا ملفتا للنظر إذ انتمى اليه رفقاء مثقفون وقياديون . وكان عليه ان يلعب دور الموفق ليستقطب العدد الاكبر من الجيل الجديد ، ويظهر بالوجه المثالي الاخلاقي في تلك المنطقة الرائدة في العمل الثوري والبطولات . قدم العميد فايز تقريره وجرت مناقشته والتعليق عليه وصدر القرار بمتابعة الاتصالات ودعوة المسؤول الحزبي الى ضهور الشوير للتشاور .

وبحثت مواضيع اخرى هامة طال النقاش بها والحوار حولها الى ساعات الصباح الاولى . في هذه الاثناء اطلقت بعض الاسهم النارية من جديدة المتن .. كانت انذارا من الرفقاء فيها بتحرك قوة من الدرك باتجاه المتن الشمالي حيث مخبأ سعادة . بعض العمد تململوا وانا من جملتهم عندما جاء احد الحرس يبلغنا اشارة الانذار . كان سعادة يتكلم فاستمر في بحثه كأن شيئا لم يحدث . شكر الحارس وطلب اليه الانصراف والمراقبة واعلامه بما يجد .

كنا نسمع والجلسة لا تزال منعقدة اصوات الحرس يتنادون للتأهب والتمركز . استنفار عام وتأهب عام . والعمد برئاسة الزعيم لا يزالون يتداوسون بعض المواضيع .

في مرة سابقة ، كنا في بيت فريد صباغ ، وهو يعج بالزوار من رفقاء وسياسيين . كانت المرحلة الانتخابية في ذروة الاستعدادات . اعطيت اشارة الانذار عند العصر .

سارع الحرس الى سلاحهم . اخذوا مواقعهم بقيادة عبد المسيح . الزعيم كان مجتمعا الى بعض من الاصدقاء . فما ان رأى الحرس يتراكضون كل الى خندقه حتى أخذ بندقيته واحتل مكانا في الصف الامامي ، كأنه احد الافراد . شهدت جدلا بينه وبين عبد المسيح (إذا لم تخني الذاكرة) وقد كان يلح ويشدد في الالحاح على سعادة بان يغادر الخندق والضهور الى موقع انكفاء آخر . سعادة رفض وظل في الخندق يده على الزناد .

اما تلك الليلة ، ليلة الاجتماع الذي نحن في صدده ، فلم يتحرك . كان يضع ثلاجة على اعصابه . من قوة ارادته ينوب الثلج ولا تنوب الاعصاب ولا تلين الارادة .

يذكرني وانا اكتب هذه الاسطر في أثينا هذا الموقف بما قرأت في كتاب هشام شرابي « الجمر والرماد » الذي صدر العام الماضي او في مطلع هذا العام كيف ان سعادة وقد تلقى انذارا مشابها ، استمهل سائقه والحرس ليشرب فنجانا من الشاي مع هشام الذي كان مذهولا مندهشا . وكيف انه شرب الشاي هادئا مطمئنا ثم مشى الى السيارة هادئا مطمئنا ...

على كل انتهت الجلسة المعقودة ، دون ان تحدث المداهمة ... إلدرك على ما يظهر توجهوا الى مكان آخر بمهمة اخرى اقل خطرا .

الذي حدث ، ان الجلسة انتهت ، فقصدت الساحة مع فريد الصباغ لاستأجر سيارة تقلني الى بيت مري حيث كنت اصطاف مع عائلتي ، فلم أجد ... لم يعد لي ملجأ الا فيلا صوايا ــ فندق صغير يملكه عجاج الشويري احد اعز اصدقائي وقد مر ذكره في هذه الذكريات ــ قصدناه ووجدنا فيه غرفة شاغرة شغلتها ورحت استغرق في نوم عميق . الا ان جرس الهاتف كان يرن قبل بزوغ الشمس في صالة الفنـدق. زوجتي المسكينة لم تنم . ظنت ان مكروها وقع لي ، واني قضيت نحبي في الطريق من الضهور الى بيت مري !...

تلفنت الى بيت فريد الصباغ ، وفريد اتصل بالفندق ، فايقظوني وتحدثت اليها سمعت صوتي ، واقفلت الخط غضبا واحتجاجا ... كنت قد تعودت على مثل هذه الغضبات والاحتجاجات ... فعدت الى فراشي منهوكا لاستغرق في النوم حتى الظهيرة .

عندما عدت الى منزلي في بيت مري بعد الظهر كان الجو جو معركة .. الصراخ والشتائم والدموع اشتركت كلها في هذه المعركة .. الا ان ما كتب قد كتب . لقد اقسمت بان اقف نفسي على الحزب وعلى الامة ، وما أدفعه من متاعب ومخاوف واوجاع في صميم عائلتي ، هو وجه اخر من أوجه الصراع ... هو جانب من جوانب التضحيات ، فلتحرد

الزوجة الامينة ، وليبك الاطفال ، وليعل الصراخ .. علي ــ وعلى سواي من الرفقاء ــ ان نؤدي واجبنا وان نتحمل من اعز الناس واقربهم الينا ما لا يحمل ولا يطاق .

كان شقيق زوجتي فؤاد بربر مراقبا لشركة الريجي في النبطية . فحملت حقائبها ولجأت الى داره ... لم اقل لها كلمة .. الم يعلمنا سقراط بعد ان رمته زوجته بجرة الماء على رأسه ان نصبر حين قال : عندما ترعد وتبرق يجب ان تمطر !...

واقترب موعد 25 تموز عيد مولد ولدي عاطف (الامين الدكتور عاطف حاليا) . كنا قد التزمنا بالتقليد البورجوازي ، بان نقيم لاولادنا حفلات بمناسبة اعياد مولدهم . فرحنا نعد العدة لحفلة ميلاده .

في الرابع والعشرين منه ، مر بي في مكتبي في شارع المعرض ، وكنت احتل غرفة جمعية مستخدمي التجارة التي كان يرأسها النائب الحالي الصديق فريد جبران ، مر في مكتبي نعمة ثابت . كانت هنالك شركة المقالع والمواد الكلسية قد تألفت بينه وبين جبران جريج واسكندر وفؤاد شاوي وسواهم ارتأى ان يهيأ لتصفيتها بسبب الخلل الذي كان يتفاقم في ارتباطه الحزبي . اغتنمت الفرصة لأدعوه الى حفلة ميلاد عاطف وانا اقصد القيام بمسعى اخير فأجمعه بالزعيم بعد الحفلة ، اذ اتوجه به من بيت مري الى ضهور الشوير . عرضت عليه الامر فرحب . وإستأنناني بالتغيب بضع دقائق . مرت ساعة دون ان يعود او يعتذر . كدت انفجر . الا ان رسولا يحمل هدية بالورق الملون جاءني يلهث مع بطاقة كتب عليها : « هذه هدية للحبيب عاطف متمنيا له عيد مولد سعيد ، معتذرا عن حضور الحفلة هذا المساء لاسباب خاصة » .

كان لدي خيط من الامل فانقطع .. ادركت ان مهمة الامين انيس فاخوري باءت بالفشل . إذن اصبحت نهاية رفيقي وصديقي على قاب قوسين او أدنى . العاصفة تقترب منا فهل نقف مكتوفي الايدي ؟.

لقد مرت بهجة العيد دون بهجة . مثلي لا يتكلف الفرح ، بل يفرح . وهل بالامكان ان أفرح ، وانا اواجه نهاية اصدق صديق واطيب رفيق ؟... اي مسؤول غير نعمة ثابت كان تعويضه سهلا . كنت اظن ان تعويض نعمة مستحيل ! قصة نعمة ثابت بنظري قصة كارثة لم اكن ادرك بالتحليل عواقبها !...
في تلك الليلة ، ورغم الاعصار الذي عصف في بيتنا على أثر الاجتماع الطويل في ضهور الشوير ، تسللت برفق الى ساحة بيت مري ، استأجرت سيارة ذهابا وإيابا ،

ورحت انهب الارض في هدف مقابلة الزعيم لاعطائه آخر المعلومات والتداول معه . كان الجواب ، ان دعوة عامة ستوجه في غضون الاسبوع الى المنفذين العامين في كل المناطق ، والى المسؤولين ورجال الفكر في الحزب ، لعرض مسألة نعمة ومأمون الذي تبين انه متضامن معه بل قيل انه المحرض الخفي المتعاون مع كلودا وشمعون على نعمة !

وانعقدت الجلسة وكنت بين المدعوين .

ما اذكره ان سعادة وضع المسؤولين والرفقاء في صورة الواقع . ادلى ببيان طويل عن تصرفات نعمة ومأمون (كانت مشكلة اسد الأشقر قد انحلت) .. وسمح للحاضرين بطرح أي سؤال أو إستفسار أو مداخلة ..

لا أذكر أن أحدا من الحاضرين تدخل . الا ان الجو كان بالفعل جوا متوترا . ليس بالهين اغتفار الخطايا ولكن ليس بالهين أيضا التخلي عن الخاطئين او معاقبتهم متى بلغوا المراتب الاولى في سلم القيادة ! ما شك أحد منا في ان مراسيم الطرد جاهزة .

في مثل هذا الشهر (آب 1947) كان نعمة ثابت ومأمون اياس ومعهم واحد فقط من آل شكور (هو ابن عمة نعمة) يعلنون انسحابهم من الحزب ، وينشرون الاسباب في الصحف المحلية ومنها النهار ، كما يعلنون عن تأليف حزب باسم الحزب اللبناني الجمهوري الديمقراطي رأى النور في بيان التأسيس ثم دفن وهو لا يزال رضيعا او بالأحرى جاء جهيضا ودفن جهيضا .

لو ان الذي طرد نعمة ومأمون كان المجلس الأعلى يومذاك ، لواجهنا انشقاقا . لأن « الرئيس » نعمة كان محبوبا ومحترما في كل مكان رغم خلافاته مع بعض القادة كمعروف صعب . لكن سعادة بنفوذه الروحي الساحق وبصلاحياته الدستورية الشاملة وبأسلوبه الدقيق في التصرف بحكمة ودقة وروية ، لم يترك مجالا لأي شك ، فما تخلخل في الصف اي فرد ولا سقط من العمارة الحزبية أي مدماك ! ... لقد طرد نعمة ومأمون بتأييد اجماعي من قبل القادة والاعضاء . تلك هي الثقة المطلقة التي لم يستطع ان يرثها عن سعادة اي مسؤول آخر !... الثقة من جهة ، واعداد القوميين ، كبار مسؤوليهم وصغارهم الى تقبل الصدمة ، بتحميل مسؤوليتها للمطرودين !..

بالنسبة لي ، كان الكثيرون يتوقعون اني سأنهار ، او سأترنح بضعة أيام أو أشهر ، أو أنني على الأقل سأحيل نفسي الى تقاعد طويل .

كان جوابي على كل هذه الشكوك والتساؤلات بان كتبت قطعة تحت عنوان الى

صديقي الذي كان ، موجهة الى نعمة ثابت قال لي عنها رشدي معلوف انها من الادب العالمي نشرت في جريدة الشمس لصاحبها كمال الغريب في آب 1947 سأسعى للحصول عليها ونشرها ...

إلا ان الانضباط مع القناعة بمصداقية ومحقوقية الطرد ، لا تكفي لرأب الصدع النفسي ،لقدتصدع شيء فيكياني خسرت اعز رفيق واعز صديق . مأمون أياس نوتاريخ في النشاط والاقدام والقدرة على الابتكار ، الا ان نعمة اكثر صفاء . مأمون على وفائه وشجاعته لا يخلو من كيد او من مكيدة . اما نعمة فعنوان للنبل والفروسية . اذا سقط على جوانب الطريق فان فروسيته لم تسقط .. ودليلي بيان انسحابه . انه لم يفضح فيه سرا ولا ضمنه كلمة نابية . كان موضوعيا حتى وهو يخطىء ، حتى وهو ينسحب من الصفوف التي كان يقودها بمحبة وتفوق .

قال لي سعادة في حديث خاص : هالمنحوس نعمة خسرناه وخسر نفسه . لكننا لن ننسى خدماته وتضحياته عندما نكتب تاريخ الحزب .

لقد علمنا سعادة الانصاف وها نحن ننصف الرفيق القائد الذي سقط .

مهما يكن الانسان قويا . مهما يكن مؤمنا بما يقرر وبما ينفذ ، من المستحيل عليه ان يتجرد من نفسه ، من تركيبه السيكولوجي ، من طبعه .

لقيت نعمة بعد طرده باسبوع واحد ، وكان قد صدر القرار بمقاطعته ، كما كانت قد نشرت مقالتي : الى صديقي الذي كان ، فماذا أصابني ؟ نفذت المقاطعة ، ما سلمت على أعز رفيق ، وأعز صديق ، ولكنني ما رحت لا مباليا . لقيته على درج قصر العدل ، فضبطت اعصابي واكملت سيري دون ان التفت اليه . وما ان بلغت قاعة نقابة المحامين في الطابق الثاني ، حتى أحسست بدوار . كدت ان يغمى علي ، لقد قاطعت نعمة ولكن بضغط غير اعتيادي على أعصابي من ارادتي وقد كادت ان تفلت مني . قاس نظام حزبنا . قاس اكثر من اللزوم . لماذا المقاطعة ؟ الا يكفي الطرد عقابا ؟...

تداركني بعض الزملاء بكوب من عصير الحامض ، وببعض الماء البارد على وجهي . لحظات واستردیت روعي دون ان انقم على نفسي . الطرد عندنا حكم بالاعدام المعنوي . أيحكم على نعمة بالاعدام دون ان احزن عليه او اضطرب !..

بيان انسحاب نعمة من الحزب وبيان طرده والحملة الشاملة عليه وعلى مأمون اياس ، نشرت في جريدة النهار كما نشرت في جريدة الشمس بعد ان تعطلت جريدتنا « النهضة » تبعا لمذكرة التوقيف التي صدرت بحق المعلم .

تأملات في طرد نعمة ثابت ومأمون أياس

قلت ان نعمة ثابت ومأمون أياس بعد طردهما الفا حزبا اسمياه ــ على ما انكر ــ الحزب الجمهوري اللبناني الديموقراطي ، حزبا ولد جهيضا .. سمعنا به لهبة ، ما لبثت ان انطفأت وصارت رمادا تذروه الرياح ! ... حلم الرجلان بشق الحزب واستقطاب الجماهير ، فاذا الحزب جبل واذا الجماهير وراء الحزب لا وراءهما .

تأسيس الحزب الجمهوري من قبل نعمة ومأمون كان الدليل القاطع على ثبوت التهم الموجهة اليهما في العصيان والانحراف .

الا ان هذا الدليل لا يكفي للقول بان سعادة كان على حق في اصدار حكمه . بل ان سرد خبر الطرد ببساطة غير جائز في هذه الذكريات ، لئلا يخطر ببال خصوم الحزب ــ وحتى انصاره ــ ان سعادة كان يتخذ قراراته دون تأسيسها على حيثيات جدية .

فنتأمل .

تساءل الكثيرون خارج الحزب وداخله ، كيف يمكن للزعيم ــ والحزب كله من ورائه ــ ان يتخلى بسهولة عن اثنين من المناضلين في صفوفه ، اثنين من الذين حملوا اعباء جسيمة من المسؤوليات والتضحيات واثنين من الذين اشتركوا مع الزعيم في عمليات التأسيس الصعبة ؟

لقد تساءلت انا مثلا : هل سيأتي دوري ؟

لقد شك بعضنا ــ وبعض الشك إثم ــ رغم موافقتنا على حكم الطرد وتنفيذنا الطوعي لنصوصه والزاماته . يشك الانسان احيانا في نفسه ، فيحاسبها بقسوة ليطمئن الى انه ما أخطأ ولا ارتكب اثما . فاذا جاز لي ان اشك في نفسي ، الا يجوز لي تلقائيا وعفويا بأن اشك بالآخرين ؟... لقد شككت يومذاك .. كتبت مقالي « الى صديقي الذي كان » ، والقلم يرتجف في يدي ، وقلبي يخفق في صدري !... هل يكون سعادة قد ظلم معاونيه الاول ؟

أما كان بالامكان ارجاء القرار ؟ اما كان بالامكان اهمال الرجلين دون طرد وتشهير ؟ اما كان بالامكان اعطاؤهما فرصة أطول لاصلاح النفس ، للرجوع عن الخطأ ... أهكذا يرذل الانسان ابناءه فيلفظهم لفظ النواة ؟ اهكذا يحكم باعدام الرفقاء لأن الطرد كالاعدام وقد كان بامكان المستعمر لو قسا بهم ان يعدمهم قبل اشهر رميا بالرصاص من اجل القضية ؟ ايكتب للمناضل اذا لم يمت برصاص الاعداء ان يموت برصاص رفقائه او رؤسائه ؟

لقد افاق الشاعر في اعماق نفسي ، فتأكلتني الشكوك والتساؤلات ــ ولا بد انها تأكلت غيري ــ طوال ليلة او ليلتين .. الانسان انفعالي احيانا رغم ارادته وغصبا عنه !

وتأملت وتبحرت واستعدت الوقائع .. كما استعيدها الان وانا اكتب هذه الذكريات بعد مرور اثنين وثلاثين عاما عليها . لقد تبحرت وتأملت وحللت وعللت فخرجت بالنتيجة التالية :

لم تكن شكوكنا في محلها لا شكوكي ولا شكوك الآخرين .

لقد كان سعادة على حق . كما كنا نحن على حق في الموافقة على قراراته وتنفيذها .

لقد خسرنا نعمة تابت ومأمون أياس وربحنا انفسنا .

لولا موقف سعادة الحاسم ، لكان بامكان اي منا ان يتلاعب بالعقيدة والنظام ثم يدعي انقاذهما ! القائد الذي يستحق ان يكون قائدا يجب ان يكون مرنا ساعة تفرض عليه الازمات والظروف المرونة ، وحازما صارما ساعة تفرض عليه الازمات والظروف الحزم والحسم !...

لقد كان سعادة على حق في طرده نعمة ومأمون ، والا كانت عقيدتنا ونظامنا حروفا .. لا حياة ! كانت اشكالا لا قواعد . لقد اثبت المعلم انه قائد نهضة ومؤسس عقيدة .

ثم ماذا وفر سعادة من الوسائل لانقاذ نعمة ومأمون ولم يفعل ؟ القياديون انفسهم يقعون في الخطيئة او في الخطأ فاذا لم يحاسبهم المسؤول الاعلى ، كيف يجوز لهم هم ان يحاسبوا الادنى ؟...

الحوارات والمناقشات بينه وبينهما استمرت على مدى خمسة اشهر .. ما عرض عليه تأجيل القرار الا ورضي بفرح . ما كان قصده التخلص من رفيقين مناضلين اشتركا معه في التأسيس بقدر ما كان قصده انقاذهما مما كان يعتقده اخطاء

وانحرافات !...

ولنتأمل بعمق :

ان اقدام سعادة على طرد نعمة ومأمون كان جرأة وحكمة معا . جرأة لان قطع رفيقين من القيادة فيه شيء من المغامرة . في ظروف مذكرة التوقيف . كان بالامكان ان يضعف بعض الاعضاء ويلحقوا بنعمة ومأمون ويتمردوا او ينشقوا . باغراء من السلطة او انتصارا لنعمة ومأمون ؟...

حسب سعادة كل هذه الحسابات واحتاط لها واقدم . لقد ثبتت التهمة .. يجب ان يصدر الحكم .. وصدر الحكم صارما ولكن عادلا ... فيه مغامرة ولكن فيه اقدام . القائد لا يساوم على قواعد النهضة ونظامها . النظام عندنا عامود آخر تقوم عليه حياتنا الحزبية .. اذا سلمنا بخرقه بسهولة سلمنا في آن معا بان العامود هذا يمكن ان يهدم ويسلم البناء ، الامر غير المعقول وغير المقبول . الحزب يقوم على عامودين ــ ركيزتين النظام والعقيدة . والنظام ليس فقط انضباطا وتقيدا بالنصوص انه ايضا اخلاق ومناقب .

من اهم مزايا سعادة وفضائله ثقته بنفسه وبحزبه وبشعبه . كان واثقا انه على حق ، وكان واثقاً ان حزبه بنيان مرصوص وكان واثقا ان رفقاءه يطيعون قراره بأكثريتهم الساحقة . وكان قد استفتاهم . بشكل او بآخر ــ ساعة كان يستدعيهم فرادى للتداول معهم ، وساعة جمع مسؤوليهم في ضهور الشوير ليعرض عليهم علنا المواقف اللاقومية لنعمة ومأمون .. لقد اتخذ كل الاحتياطات ، فلم يبق عليه الا ان يقدم !...

القائد لا يتردد ولا يساوم ، وليكن ما يكون !... كان سعادة يفضل انهيار الحزب وتشتته اذا انهارت فيه القيم والمناقب او انهار الصفاء العقائدي والاخلاقي !..

بعد مرور اثنين وثلاثين عاما على طرد نعمة ومأمون ، وعبر التأمل ، اقول : لقد كنت على خطأ لأني شككت ، ولكان سعادة ارتكب خطيئة لو انه لم يطرد نعمة ومأمون ــ رغم محبتي لهما وصداقتي ورغم نضالهما والتضحيات ، ان من يخطىء يجب ان ينال جزاءه ، ومن يعبث بالنظام والعقيدة يجب ان يدفع الثمن ...

ولكن لو ان القرار صدر عن غير سعادة ، ماذا كان حدث ؟....
الصحيح ، واقولها بصراحة وجرأة ، ان المجلس الاعلى ــ وكنت من اركانه ــ ما

كان يجرؤ على اتخاذ هذا التدبير . كان سعادة وحده القادر على طرد نعمة ومأمون دون احداث هزة في صفوف الحزب . عندنا وفي العالم لا يزال التعلق بالشخص قائما وفاعلا . لو طردهما المجلس الاعلى ، رغم تعلق القوميين بالنظام كانت حدثت بلبلة وانهيارات اذا لم يحدث انشقاق تنفتح ثغرات في جدارنا المكين !...

لقد تجرأ المجلس الاعلى فيما بعد واتخذ قرارات صارمة نتج عنها ما نتج ، ولكن قدوة سعادة كانت هي القبس والطريق والدليل .

قدرة سعادة لا تزال فاعلة في كل ما يطرأ امامنا من مشاكل وما يقوم من عقبات . اننا بهديه لمهتدون .

يبقى امر لا بد من طرحه . مرمرني ومرمر الكثيرين ولا يزال .

كيف نتحول بين لحظة ولحظة من جنود نطيع قادتنا الى مقاطعين لهم ، مزورين عنهم ، نلقاهم فنغير طريقنا ، نصادفهم فنهرب من وجودهم !

أليس في المقاطعة ما هو خارج عن المألوف ؟ اليست مقاطعة الرفيق المطرود احيانا عملية مستحيلة ؟...

تألمت من المقاطعة كما تألم غيري .. ولا أزال أتألم . ولكن هل يكفي ان تكون المقاطعة مؤلمة ومرة لكي لا تكون صحيحة ؟...

ان هذا الموضوع لا يحسم بسهولة ولكنه هام . عندما نتخذ قرارا بمقاطعة المطرود حياتيا ، نعرف اننا نطالب القوميين بأمر جلل ، شاق مضـــن احيانا . ان الرفقاء اضطروا احيانا ان يقاطعوا آباءهم واخواتهم في المنزل الواحد !...

ماذا يريد الناس منا ؟ نفترض ان كل رفقائنا جبابرة . يقتلون احاسيسهم ولا يتمردون على قرارات القيادة !.

لقد كاد يغمى علي ، عندما شاهدت نعمة تابت بعد طرده لاول مرة ، واشحت عنه بوجهي ، لكثرة ما ضغطت على اعصابي تنفيذا لقرار المقاطعة .. ولكني نفذت . هكذا يفعل القوميون الاجتماعيون دون استثناء . هكذا نربيهم ان يكونوا جبابرة في مواجهة انفسهم ، وفي مواجهة الآخرين !...

هل تكفي الطاعة والخضوع ، لتكون المقاطعة حقا ؟ هذا الموضوع للاجيال الجديدة والاجيال العاملة لاشباعه درسا .. وتمحيصا وتحليلا !

المهم في كل هذا ، ان المواقف المبدئية ، المواقف الجذرية ، هي التي تحفظ الامم وهي التي تحفظ وتصون الاحزاب . كل تساهل في المبدئيات له وجه اسود وقد يسجل سابقة ومنحى ، فتكر المسبحة وتفرط !

كنا في فصل الصيف . الزعيم لا يزال « متواريا » في ضهور الشوير . استأجرنا له فيلا قريبة من مطل الدير في الطرف الشمالي من البلدة . كانت الفيلا ــ رغم الملاحقة ورغم مذكرة التوقيف ــ قد استحالت الى مزار . تتوالى الوفود من كل المناطق مسلمة مؤيدة معجبة. المفاوضات كانت قد قطعت شوطا بعيدا مع اركان الحكومة بواسطة الاستاذ غبريال المر ، والجو المكفهر بدأ يميل الى الانفراج . توقفت تصريحات الوزراء ورجال الامن بانهم سيلقون القبض على انطون سعادة حيا او ميتا كما خفت حدة المطاردة في الجبل .

قرر سعادة استدعاء عا ئلته من الارجنتين على جناح السرعة . لم تكن الطائرات مرغوبة ولا متوفرة فارتأى استقدامها بحرا .

وصلت برقية عقيلته الرفيقة جوليات المر (من ميناء طرابلس اصلا) تنبىء بوصولها مع كريمتيها صفية واليسار بالباخرة اسبيريا اذا لم اكن مخطئا . كان ذلك في تموز او آب 1947 .

انتدبني سعادة مع العميد صائغ لنؤمن استقبالها على مرفأ بيروت ونقلها الى الضهور . لا انكر من كان معنا من الرفيقات ولا كم باقة زهر حملن اليها . كما لا أنكر من كان معي من الامناء والرفقاء .

اخذنا ترخيصا بالصعود الى الباخرة .

لم نكن نعرف القادمات العزيزات قبلا ولا شاهدنا لهن صورا ، فاعتمدنا على التيار المغناطيسي الذي ينتقل من انسان الى انسان ليدل الواحد على الآخر !... كنا نؤمن بالانجذاب الروحي .

واقبلت الباخرة قبل الظهيرة بقليل تتهادى على الازرق الرجراج . ثم راحت تقترب رويدا من الشاطىء ، ونحن نتحرق شوقا لنرى وجه الاسرة الصغيرة التي بناها سعادة في مغتربه القسري !...

ما ان سمح لنا حتى رحنا نعدو لنصعد الى ظهر الباخرة مرورا بالسلسال الذي يصلها بالرصيف . لقينا وجها ملائكيا وطفلتين ... فاندفعنا نؤدي التحية : الرفيقة جوليات . نعم !... وصفية واليسار تحبوان صغيرتين امامها . حيينا وحمل كل منا واحدة . اليسار كانت من نصيبي . ورحنا ننزل على مهل من سلم الباخرة الى الرصيف .

بهرتنا زوجة الزعيم بنقاء وجهها وشعرها الاشقر وعينيها الزرقاوين اصفى من سماء لبنان ووداعتها الضاحكة كبحرنا عندما يستحيل الى بساط يغازل النسمات والشمس . احسسنا اننا امام ملاك في ثوب إمرأة . ما كان بالامكان ان ينتقي سعادة احلى ولا انقى منها شريكة حياة وشريكة نضال !...

اول ما لمع في خاطري ، وانا احمل اليسار طالبا الى الرفيقة جوليات التأني وهي تنزل على الدرج الهزاز ، كيف يمكن لامرأة بهذه النعومة والرقة ان تحتمل حياة سعادة الصاخبة المصارعة المتحدية ؟...

وامتلأ البيت فرحا واعجابا بالعائلة الصغيرة القادمة من الارجنتين تعلمنا العربية الفصحى ، عربية ابن المقفع والجاحظ !... ذاك لأن العائلة كانت تتكلم الفصحى لا العاميـــة .

فاستأثننا وانصرفنا

خلوت الى نفسي اكتب كلمة ترحاب للأمينة .

عبد المسيح كان قد هيأ لها الاسم : الامينة الاولى تمشيا مع التقليد المتعارف عليه عالميا عن عقيلات الرؤساء : اللبنانية الاولى .. الفرنسية الاولى ... الخ ...

وعرفت في ما بعد زوجة سعادة بالأمينة الاولى وكانت الرتبة جديرة بالمرأة المثالية كما كانت المرأة المثالية جديرة بالرتبة .

وكتبت كلمة الترحاب في مجلة الاجيال ــ على ما اذكر ــ سأحاول البحث عنها . الى الان بعد مضي اثنين وثلاثين سنة ، لا تزال ترن في انني كلمات صفية واليسار : اريد ان آكل . اريد ان انام . اريد ان العب مع الصغار . لا أريد . لا أريد !...

اللغة العربية الفصحى التي كان سعادة يريد ان يدرب الحزب على استعمالها في الاحاديث الجارية ، اليست دليلا على ان الامة السورية امة عربية ؟

الدكتور فايز صايغ

لعائلة الصائغ ـ الفلسطينية الاصل ـ اثار في حزبنا باقيات . فالدكتور يوسف الذي كان في الندوة الثقافية والدكتور انيس مؤلف الاسطول الاموي ولبنان الطائفي والدكتور فايز ـ عميد الثقافة والاذاعة لفترة من الزمن ـ أسماء متفوقة وروافد فكرية وادبية اغنت تراثنا الثقافي وأخصبته ، وان كان الدكتور فايز قلب لنا ظهر المجن في كتاب الى أين ، وفي خروجه من الحزب تمسكا بما أسماه حرية الفكر !

أبادر الى القول ، ان سعادة ما كان متساهلا ولا متسامحا في الشأن العقدي ولا في الشأن الاداري . كان دقيقا في مطالبتنا بالالتزام بالقسم الحزبي التزاما كاملا . نحن لم نقسم اليمين عبثا او استرسالا مع حماس الساعة . لقد اقسمنا بأن نقف انفسنا على القضية القومية بكل مركباتها الفكرية ـ السياسية ـ الادارية ـ الاخلاقية وان نطبق النظام على انفسنا اولا لنستطيع تطبيقه على الاخرين !

من هنا ، ذهب سعادة في محاسبتنا مذهبا صارما ، رغم ان ملاحظاته على ما نكتب او نخطب كانت لطيفة ، ناعمة ، مداورة فيها روح الابوة اكثر من روح الزعامة .

واذا راجعنا ما كتب الى غسان تويني وهو لا يزال في مغتربه القسري في الارجنتين ، بشأن فايز صائغ ونعمة ثابت (والواقع اللبناني) نجد بأنه توقف عند آرائه طويلا وفندها ، وفصلها ، ورد على تساؤلات غسان وحججه ودحضها ، واثبت انه لا يقبل في الحزب الا الصفاء العقائدي المطلق . كان يعلمنا ان نقتنع فنمارس ، فنكمل الطريق على دربه لا ان ينتقي كل واحد منا دربا خصوصيا يسير عليه كيفيا .

ولعل قصة فايز صائغ دليل ساطع على صحة هذا القول . كتبت في حلقة سابقة كيف ان فايز صايغ منذ حداثته ، منذ ان كان في الخامسة عشرة او السادسة عشرة من عمره كان يكتب مقالات فيها نكاء ، واتقاد ذهني وتطلعات تتجاوز سنه . وقلت انه حاز اعجاب سعادة واعجابنا جميعا ، ورحنا بدون اي استثناء ، ننتظر نموه وشهاداته لكي

نصادره للعمل الحزبي كليا ، لان الذين يتربون في النهضة صغارا ، ويستوعبون التعاليم جيدا ، ويبدأون بالممارسة والعمل والانتاج باكرا ، ينطلقون الى الآفاق البعيدة دون توقف ودون تردد ودون حسابات .. للمخاطر والاهوال والمتاعب . اولئك هم الذين كنا ندخرهم للايام المقبلات ، ليأخذوا عن اكتافنا بعض الاحمال وبعض الاثقال . لا بد ان يأتي يوم لحفلة تسليم السيوف من الزنود العتيقة الى الزنود الجديدة !

يكفي ان عشراء فايز الصايغ كانوا الشلة المعلوفية ، من فخري الى رشدي الى حلمي الى فوزي الى فايزة معلوف . ويكفي ان البيت الذي ربي فيه بيت علم وأخلاق ووطنية . ويكفي ان نجمه بدأ باللمعان والتألق وهو لا يزال غض الاهاب طري العود !... يكفي كل ذلك ، لكي يؤهله الى القفز بسرعة الى الطليعة ، الى القيادة وبالفعل مشى فايز اليها كأنما كانت قدره كأنما كانت بانتظاره قبل ان يطمح هو اليها .

خالف المجلس الاعلى النظام الذي كان قد اصبح عرفا ، وهو انتقاء اعضائه من بين الامناء ، وانتخب فايز صايغ عضوا فيه وهو لما ينل رتبة الامانة بعد . ثم لم يلبث ان اصبح عميدا للثقافة والاذاعة وموجها لمجلة الحزب الثقافية . في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، كان فايز صايغ ــ وهو لا يزال على مقاعد الدراسة ــ لولبا دائم الحركة . كان خلاقا وكان ديناميكيا . فالى جانب تغطيته الحلقات الاذاعية ، وقيامه بواجبه كعميد في مجلس العمد او كعضو في المجلس الاعلى، كان يؤلف ويحاضر ويخطب ويحدث وينشر المقالات ويطبع الكراريس (الكراس عن الطائفية مثلا) . خصوبته الفكرية كانت مدهشة . ما وضع الحزب مذكرة الى الجامعة العربية او غيرها الا وهو كاتبها بعد ان يضع المجلس الاعلى ومجلس العمد خطوطها العريضة ، والافكار والمواقف التي تتضمنها . كما ان مهرجانات الحزب كانت تقوم على قلمه او على لسانه في معظمها . ليس هذا الكلام انتقاصا من قيمة سواه ، فكريم عزقول كان محللا للفكر القومي ، في جوانبه الفلسفية والاجتماعية وحتى السياسية . وكان كريم عزقول يضرب في الاعماق الا انه كان فعلا يغلب عليه التمهل حتى البلادة . اما فايز فنبع فياض دائم الدفق .

فينا نحن القوميين الاجتماعيين مزية قد تكون نادرة عند سوانا . عندما يبرز فينا متفوق ، نفسح له في المجال ان يبلغ الذرى بسرعة ... يكاد الحسد في ما مضى ان يكون مفقودا من صفوفنا . لذلك قلت ان كل القادة تسابقوا على تقدير فايز صايغ وعلى دفعه الى امام .

هل اصيب فايز ، لكثرة ما صفقنا له وما اعجبنا به بعقدة التفوق ؟ هل كان يضمر في نفسه خطة ما ، هل كان يكثف نشاطه ، ويوسع حدود عطائه ، لغاية ما في نفسه ، ام ان صفاءه كان مطلقا في ولائه للقضية ؟

كشاهد اكتب . وكشاهد اقول ، بأني لم اقع على دليل محسوس، او على مؤشر ثابت ومنتج ، اتخذ منه سببا لموقف ايجابي من هذا السؤال ؟

لا اكتم ان المتفوقين ، في حزبنا او في سواه ، يفرضون انفسهم ، يمثلون بمواهبهم المراكز الامامية ، مراكز الصدارة . الا اننا نتميز عن سوانا ، ان احدنا يقفز الى مقام الرئاسة فيأمر وينهي ويقود ويحكم ، ثم لما تنتهي مدة ولايته يعود الى بيته جنديا بسيطا . انا نفسي ، من رئاسة المجلس الاعلى ست سنوات ، عدت مديرا لمديرية الطلبة الجامعيين سنة 1957 . تصوري ان فايز صايغ كان طموحا اكثر من اللازم ، بالنسبة للمقاييس التي نقيس بها قادتنا . كان اميل الى حب الظهور . نحن لا نمانع ، ولا نعرقل ، ولكننا نسجل نقطة سوداء لمن لا يصهر نفسه كليا في مصلحة الحزب . الحزب يجب ان يظهر على اكتافنا جميعا . الحزب ليس سلما لنا ، نحن سلم للحزب ، كلما صعد درجة أعلى بواسطة جهادنا ، ننال رضى النفس وطمأنينة الضمير !...

أقولها بصراحة : هذا امر مشكوك فيه جدا . يغلب علي الاقتناع بأن اساس انهياره فكري ووجداني . لقد كان الرجل في محيط الجامعة الاميركية ، ومدرسة شارل مالك ، ميالا الى التبعية لفلسفة كيركيغارد وبردياييف! المجتمع عنده يجب ان يكون واسطة لينا ع الفرد ، فيما نؤمن نحن اننا يجب ان ننوب في المجتمع ، نحن كلنا امكانات بيد المجتمع ، لانه كلما ازدهر ازدهرنا وتسامى تساميا وتحرر تحررنا .

هل يكون حب الظهور عند فايز صايغ ، نتيجة قناعاته الفكرية بفلسفة كركيغارد وبردييايف وسواهما ، ام أن حبه للظهور وجد في فلسفتهما منفذا للتصاعد والانفلاش ؟

المهم اننا في القيادة كنا مأخوذين بنبوغ فايز ، وتفوقه ، ولمعانه . بيانه في مجلة الحزب الثقافية ، لم يلاق منا اعتراضا ولا انتقادا . قبلناه ، لأننا كنا نعتبر فايز المعبر عن فكر الحركة وفلسفتها . ففكر الحركة وفلسفتها ما يقوله فايز وما يكتبه فايز . لم نكن نشك في أنه يخرق عن قصد اسسنا الفلسفية ــ العقائدية ، اللهم الا ما بلغني من أن الامين جبران جريج والدكتور كريم عزقول عارضا بيانه الثقافي الذي كان منطلق سعادة

لمحاكمته وادانته والذي سيأتي الحديث عنه عارضاه وانتقداه في مجلس العمد . كما ان المجلس الاعلى نفسه حاول ان يصوب بعض ما رآه خطأ (مراجعة رسالة سعادة الى نعمة ثابت ــ صباح الخير عدد 224) .

لكي نستطيع ان نتابع ــ بدقة ومسؤولية ــ الخط البياني لصعود فايز صايغ وهبوطه ، يجب ان نبدأ باستعادة بعض المقاطع من خطابه يوم عودة سعادة في 2 آذار 1947 . لقد رفع سعادة في خطابه الى اعلى عليين . قال صايغ يومها :

أيها الزعيم الجليل :

لئن وقفت في هذه المناسبة السعيدة وفي هذا اليوم الرهيب لاقول ان في قلب كل قومي غبطة بمقدمك ونشوة برؤيتك ، فانا اقول حشوا ...

ولئن وقفت احاول ان اصف لك شوق القوميين وولاءهم وتعلقهم فانا أحاول المستحيل لان الشعور الذي عبر عنه هذا الحشد الرهيب لا يمكن للكلمات ان تنقله او تصفه او تعبر عنه .

ولقد لمست ذلك ولا بد بنفسك فانك لم تطأ منذ هبطت من الطائرة ارضا وانما وطئت قلوبا ترفرف وحناجر تهتف وتزغرد وأيدياً تصفق وعيونا ترافقك أنى تحركت .

ووسط هذا المشهد كله تنطلق كلمة واحدة تعبر عن كل قلب وكل فكر : « ايها الزعيم اننا على استعداد » .

ولئن شئت شهادة ابلغ من شهادة القلوب والحشد فان على مرمى الحجر من هذه البقعة يثوي شهيد ، شهيدنا الاول ، يشهد لك على صدق ما أقول ، ففي صمته الرهيب شهادة صارخة تقول ايها الزعيم : اننا على قسمنا مخلصون ، نسير وراءك حتى الموت ، تسير الامة على جثثنا قدما نحو الحياة .

ثم ان نتابع ما كتب في المدة الواقعة بين 2 آذار 1947 واواخر تشرين الثاني من العام نفسه . ثم ان نتأمل في « رسائله » المدونة في نشرتنا الرسمية او الصحف التي كنا نعتمدها لبث افكارنا وآرائنا في صيف 1947 وخريفه . الرسائل التي اشير اليها أثارت ضجة كبرى في الصفوف . فقد كتبها وهو في الطائرة الى افريقيا حيث سافر بناء على طلب من الزعيم لجمع بعض التبرعات والقيام بمهمات اذاعية سياسية ، وراح الرفقاء يحللونها فمنهم من يقول انه يخاطب سعادة عبرها لائما معاتبا ، ومنهم من يقول انه يقصد حبيبة لا يريد ان يسميها .

في افريقيا الهب القوميين ، وأثار فيهم النخوة والتسابق للتبرعات ، كما عقد مؤتمرا صحفيا وزار اركان الحكومة وتحدث الى الجالية في المآدب التي أقيمت على شرفه . ولقد عاد الى الوطن من رحلته الموفقة ماليا واذاعيا ، ليجد ان سعادة كان قد اتخذ من افكاره وآرائه و« فلسفته » موقفا حاسما . لقد صبر طويلا . لقد ناقشه في هذه الافكار والآراء « والفلسفة » ساعات طوالا . فايز قال لي انه جلس معه في ضهور الشوير تحت الصنوبر في ذلك الصيف ثلاث عشرة ساعة متواليات . ولكن فايز كان عنيدا كما كان سعادة متصلبا في ما يراه حقا . فايز عنيد في موقفه من ان المجتمع وسيلة لينا ع الافراد ، وسعادة متصلب في فلسفته بأن الافراد سلم يصعد عليه المجتمع كشخص معنوي ، ولتحقيق الخير والعز لكل الافراد الذين يتألف منهم . من البديهي ان سعادة كان على حق ، وكان تصلبه وعناده في موقعهما ، بينما فايز كان قد اتخذ مذهبا معينا ، وكتب فيه ، فكبرت عنده مسألة ان يتراجع ، فيظهر امام القوميين وكأنه انهزم كما يمكن ان تكون قناعاته وقفت حائلا بينه وبين التراجع .

استدعاني سعادة الى منزله في احدى الليالي بعد الغاء مذكرة التوقيف بحوالي الشهرين وذلك قرب مستشفى الدكتور خالدي في رأس بيروت ودفع إليّ برسالة مكتوبة بخطه غير موقعة . يمكن ان نكتب انها مشروع رسالة . كانت موجهة الى عميد الاذاعة والثقافة الرفيق فايز صايغ . قرأتها بامعان ثم استعدت قراءتها . انها دعوة الى الرفيق فايز ان يتقيد بعقيدة الحزب ، كما وضعت وعلمت ونشرت وشرحت والا يستخدم مركزه القيادي في الحزب للتبشير بعقيدة او بآراء تناقض العقيدة القومية او على الاقل تخالفها اسسا ومنطلقات ومضمونا .

قلت للمعلم : الرسالة صحيحة . ولكن هل قطعت الامل من اقناع فايز بخطئه ؟ الم يكف فعلا عن التبشير بآرائه المخالفة او المناقضة لفكر الحزب ؟

قال سعادة : يبدو ان فايز لم يقتنع بانحرافه وانه مستمر في قناعاته .

قلت : والرسالة .

قال : انها الانذار الاخير . عندما يعود من غانا سأسلمها اليه ، بعد ان يكون اطلع عليها مجلس العمد ، والامناء الذين يدركون اهمية الموضوع .

قلت : بالنسبة لي ، بعد ان شرحت لنا بالتفصيل ، الانحراف الفكري في كتب وأدب ومحاضرات الرفيق فايز ، لا أرى اي مانع من تسليمه الرسالة ووضع حد لانحرافه .

اما الرسالة المؤرخة في 30 تشرين الثاني 1947 والمنشورة في كتاب شروح في العقيدة صفحة 137 فهاكم بعض مقاطعها :

" الى حضرة عميد الاذاعة والثقافة الرفيق فايز صايغ

حضرة العميد المحترم

اهنئكم بعودتكم سالما معافى من رحلتكم الى منفذية الشاطىء الذهبي واني انتظر الوقوف على تقريركم واعمالكم الاذاعية هناك لابدي تقديري .

بعد مرور ايام قليلة على سفركم استردت الحكومة اللبنانية مذكرة التوقيف التي كانت قد طلبت اصدارها ضدي على الطريقة التي وردت في بلاغ عمدة الاذاعة . وهكذا انتهت تلك المشادة بين الحزب والحكومة اللبنانية . ومنذ التاسع من شهر تشرين الاول الماضي صار يمكنني ان استأنف القيادة الانشائية التعميرية في الحركة القومية الاجتماعية التي اضطرتني الظروف المعاكسة الى البقاء بعيدا عنها تسع سنوات في المغترب وتسعة أشهر في المشادة مع الحكومة اللبنانية .

كان همي الاول بعد اجتياز تلك المرحلة الاستثنائية الملأى بالحوادث الغريبة وبعد تطهير الحزب من أخبث مؤامرة وخيانة تعرض لهما منذ نشأته الى اليوم ، ان انظر في سلامة العقيدة القومية الاجتماعية وفلسفة نهضتنا الاجتماعية وفي وحدة نظر الحركة القومية الاجتماعية الى الحياة والكون والفن وان اضبط التوجيه الفكري في الحركة بما ينطبق على العقيدة القومية الاجتماعية التي نشأت منها الحركة القومية الاجتماعية لتحقيق مثلها العليا وأهدافها .

ان اطلاعي وانا بعد في الاجنتين على بيانكم الاساسي لعمدة الثقافة منشورا في العدد الاول من مجلة عمدة الثقافة ثم وقوفي عليه بصورة اكمل منذ نحو شهرين ونيف ، منشورا في العدد الخامس من النشرة الحزبية الدورية التي كانت تصدر عن عمدة الاذاعة ثم اطلاعي مؤخرا منذ نحو عشرين يوما تقريبا على نسخة من البيان المذكور كما قدم في المجلس الاعلى ، اظهر لي انكم اعتمدتم قواعد للفكر والاتجاه غير قواعد النهضة القومية الاجتماعية واولتم غايتها ونظامها ومركز عمدة الثقافة فيها بما لا ينطبق على عقيدتها وغرض عمدة الثقافة المؤسسة لها . وقد اطلعتم على بعض ملاحظاتي الاولى على بيانكم المذكور التي ابديتها للرفيق غسان تويني ولخصتها في الكتاب الذي ارسلته من الارجنتين الى المطرود نعمة ثابت وهو بعد رئيس المجلس الاعلى غير الدستوري الذي تشكل في غيابي .

.... ان الابحاث المذكورة واتجاه نشاطكم الادبي والاذاعي تحمل كلها نظرة برديايف وكركيغـارد الى الانسان والمسائل الانسانية . ونظرة كركيغـارد وبرديايف الشخصية الفردية ، التي ترى الشخصية الفردية الجوهر والغاية والتي تترجمون عنها في « الهدف » بقولكم « ان شخصية الانسان (الفرد) ونموها هي غاية المجتمع الرئيسية ، ان المجتمع ليس سوى واسطة لهذه الغاية . وبقولكم « انه لخطأ القول بشخصية للمجتمع وان المجتمع عدد من البشر ليس الا » هي نظرة مناقضة كل المناقضة لنظرة سعادة التي بها نشأت الحركة القومية الاجتماعية وعلى خططها تسير . ان ترجمة النظرة البردايفية والكركيغاردية الى العربية وتعريف الفكر السوري بها لا يكون شيئا يوجب الاعتراض . ولكن يوجب التدخل والتوقيف محاولة احلال النظرة الشخصية الفردية المذكورة محل التعاليم القومية الاجتماعية ونظرة النهضة القومية الاجتماعية واستخدام اجهزة الحركة الاذاعية لبثها بدلا من تعاليم الحركة نفسها التي نشأت تلك الاجهزة لها خصيصا والتي تدور على محور المجتمع وليس على محور الفرد والشخصية .

... واني مستعد لمباحثتكم شخصيا في جميع الاحوال الفكرية التي تساعدكم على اعادة نظركم في اتجاهاتكم الشخصية ضمن الحركة القوميـة الاجتماعيـة وفي مسؤولياتها وفي جميع القضايا التي يمكن ان تكون موقع قلق لتفكيركم .

واني اعتقد ان مصيركم في الحركة القومية الاجتماعية يجب ان يكون غير مصير الاهتمام بقضية الشخصية الفردية التي تبقى شخصية بحت مهما عممت ونحن في مجال قضية المجتمع وليس قضية الفرد». الخ ....

بعد ان مرت هذه الرسالة بكل من يثق سعادة بوعيهم لموضوعها ومضمونها ، انتظر سعادة عودة العميد فايز ، ودعاه اليه وسلمه اياها . لم يكن يقصد احراجه بقدر ما كان يقصد دعوته الى الصواب باعادة النظر في افكاره .
لم يستجب فايز .

ثارت ثائرته وراح يستنهض بعض المعجبين بأدبه وتفوقه في الحزب وفي طليعتهم الدكتور نويهض ، يوسف الخال ، فؤاد سليمان ، غسان تويني ، حلمي معلوف ...

وجهة نظر فايز ان سعادة خرج على الدستور . وانه يريد الاستئثار بالسلطة . وانه طاغية . وان من حقه هو فايز ان يبشر في حقول الحزب بأفكاره لانها حسب رأيه لا

تخالف ولا تناقض العقيدة السورية القومية الاجتماعية في الاساس . وجهة نظر فايز ان العقيدة تفرض على القومي الاجتماعي الايمان بالامة السورية ، اما الفلسفة المدرحية وسواها فلم ترد في القسم الحزبي ، ولا يجوز التعرض للقوميين سواء بها آمنوا او لم يؤمنوا .

الرفقاء الذين ذكرتهم فوق تحمسوا في البدء لافكار فايز . كلهم من المدرسة المالكية ــ نسبة الى شارل مالك . جاءني فايز ومعه فؤاد سليمان ويوسف الخال الى منزلي قرب كنيسة الكبوشية في شارع الحمراء ، وقصدهم ان يقنعوني ان فايز على حق والزعيم على خطأ . وان اقف الى جانب فايز وادافع عنه . كنا قد مررنا بتجربة نعمة ثابت ومأمون أياس ونقنا منها الامرين ، لان الانسلاخ عن رفقاء العمر مهما كانت مبرراته علقم وحنظل ، وها نحن في مواجهة قضية الفردية والمجتمعية ، وقد اراد فايز ويوسف وفؤاد ان يبسطوها بالقول ان موقف سعادة ينقض اصول الحرية الفكرية في الحزب !

حاولت بكل ما اوتيت من قوة ، ومن محبة لرفقائي ، ان اجد حلا . وكان الحل عندي ــ أنا غير الاختصاصي بالفلسفة ــ ان اجد منفرجا وقتيا يسمح بالحيلولة دون اتخاذ موقف حاسم . استفدت من ان فايز صايغ مسافر الى اميركانيا لاكمال دراساته الجامعية والحصول على دكتوراه في الفلسفة P.H.D فافتيت بتعليق المناقشات الفكرية مع سعادة . ريثما يتسنى لفايز ان يستزيد من مناهل الفكر في دراساته العليا ، فان اصر على موقفه يصمد ، وان اقتنع بنظرة سعادة ، تسقط كل المشاكل

اذكر يومئذ ، لعظم ثقتي بانطون سعادة ، بعلمه واخلاقه وقدرته اني قلت للرفقاء الثلاثة : اني مستعد ان اعلق على صدري يافطة مكتوب عليها : اني جندي صغير في جيش سعادة .

اجل كان ايماننا بالمعلم قد بلغ درجة اليقين ، ولا قوة تستطيع ان تزعزع هذا الايمان .

أمام هذا الايمان توقف الرفقاء الثلاثة . شعروا اني اعبر عن الرأي العام القومي كله ، من القيادة الى الصفوف . اثرت في نفوسهم ، كلهم من رفقائي المقربين الى قلبي . فؤاد سليمان في طليعتهم . ما كنت اتصور ان فؤادا ويوسف يمكن ان ينحازا الى فايز صايغ ويتخليا عني ، بقطع النظر عن تأثير سعادة عليهما ، عقلا ونظاما .

كان اقتراحي ــ وتظاهروا بالقبول به ــ ان يؤجل طرح فايز صائغ لما بعد عودته من اميركانيا ، وان يوقف سعادة اتخاذ اي تدبير اداري بحقه .

كانت الساعة الثالثة صباحا لما انصرف الرفقاء الثلاثة من منزلي مقتنعين باقتراحي .

باكرا كنت اطرق باب المعلم قرب مستشفى خالدي . بشرته ان فايز لن يعلن انسحابه من الحزب وسيسافر قوميا اجتماعيا . وطلبت بالحاح ان يوقف مرسوم طرده . وعد سعادة ونفذ .

في المساء كنت في بيت الرفقاء حلمي وفوزي المعلوف لاودع الرفيق فايز . يا لهول ما سمعت . فايز مصر على افكاره يحرض الموجودين على التمرد . وقفت ، كان الرفيق شوقي خير الله حاضرا والدكتور بديع نويهض وحلمي معلوف . ايها الرفقاء من آمن بسوريا وسعادة فليتبعني ومن آمن بفايز صايغ فليبق .

اذكر ان اثنين فقط بقيا والآخرين انصرفوا معي .

غسان التويني ، وكان جثمان والده سيصل صباح اليوم التالي من الارجنتين ، كان يطرق الباب قادما ليودع فايز . حييته معزيا وهرولت مسرعا مع مرافقي !

من اقرب محل هتفت بالمعلم . « لقد خاب ظني بفايز . لقد نكص بوعده . حضرة الزعيم ابلغ المجلة لتنشر قرار الطرد » .

تركت الهاتف ، وكعادتي في حب رفقائي ، رحت اندب فايز ، كأنما طرده قد اماته في قلبي كما أماته من صفوف الحزب !... صحيح اننا نطرد رفقاءنا من صفوفنا ، الا انه من الصعب طردهم من قلوبنا !.....

تأملات في طرد فايز صايغ

لم تكن العلاقات بيني وبين فايز مكينة كعلاقاتي بنعمة تابت ومأمون اياس . ما التقينا في السجن ولا في المعتقل ولا في المشارد ولا في المنافي ... اكثر ما كان يربطنا متانة هي الروح الرفاقية ــ وحدة الروح ــ والاعجاب بتفوقه ونكائه الخارق . ما اوجعني طرده كما اوجعني طرد الآخرين . تبقى الحرقة ان حزبنا خسر طاقة مميزة . خسر سلاحاً فكرياً ماضياً . خسر داعية . ومحاوراً طلق اللسان ، واسع المعرفة ، بليغ التعبير ، جريئاً مقداماً . اقول مقداما لأنه كاد يوماً ان يقتل في كمين في جل الديب اقامه بعض خصومنا العقائديين انذاك !... ولكنه رغم تعرضه للخطر واصابته بجراح ، استمر يزاول مسؤولياته كأن شيئاً لم يحدث . الخسارة اذن كانت فادحة . القضية القومية بحاجة الى فرسان ، لا الى خسارة وافتقاد فرسانها .

التقيت الاستاذ النقيب فؤاد رزق ، ــ وكنت احاول جديا استدراجه الى لقاءات فكرية تقنعه بدخول الحزب ، كما كنت افعل مع النقيب جان تيان والاستاذ عبد الله لحود ــ امام محكمة البداية المختلطة في قصر العدل وانتحيت به زاوية وسألته : هل صرت مستعداً لقبول الدخول في الحزب ؟ فأجاب : « بعد حادثة فايز صايغ لا » . فهمت كل شيء . الناس تريد ان تدخل الحزب ولكن بشرط ان يبقى كل حاملا تحت ابطه كتاب قاموسه وفلسفته وقناعاته الخصوصية . ادركت لماذا كان يبحث سعادة عن تلامذته الاول بين الشباب الذين لم يلتزموا بعد بموقف ، بفلسفة ، بقناعات معينة !... فهمت معنى الولادة الجديدة عند الدخول في الحزب . حزنت لأن حادثة طرد فايز صايغ انعكست على النقيب فؤاد رزق انعكاساً سلبياً ، فالنقيب رزق ــ الذي صار فيما بعد وزيراً للعدل ــ قيمة حقوقية واخلاقية رفيعة ــ لو ربحناه لربحنا طاقة كبرى .

قبل سفره ارسل فايز صايغ بياناً بالانسحاب من الحزب علله بما ارتأى من آراء . ابرز ما فيه التوتاليتارية « وطغيان سعادة ، ودكتاتوريته وهيمنته ووقوفه في وجه نمو الافراد » . نشر هذا الانسحاب في جريدة النهار . كنت أول من انبرى له في نفس

الجريدة في كانون الاول 1947 في مقال وضع له غسان التويني هذا العنوان : عبد الله قبرصي يتلو دستور الايمان ؟

ثم كتبت في جريدة الشمس مقالا آخر . وارسلته للطبع . فطبع واعيد الي لأصلحه . فوجدت بعض العبارات المضافة . فحملت المقال ورحت اطالب بالأصل ، فوجدت ان المعلم قد اضاف بخطه عبارة او عبارتين ، لم أوافق على اضافتهما . رحت اليه غاضباً وطالبت باسقاط العبارتين . حاول اقناعي فرفضت . قال المعلم : حسناً ، لتمح العبارتان ... اين الدكتاتورية في هذا التصرف الديموقراطي ؟ لو ان سعادة كان يفرض علينا آراءه لفرض علي العبارتين !..

قلت واكرر ان البون بيننا وبين سعادة كان شاسعاً ... ولا يزال . كان الرجل عالماً معلماً بالفعل ، وكنا نحن تلامذته نتسقط تعاليمه بشغف . ما اقتنع احد منا بفلسفة فايز صايغ . بالاجماع وقفنا مع سعادة الا غسان تويني والدكتور نويهض وحلمي المعلوف ويوسف الخال . نحن لا نزال في حلبة الصراع ، والباقون يعملون كل على ذوقه في سبيل اهداف أخرى ، اما ادبية واما فنية واما سياسية . لقد اختاروا الحياة السهلة واخترنا الطريق الصعب وحياة الكفاح من اجل القضية والصمود في مواقعنا الفكرية . اذا كنا باستطاعتنا ان نستشهد بالزمن ، تأييداً لموقف المعلم ــ وموقفنا ــ فالزمن اثبت ان المعلم ــ ونحن ــ كنا على حق ! لا تربح معركة واحدة بالانانية الفردية . كل معارك التاريخ ربحت بان ضحت الجماهير في سبيل وطن في سبيل عقيدة ، ذابت في مصلحة الامة ، وكرامتها ، وحقها . الوطن والشعب اولا .

لا اتصور ان يوسف الخال مثلا لوبقـي في صفوفنا ، ما تيسرت له الشهرة التي تيسرت خارجها ... هؤلاء شعراؤنا اسماؤهم تملأ الدنيا ، نحن نفتح لهم الأفاق لا نغلق في وجوههم الآفاق !

وكان لا بد لفايز صايغ ، بعد ان تأصلت شهرته في صفوف الحزب ، وفي لبنان والشام وفي العالم العربي كله ، كان لا بد له من تبرير انسحابه كما كان لا بد لنا من تبرير طرده . كتب سعادة وكتبنا المقالات الطويلة ، اما فايز فألف كراسا عنوانه « الى اين » يمكن ايجاده في المكتبات !

« الى اين » ؟ كراس فيه اعلان حرب على فلسفة سعادة . المأخذ المركزي عليه كان في فلسفته المدرحية التي لم يقسم القوميون الاجتماعيون عند انتمائهم بان يؤمنوا بها ، لانها ليست في « المبادىء الاساسية ولا المبادىء الاصلاحية » وكان المأخذ الآخر ان

سعادة انفرد في تعديل الحدود القومية ، فاضاف العراق الى الامة السورية دون الرجوع الى الاعضاء او على الاقل الى المجلس الاعلى . ولقد عزا فايز صايغ موقف سعادة منه ، الى «نزعته الدكتاتورية » الى حد أنه اتهمه بالطغيان ، انطلاقاً من توتاليتارية الحزب ، اي نظرته الكلية الى الحياة والكون والفن .

يخطر لي وانا اتأمل في اسباب طرد فايز صايغ ان اجري مقابلة بينه وبين مفكر من لبنان هو الدكتور ناصيف نصار الذي اصدر في مطلع هذا العام كتابه « الطريق الى الاستقلال الفلسفي » . فبينما يدرس الدكتور نصار بعمق فلسفة سعادة ، ويحللها تحليلا علمياً موضوعياً ويناقشها باحترام ، في كل اضلاعها ، وبشمولية رائعة ، دون ان يكون عضواً في الحزب ، دون ان يعرف سعادة ويسمع من فمه الاسس والمراجع التي اعتمد ، نجد فايز صايغ عميد الثقافة في الحزب يحاول ان يدرس فلسفة مناقضة لفلسفة سعادة داخل صفوف هذا الحزب . لو سئل اي منا ، من استوعب عقيدة سعادة وفكره ودرسها دراسة علمية ، اهو عميد ثقافتنا السابق ام الدكتور نصار ، لقال عفويا : الدكتور نصار الذي لا نعرفه ولا علاقة له بحزبنا ولا بنا شخصياً .

فاذا كان مفكر لا علاقة لنا به ، مختص بالفلسفة ، تصدى بعمق وشمولية لفكر معلمنا ، وافكار سواه من المفكرين العرب وحلله تحليلا موضوعياً ، كم كان بالأحرى ان ينبري عميد ثقافتنا للقيام بهذا الواجب عوضاً عن التبشير بفلسفة مناقضة لركائز عقيدتنا الفلسفية ؟

إن سعادة بموجب المادة الرابعة في دستورنا ـ قانوننا الاساسي ـ هو مصدر السلطات بموجب تعاقدنا معه اي انه يجسد ارادتنا ، ويعبر عنها ، وهو لذلك كما قال لي يوما انا « جمعية تأسيسية دائمة » . ان من حقه دستوريا ان يعدل ، وان يشرع مضيفاً او ملغياً ما يراه من المواد ، ومع ذلك فان الحدود الشرقية التي ظهرت وكأنها عملية تعديل لم تكن في الواقع الا توضيحاً كما شرحت ذلك سابقاً .

طبعاً كان علي كرجل قانون ـ وبعد ان صفقت لخطابه يوم عودته في 2 آذار 1947 ـ ساعة ذكر « بين النهرين » ويعني بها العراق ، ان أسأله : لماذا لم يستفت القوميين في الأمر . فكان جوابه انه ما بدل ولا عدل بل اوضح . وفي سبيل الايضاح لا ضرورة للاستفتاء . أما مسألة « الطغيان » فمردودة شكلا واساسا . سبق وذكرت كيف كان سعادة يحاورنا طوال ساعات ، فلا يصدر قراراً الا وقد اجمعنا عليه موافقة وقبولا .

هل نكون اقسمنا على مبادىء وتعاليم ، ونظام ، تشكل مجموعها القضية القومية الاجتماعية ، ودخلنا الحزب ، لنكون احراراً في تفسير هذه العقيدة وركائزها على هوانا بلا ضوابط ولا قواعد ولا اصول ؟ ثم اليس من السهل اذا كنا فقدنا ايماننا بالمبادىء والتعاليم ان نطلب الى الحزب حلنا من قسمنا دون ضجيج ولا عجيج ؟..

وهل ان سعادة الزعيم المؤسس ، الذي وضع هذه العقيدة وشرع لها النظام الملائم ، رئيس عشيرة ، ليسترضي احدنا او يسايره لكي لا يخرج او يعصى ؟ ام انه صاحب رسالة ، لا يتساهل في خرقها ولا يساير !

وهل بامكان حزب كحزبنا ان يقبل اجتهادات قياديه افراداً مهما لمعوا ونبغوا ، ام هو مضطر للرجوع الى المؤسسات المسؤولة ، تقرر وتجتهد وتفسر ، تلغي او تعدل ، وفقاً لقناعاتها بعد الدرس والتأمل والعودة الى النصوص والأصول ؟.. صحيح ان المؤسسات مؤلفة من افراد ، الا انها مؤسسات تعمل ضمن قواعد واصول لا على كيفها وهواها ...

من هنا تصلب المعلم في الحفاظ على سلامة العقيدة ، وسلامة النظام ، وسلامة المناقبية القومية الاجتماعية . لو انه تساهل وساير ورقع ولاين ، لكنا وقعنا في الفوضى ، ولكان بعض الانكياء فينا صبغوا الحزب بافكارهم وآرائهم الخاصة ، فكانت له الف صبغة والف لون !

ان طرد الدكتور فخري المعلوف ــ وقد كان من احب الناس الى سعادة واقربهم الى وجدانه ــ وطرد فايز صايغ ، وهما الوحيدان ــ على ما اعتقد ــ اللذان طردا بسبب انحراف فكري ، انقذ العقيدة والحزب من فوضى التأويلات والاجتهادات المنحرفة عن جوهر العقيدة . لا يعني هذا القول ، ان سعادة اقفل النوافذ والابواب على العقيدة القومية الاجتماعية . فهو الذي انشأ المجلس الاعلى وهو الذي اولاه صلاحيات التشريع . انه المؤسسة العليا صاحبة الحق المطلق في الاجتهاد والتفسير ، والتعديل والتبديل ، المؤسسة تشرع عندنا لا الافراد . وخطيئة فايز صايغ ومن قبله فخري المعلوف ، انهما خالفا فكر ورأي المؤسسة . الزعامة في الحزب مؤسسة تستمد صلاحياتها من الدستور ، لا من كونها عبقرية ، او متفوقة او مؤسسة الحزب وواضعة قضيته ... سعادة قال لحسن الطويل : لقد خرجت القضية مني اليكم ، فاذا انحرفت قوموني بحد سيوفكم ، سعادة وضع القضية ليعمل لها لا لتكون عجينة بين يديه يكيفها

كل يوم بشكل جديد . هكذا علمنا وهكذا عمل ... ثم اذا كان طلب الينا تقويم انحرافه بحد سيوفنا ، كيف لا يسمح له بتقويم انحرافنا نحن بحد سيفه ؟

اردت ان ادخل بهذا التفصيل ، لكي يكون بين يدي القارىء مستند ، الى ان سعادة ، ما كان يصدر قرارات الطرد الا لحماية النهضة من الانحرافات والخروج على قواعدها الاساسية لا كيفيا ولا استبدادا .

نصل هنا الى حرية الفكر . ان سعادة كان يقول لمن يخالف وجهات نظره في العقيدة ، يمكن ان نحلك من قسمك ، وان تضع انت عقيدتك وتؤلف حزباً وتبشر بها وتنشرها . ولكن لا يمكننا ان نسمح لك بتسخير اجهزة حزبنا للتبشير بافكار تناقض او تخالف افكارنا . اذن ، خارج الحزب الحرية الفكرية مطلقة . اما داخل الحزب ، فالعقيدة واحدة والولاء واحد !...

ثم هل يعني قول سعادة : لبنان نطاق ضمان للصراع الفكري الحر ، الا انه مع حرية صراع العقائد ؟ لا حجر على الفكر ولا قيود عليه ، الا اذا كان تخريبيا ، هداما ، « كالفكر » الطائفي ، الذي جر بلادنا الى خطر الزوال .

ان سعادة قال لفايز صايغ ان يؤلف حزباً تكون ركيزته افكار برديايف وكيركيفارد . فكيف يكون سعادة طاغية ؟

المؤسف ان الاستاذ النقيب فؤاد رزق ، وهو من الحقوقيين الذين نباهي بهم ائمة الفكر الحقوقي في العالم لم يلحظ هذا الفارق بين حرية تفسيخ الحزب عقائديا وحرية الفكر في المطلق .

صحيح اننا خسرنا الدكتور فايز صايغ بما هو قيمة وطنية واخلاقية وفكرية ، الا اننا ربحنا صفاء عقيدتنا وعدم السماح بايذائها من الداخل . ليفكر الناس خارج حزبنا بما يشاؤون اما اذا انضووا فهم مفيدون بالعقيدة القومية لا بسواها !

بعد كتابة هذه التأملات تو في فايز صايغ وهو يناضل من اجل القضية القومية . لقد كنت وكان الحزب اول من انحنى بخشوع امام عبقريته ونضاله نحن لا ننسى حتى الذين نسونا .

ارجو الا يهتم القارىء بالتسلسل الزمني لهذه الذكريات . طرد فايز صايغ تم في كانون الاول سنة 1947 او ما بعد ، ومذكرة التوقيف الغيت في 9 تشرين الثاني 1947 ... سارعت في سرد قرارات الطرد ، عن سابق تصور وتصميم لنتحدث عن الحزب ، في اجوائه الداخلية الصافية ، بعد ان وضع سعاده حدا لكل الاشكالات والتساؤلات .

من هنا العودة من كانون الاول 1947 الى شهر تشرين الاول لم اذكر كل شيء عن ايام مذكرة التوقيف ، فقد اكتفيت ببعض المحطات الهامة ، لان مذكرة التوقيف ، هذه المرة فقط ــ ما اوقفت لنا نشاطا . وقد يبدو من المفارقات ، ان العكس هو الذي حدث . فالملاحقات « المائعة » التي شنتها السلطات ضد سعاده بغية القاء القبض عليه ، لم تكن الا حافزا لرص الصفوف القومية ، وفرصة نادرة امام القوميين للتسابق الى العمل والانتاج . هل يستطيع القارىء ، ان يتصور ان سعاده ــ وهو في اوج الكر والفر ــ كان يقابل الصحفيين والنواب والمرشحين للنيابة ورجال القلم والسيف ، دون اي عائق ، اللهم الا اتخاذ بعض الحيطة ، لكي لا يظن الناس ان مذكرة التوقيف مزاح لا جد !

طبعا انا محامي سعاده هذه المرة ، لانها المرة الاولى التي يلاحق بها الحزب بشخص زعيمه وحده والا لو كانت الملاحقة شاملة لما نجوت ، فانا في الحزب منذ تأسيسه في صفه القيادي ، ولا ازال حتى يومنا هذا .
اذن كان لي شرف الوكالة عن المعلم .

لم تكن الدعوى مجرد دعوى جزائية ، لانها من هذا القبيل ، كان يمكن ان تكون دعوى الموسم القضائي الاولى . فأي جرم ارتكب سعاده ؟ واذا كان بالامكان اختراع جرم يلصق له فكم كان بالامكان ايجاد المخارج القانونية لابطال التهمة ودحضها

والوصول الى حكم ببراءته ! الدعوى كانت سياسية ، من الفها الى يائها ، والقصد منها ، لم يكن انزال العقاب بالزعيم العائد من المنفى بقدر ما كان القصد منها ، الضغط عليه ، ليسالم السلطات اللبنانية ، ويسايرها ويعايشها . وسبق ان قلت ، ان وراءها ايادي داخلية واجنبية ، فاذا وقع سعاده في الشرك كانت تظن تلك الايادي انه في قبضتها يستسلم ويخضع ، غير دارية ان القائد لم تطرف له عين ، يوم كانت براثن الانتداب تشد على عنقه بقصد خنقه .

وبالفعل كانت استجابة القوميين مشجعة بل محرضة على الموقف المتصلب .

الذي سهل المفاوضات لالغاء مذكرة التوقيف كان سلوكنا الحسن في انتخابات 1947 ــ سلوكنا المرن ، فتح الطريق امام المفاوضين ، اصحاب المساعي الحميدة ، وفي طليعتهم الدكتور رئيف ابي اللمع والنقيب عفيف الطيبي وسعيد سربيه ثم ادمون طوبيا ،والكثيرون)ممن ارادوا ان يلعبوا دورا يقبضون ثمنه مستقبلا . الا ان الوساطة الناجحة كانت وساطة الوزير غبريال المر ، الذي كان مسموع الكلمة لدى القصر ، ولدى الحكومة وفريد الصباغ المسؤول القومي الاجتماعي الذي مثل سعاده لدى الوسطاء عن طريق الشيخ خليل الخوري نجل رئيس الجمهورية . من صاحب محل خياطة متواضع في ضهور الشوير قفز فريد الى ان يكون في مرحلة غير قصيرة يد سعاده اليمنى ورسوله الى رجال السياسة في لبنان ، وخاصة غبريال المر وخليل الخوري ورياض الصلح وسواهم وكان فريد يستعين باصدقائه من الشوير وخارجها كالاستاذ نجيب الصايغ ، في مفاوضاته وعلاقاته .

هنا مجال ايراد كلمة سعاده لي في ضهور الشوير يوما من الايام :

« يا عبد الله : تقضي وقتك كله في المحاماة ، مرافعا ومدافعا في دعاوى تافهة لقبض خمسين ل. او مئة ليرة ، وتتركني اكلف في المهمات السياسية الخطيرة امثال الرفيق فريد صباغ .. وسواه .. يقولون عنك انك يدي اليمنى . لست لا يدي اليمنى ولا يدي اليسرى انك تهملني اهمالا لا مثيل له .. » .

كان سعاده على حق وكنت انا على حق . فالمحامي مثلي الذي رتب على نفسه مسؤولية عائلة كبيرة نسبيا ، ليس له مورد الا المحاماة ، ما كان بامكانه ان يواجه مسؤولياته المادية الا بالركض وراء دعاويه ، ارتفعت وارداتها ام تضاءلت !... ما كان الحزب بقادر على دفع اي تعويض لا للعمد ولا للزعيم . يراجع نظامنا المالي الذي يرخص للزعيم

وحده اصدار اوامر صرف حتى خمسين ليرة سورية دون الرجوع الى مجلس العمد او التقيد بابواب الموازنة ! تصوروا هذا المبلغ الضخم : خمسين ليرة سورية !

المهم اننا قضينا حوالي السبعة اشهر ، نسعى وراء سعاده ، من مقر الى مقر اللهم الا بعد ان عادت عائلته من الارجنتين ، فقد اصبح مركز القيادة مستقرا في ضهور الشوير وكفت الدولة عن الملاحقات ! كانت قد بردت حرارة الغضب والسخط بعد ان فشلت مؤامرة زج سعاده في السجن !... صارت مذكرة التوقيف ورقا في جيوب رجال الامن وفي ملف قاضي التحقيق !

وزفت الينا البشرى ، سيسترد قاضي التحقيق مذكرة التوقيف . جاءني فريد الصباغ مهرولا . غدا نلتقي ، وترافق الزعيم بوصفك محاميه الى وزارة العدل ووزارة الداخلية ثم الى قصر العدل . تقابلون المستنطق ، يدلي سعاده بافادة قصيرة ، يشرب فنجان قهوة ويعود من حيث اتى معززا مكرما !

وكنت في قصر العدل منذ الصباح الباكر ثم نودي علي فتوجهت الى السراي . قابلت الزعيم واديب قدورة وفريد الصباغ وآخرين تفوتني اسماؤهم الوزير المر في مكتبه ثم وزير العدل الاستاذ احمد الحسيني ثم انتقلنا الى قصر العدل لمقابلة قاضي التحقيق الاستاذ نديم حرفوش ...

دخلت مع الزعيم بوصفي وكيله ، وما هي الا بعض السؤالات والاجوبة المقتضبة حتى انصرفنا مشيعين بكثير من الاحترام والتقدير !

كان الناس يظنون ان سعاده ، بعد استرداد المذكرة سيلجأ الى داره يـ ـلس القياد للعهد ، الذي ساعده على « استعادة » حريته !
ماذا كانت النتيجة !

قال في ندائه الى القوميين وهو يبشرهم باسترداد مذكرة التوقيف :

« ايها القوميون الاجتماعيون : اهنئكم لانكم برهنتم على انكم حركة عظيمة ترتفع عن السياسات الصغيرة الحقيرة وتهتم بالمصير الاخير .

اذكركم بان الفضل الاكبر في انتصار قضيتكم يعود الى هذه الحقيقة الاساسية الكبرى التي ابرزتها رسالتي الثانية من الارجنتين ايمانكم بي وايماني بكم .

ايها القوميون الاجتماعيون :

ان المعركة التي دارت بين قواتنا المنظمة وقوى الرجعية والطائفية والنفعية قد انتهت بانتصار الحزب القومي الاجتماعي واندحار خونة الامة وارتداد كيد الكائدين الى نحورهم » .

هكذا تكلم سعاده !

ابان المذكرة وبعد الغائها ، سعاده هو سعاده !

في الجهة الجنوبية الغربية من مستشفى خالدي استأجرنا منزلا للزعيم وعائلته . من المفارقات ان الطابق العلوي كان مأجورا للدكتور ساطع الحصري ، الذي الف الكتب في القومية العربية ، ليواجه تيار الحزب القائل بالقومية السورية ، بعد استشهاد سعاده بفترة غير طويلة .

طبعا كان هنالك اهتمام من قبل الميسورين من الرفيقات والرفقاء والعائلات القومية والصديقة بتأثيث المنزل الجديد . تبارى الطيبون بالتقدمات ، فما مرت ايام حتى كان الزائرون يجدون (كراسيّ للجلوس ، وحتى كان للزعيم مكتب ومكتبة يصفف فيها كتبه ومراجعه .

تبارى الطيبون ، واذكر منهم الصديق اسكندر نصر الله وزوجته ، وولدهما الراحل رجا ، وابنتهما الامينة حاليا هيام نصر الله محسن ، والسيدة فايزة معلوف انتيبا والموسيقار زكي ناصيف وبعض الخيرين الذين تفوتني اسماؤهم الآن ، بتقديم الهدايا والتبرعات .

لكي نفهم هذه المرحلة الممتدة من الغاء المذكرة الى الاستشهاد علينا ان نرافق سعاده في استراتيجيته وفي تكتيكه .

الاستراتيجية كانت اعدادا لاستلام الحكم او الاشتراك فيه . كان يجب ان يوجد الحزب له مركز نفوذ في لبنان ينطلق منه في الكيانات الاخرى تبشيرا وتوسعا . كان يجب ان يعد نفسه اعدادا شاملا . كان يجب ان يكمل ما بدأه في الثلاثينات تدريبا وتحضيرا . هذه الاستراتيجية المرحلية هي الطريق للاستراتيجية الاخيرة ، لتحقيق القضية القومية الاجتماعية ، وفقا للاتفاقات والظروف .

لبلوغ هذه الغاية كان على سعاده ان « يتكتك » ان يقيم علائق مع السياسيين القدامى ، ومع السياسيين والمعلمين الشباب . وان يتصل برجال الفكر والصحفيين

والمعلمين والطلاب . والا يترك فرصة الا ويضع عليها يده كي لا تفلت ولا تمر جزافا .

وفي السياسة اللبنانية خطط للقاءات مع كل الفرقاء ، فلا يبقى فريق غاضبا او غيران . خصمه العنيد القوي كان رياض الصلح والكتائب اللبنانية . وهدفه في السياسة اللبنانية هذه ان يلتف على رئيس الوزراء بمعارضيه واولهم الرئيس الراحل سامي الصلح والرئيس الراحل عبد الحميد كرامي والسلطان سليم (مارونيا) . ولكي لا يعتقد آل الخوري بانهم امنوا صداقته ، ارسل رسله الى آل اده لكي تتم المعادلة ، فلا يطغى فريق على فريق في علاقاته السياسية بالحزب . لقد اتقى شر الطرفين اذ امسك بالحبل من طرفيه معا . لم يكن يعتقد ــ وهذا ثابت في بياناته ــ ان احد الفريقين يفضل الآخر ، فكلهم مرتبطون بالارادات الاجنبية وبالمصالح العائلية .

لقد كانت الكتلة الوطنية هي الحاكمة في الشام ، وكان القوتلي رئيساً للجمهورية . فأرسل رسله اليه ليتمكن من غزو الجمهورية الشامية آمنا مطمئنا رغم ان التحالف كان مكينا بين النظام الشامي والنظام اللبناني ، فلا يتحركان الا ضمن دائرة واحدة . لا ننسى ان شكري القوتلي ورياض الصلح من مدرسة واحدة ، يعملان بعقلية واحدة (مراجعة مذكرات خالد العظم الصفحة 333 الجزء الاول) وكلاهما من طينة واحدة ، انها مدرسة محاربة الانتداب تحت شعار : لا مفاوضة قبل الجلاء !

في الشأن العربي ، بدت ايجابيته واضحة في خطاب العودة ساعة قال : نحن صدر العالم العربي وسيفه وترسه .

اما في الشأن الانترنسيوني ، فقد كان اتجاهه ان يتقي ما استطاع شر الحلفاء وفي طليعتهم فرنسا وانكلترا ، الدولتين صاحبتي النفوذ الاقوى ، رغم انهاء حال الانتداب وبلوغ مرحلة الاستقلال .

اما في المسألة الفلسطينية فقد كان ناشطا وواعيا مسؤوليته . يرى ما لا يراه الآخرون ويكشف ما لا يكشفون . لقد كان يراقب التحركات والاعمال والاقوال ويهز رأسه منتقدا لان ما كان يجري كان اعتباطا وعلى غير طائل . الصهيونية نظام دقيق ومساندة دولية ، والهيئة العربية العليا عنتريات الدول العربية وجيش الانقاذ والمظاهرات ، غوغائية ، دون نظام ودون تخطيط ، تضرب ضربات هنا وهناك ، لا جدية فيها ولا شعور حقيقي بالمسؤولية القومية ولا تضامن ولا تساند .

كان الرجل يعتقد ان وجهة نظره هي الصحيحة وهي وحدها طريق الانقاذ . وكان

الآخرون يعتقدون انه معتد بنفسه ومكابر وانهم وحدهم الاراخنة العارفون .

اما في داخل الحزب ، فقد استقامت الامور بعد عملية التطهير والتصويب العقدي والتحم الصف وفاضت الحيوية ، وتحرك الرفقاء في كل حدب وصوب مثل قفير من النحل يغلي غليانا .

كان سعاده يعتقد ان ساعة الحصاد قد دقت وان عليه ان يتحرك في ميدانين : الميدان الداخلي تنظيما للصفوف وكسبا للاعضاء ، والميدان الخارجي ـ اي خارج الحزب ـ فيطلق تيارا عنيفا في كل الاتجاهات .

التركيز العقائدي والبناء النفسي خصص له المحاضرات العشر التي بدأت باكرا في مطلع 1948 .

والتبشير اعد له حلقات اذاعية يدعو اليها كل من يرى المسؤولون في بيروت والمناطق ان فيهم بعض امل بالانتماء .

والثقافة اطلقها في الندوة الثقافية وفيما بعد في المؤتمرات والاجتماعات المتواليات .

والسياسة رسم لها آفاقا واهدافا تبدأ بلقاءات مع رجال المدرسة العتيقة وتمر بكل المخضرمين وبرجال الفكر لتصب اخيرا في الاستراتيجية : الاعداد للتغيير الجذري .

مما لا ريب فيه ان الفراغ الذي تركه المطرودون وهم من القيادة العليا ، ومن الموهوبين في الادارة والسياسة ، لم يكن بدون ثغرات او فجوات ، الا ان الحيوية المدهشة التي كان يتمتع بها القائد ، وقدرته على تحريك الطاقات المتوفرة ، وحلوله محل اي مهمل او مقصر ، لم يترك مجالا لتوقف العجلة الحزبية عن الدوران في محاورها المنتجة .

لا ازال اذكر ـ وقد كان سعاده يستحثني على بذل المزيد من النشاط ـ قوله لي : لم يعد ينقصكم في الحزب الا ان تطلبوا الي ان اكون اخباريا Planton . وبالفعل فقد نزل احد الرفقاء من الجبل ، ولم يكن يعرف الزعيم من قبل ، فتوجه اليه سائلا : هل يمكن ان اواجه عميد الداخلية ؟... ليتصور القارىء ان قائدنا العملاق كان مضطرا احيانا ان يكون اخباريا في مركز الحزب !..

مرت فترة ـ بل فترات ـ كان الحزب كله في المركز شخصية سعاده وعمله الدؤوب الصبور . وحده كان الحزب ، لولا المواظبون حوله كفخري المعلوف وفؤاد ابو عجرم ،

واديب قدوره وجورج عبد المسيح وجبران جريج والياس جرجي ومحمد راشد اللاذقي وعبد الله محسن وفريد صباغ ، للسياسة والاتصالات .

لقد كان يتألم من هذا الوضع ، يتبرم غيظا واحيانا قرفا ، الا انه ما كان يكل او يمل او يهدأ .

والعجيب ان شمولية مواهبه كانت تؤهله لان يكون العين الساهرة على الادارة المركزية ، والادارة في الفروع ، والتركيز العقائدي والبناء النفسي والتبشير ، والتحرك السياسي في كل اتجاه ، وفي كل حقل ومع كل الفرقاء .

لقد لحظ بعض العاملين في الحقل العام ، تمركز الصلاحيات والحركة في شخص سعادة ، فاخذوا على الحزب هذا التمركز وحصر كل شيء في شخصه . لنقلها للتاريخ ، لم يكن الذنب ذنبه بقدر ما كان ذنبنا نحن . لقد كنا اتكاليين ، نتصور ان الزعيم باق بيننا الى الابد ، وبما انه المسؤول الاول ، وليس لديه مكتب محاماة او عيادة طبية او صيدلية او متجر او ملاك ، فلتقم كل المسؤوليات على كتفيه وليتحمل وحده الاعباء والمسؤوليات . كم كان يستحثنا ويحرضنا ونحن نبتسم ولا نخجل !...

طبعا في هذا الاطلاق بعض المبالغة ، فقد كان في جريدة النهضة ، محررون سواه ، وكان هنالك من يهتم بالمالية وبالمنفذيات، وبتصريف الكثير من الاعمال ، الا ان ما لا يجوز اغفاله ، هو ان محور كل شيء ، في كل الحقول ، كان انطون سعاده وحده . .

لا انكر ان فؤاد ابو عجرم والياس جرجي وانيس فاخوري وجبران جريج وعبد الله محسن ومحمد راشد اللاذقي واديب قدورة وجورج عبد المسيح ،ومن بعد هشام شرابي وجورج عطيه واخيرا جبران حايك ــ وغيرهم من الناشطين في المناطق والفروع ــ كانوا يقدمون انفسهم للعمل متفرغين احيانا واحيانا نصف متفرغين ، ولكن ادوارهم ونشاطاتهم لم تكن كافية للابداع والخلق والتقدم ودفع عجلة النمو والتوسع في الحزب ، لولا ان « الدينامو » ــ سعاده ــ لم يكن هناك ليوجه وينسق ويحفز ويحرك !.

لنبدأ بالندوة الثقافية والعمل الثقافي وهدفه التركيز العقائدي والبناء النفسي ...

كان قد اصبح كتابه نشوء الامم بين ايدينا وكنا قد درسناه في الندوة باشراف رئيسها الامين السابق فخري المعلوف ، وكان بين ايدينا شرح المبادىء ، كما كان قد وصلنا من المغترب « الصراع الفكري في الادب السوري » الذي يعالج النظرة القومية

الاجتماعية الى الادب والفن معا . الا اننا ــ نحن القياديون والاعضاء معا ــ كنا بحاجة الى المزيد ، كنا بحاجة الى تنضيج الافكار والآراء والقواعد المطروحة ، كما كان شعبنا بمثقفيه وجماهيره بحاجة ايضا الى اخذ القضية القومية الاجتماعية من نبعها ، من فم مبدعها ومنشئها لاستيعابها وفهمها ...

لقد دعانا الى احياء الندوة الثقافية فنشطت فترة ثم تراخت . فأخذ هو وحده دورها مع الفقيد لبيب زويا فكان هو وحداد تقريبا الندوة الثقافية ــ يتهمنا الناس بالصنمية . اننا صنمنا سعاده ونصنمه . في هذا الاتهام غلو وخروج على الحقيقة . اننا نكتب مشاهداتنا . اننا ندون ذكرياتنا . هل يكون سردنا للوقائع بامانة ، واعطاء سعاده حقه في ما عمل وعلم ، تصنيما او قول الحق ؟... هل يجوز ان نزور لنقلل من اهمية ودور الرجل الذي ابدع هذه النهضة ورعاها ووهبها حياته ودمه ؟..

الشأن الثقافي ، او التثقيفي ، اخذه على عاتقه . هذا الشأن اولاه كل همه مع الطلبة القوميين الاجتماعيين في البدء ثم مع المعلمين ، ثم مع القياديين الاعضاء ، وجماعة المفكرين والراغبين في المعرفة والاطلاع ، بأن حاضر على مدى ثمانية اسابيع ونيف ، بدأت في 7 كانون الثاني 1948 وانتهت في 4 نيسان من العام نفسه فكان لنا منها المحاضرات العشر التي يمكن اعتبارها انجيل النهضة او فلنقل مرجعها الفكري الدائم الشباب !...

لم اكون انا او سواي المقاطع الهامة منها . تنبه احدنا يومذاك جورج عبد المسيح ، اما بمبادرة منه او بأمر من سعاده ، ودون حرفيا اقوال سعاده ، وعرضها عليه فنقحها وطبعت في هذه المحاضرات العشر .

كيف كان سعـاده يستعد لهذه المحاضرات ؟

شاهدته مرة واحدة قبيل القاء المحاضرة . كان قد صعد نهار السبت الى ضهور الشوير وعاد الاحد . تناول طعام الغداء . وتمدد قليلا . دعاني لامر ما فجلست اتحدث اليه . طلب الي الاختصار قائلا : بعد قليل سألقي المحاضرة . لم استجمع بعد افكاري. دعني اركز واستجمع لاستطيع الاحاطة بموضوعها من كل جوانبه .

نصف ساعة من بعد ، عاد الى الصالة مبتسما وسلم على الحاضرين ودعانا لمرافقته ، فواكبناه الى قاعة المحاضرة . نصف ساعة من التأمل والمراجعة الذهنية كانت كل استعداده واعداده !...

كل من المحاضرات كانت تستغرق من الساعة الى الساعة والنصف وحتى الساعتين .

كان يلقيها دون أن يكون امامه ورقة فيها ملاحظات او نقاط مدونة .

كان يأتي بشرح المبادىء وبنشوء الامم يستعين بهما كمرجعين ليشرح ويعلم .

كل الذين حضروا هذه المحاضرات كانوا يستغربون كيف يتدفق ، كانما الشروح التي يقدم ، موجودة في خزان مقفل ، حتى اذا ما انفتح ، جرت منه بصورة عفوية . لا يتلعثم . لا يتوقف لا يكرر .

مرة او مرتين استحضر معه خريطة او رسم هو نفسه خريطة . المرة الاولى عند شرحه لحدود الامة السورية ، والمرة الثانية عندما تكلم عن معركة « كان » التي خاضها هاني بعل ضد الرومان . لقد رسم بيده مواقع الجيوش المتحاربة من فيلة وخيالة ومشاة . ثم شرح كيف تحركت . لكي يعطي الحضور فكرة عن الاستراتيجية العسكرية عند القائد السوري ــ اعظم قائد في كل الامم وكل العصور . وعند الاعداء .

بنظري ان هذا الجانب من عبقرية سعاده يدعو الى التأمل . فهو يدل على قوة البداهة والقدرة على الارتجال ، في عفوية مذهلة . يكتب الصفحات الطوال فلا يمحو كلمة ولا يراجع فكرة . ويلقي المحاضرات الطوال ، دون ان يتردد ودون ان يعيد اية عبارة او يكرر اية فكرة . الوضوح الذهني ، والوضوح الفكري والوضوح اللفظي واللغوي بعض سمات ادبه وفكره .

كان يضرب سعاده في محاضراته في العمق . لا تجد ــ مهما نقبت ــ عبارة سطحية او مترهلة او ثقيلة الوطء على السمع او العين او الذهن . لم يكن من طبعه التسطيح ولا المغالطة ولا الغموض . في الاعماق التي كان يغوص عليها ويسبر اغوارها ، لا تجد وانت تلحق به الا اللآلىء الاصيلة . ولو كان ما يلقيه ادبا صرفا ، لما استوقف النظر . كل ما تقرؤه ــ او اكثر ، تقرؤه في المحاضرات العشر ــ مواضيع علمية اجتماعية وسياسية او حقوقية او اقتصادية او عسكرية . تذهلك في بساطتها كما تذهلك في علميتها وترابطها وتسلسلها المنطقي . تنزل عليك الحجة منها تلو الحجة ، فتشعر كأنك اسيرها . تطوقك فلا تستطيع منها الافلات ولو قصدت ذلك وتعمدته . كثيرون حاوروه ، فما ان انتهى الحوار حتى خافوا على انفسهم من الاقتناع بافكاره العلمية السديدة . وكثيرون ناظروه ، فامسك بتلابيبهم وسد عليهم المنافذ . لا يقهر في النقاش ولا يغلب في المناظرة .

ومن اوصافه وهو يحاضر او يخطب ، النفوذ السحري على الناس . في عيني الانسان العبقري تلمع عبقريته . وفي عيني سعاده كان لمعان عبقريته ينفذ الى الضمائر ، فتتعاون العينان واللسان والصوت والفكر على فرض التسليم لفكره . كان الرجل شخصية فارضة ، تستجيب له بما يشبه الالهام العفوي !

كان الناس يصغون اليه ، ويفتح باب السؤال والجواب ، فاذا سأل احدهم سؤالا ففي خفر وبعض الخوف . اما المناظرة فما اقدم عليها اي من الحضور ، وكان فيهم من المثقفين والاساتذة والطلاب عدد لا يستهان به . وجوههم لا تزال في خاطري اما الاسماء فلا انكرها !...

لم تكن القاعة وسيعة كالوست هول مثلا ولكنها لم تكن ضيقة . الا انها كانت تضيق بالحضور ، فتبدو وكأنها صغيرة ومخنوقة .

المحاضرات ــ كما ذكرت فوق ــ استمرت حوالي الثلاثة اشهر متقطعة ، استمرت الشهر الاول اسبوعية ، ثم توقفت ثم استمرت في آذار واوائل نيسان 1948 .

جنينا منها فوائد لا تقدر . فقد اقتنع الناس اخيرا ــ وجماعة الحكم في طليعتهم اننا لسنا حزبا سياسيا بالمعنى الرخيص المبتذل ، ولا حزبا تبشيريا دأبه التحيز لعقيدته ونظامه ــ تبين للناس ان التثقيف والتوعية وتربية النفوس على الصدق والصراحة والجد والاستقامة والشعور بالمسؤولية على العقلية الاخلاقية الجديدة هي بعض اهدافنا ونحن نبني اجيال المستقبل ، كما تبين للناس اننا لا نغرف من التوافه والنوافل فكرنا وادبياتنا بل من المعرفة الحقة في مصادرها العلمية والفلسفية القيمة . ان سعاده بالفعل لم يكن يترك مجالا لشتى التأويل والاجتهادات ، بل يقطع في ما يعرض عليه او يتعرض له ويحسم ، في جزم يقيني قاطع .

كيف يمكن الا تكون في عقيدتنا قيم الحق والخير والجمال ونحن مطالبون باعطاء دمنا في سبيلها ، وعندما اقول نحن اعني سعاده والقوميين . وقد سبقنا سعاده جميعا في اعطاء الدم .

لم تكن التعاليم التي بلغها سعاده للناس تعاليم بالفراغ . كان يعلم ، ويدفع بنظرياته الى الاذهان والتداول الفكري ، وبالوقت نفسه يطبقها في الممارسة . لم نسجل عليه يوما انه كتب او قال شيئا اليوم ليتراجع عنه او ينكره او يموهه غدا . كل تعاليمه المقولة او المكتوبة عاشها بالفعل حياة متحركة .

المحاضرات العشر تعاليم وفي الوقت نفسه منهاج عمل ودستور اخلاق ومناقب .

اكثر من نشوء الامم ، واكثر من شرح المبادىء ، واكثر من الصراع الفكري في الادب السوري ، واكثر من الاسلام في رسالتيه ، علمتنا المحاضرات العشر كأنما هي موجز مفصل وعمق لكل هذه الكتب ، ما عدا الصراع الفكري في الادب السوري الذي لامس سعاده في محاضراته بعض شواطئه دون ان يدخل في عبابه . الادب هام واساسي لذلك افرد له كتابا خاصا . المحاضرات كتاب الجيب لكل قومي اجتماعي . انها الكتاب الذي يجب ان نتلو كل يوم بعض مقاطعه . انها انجيلنا القومي الاجتماعي . انها طريق المعرفة لفكر انطون سعاده وعقيدته ودستوره الاخلاقي ، المناقبي وغايته في تأسيس الحزب والنضال في سبيله .

أصابت الرفيقة الدكتورة فايــزة معلوف انتيبا عصفورين بحجر واحد عندما ابتكرت فكرة الحلقات الاجتماعية . اذا لم تكن هي التي ابتكرتها فهي التي نفذتها وسهرت على نجاحها مع الرفيقات والرفقاء المتطوعين .

العصفوران كانا اولا : تعويد الرفقاء والرفيقات على الاختلاط والتعايش (رغم اننا لا نحب هذه الكلمة) على مستوى رفيع من العلاقات الرفاقية ، واعطاؤهم فرصة للترفيه عن النفس من جهة ، والاستفادة فكريا وعلميا من جهة اخرى .

وثانيا : استيفاء ليرة سورية من كل رفيق او رفيقة او ضيف محبذ او مناصر ، تخصص لتسديد نفقات بيت الزعيم ، من مأكل وملبس وضيافة ... الخ ..

كانت هذه الحلقات تعقد يوم الاحد بعد الظهر ، نبلغ في ختامها عن مكان انعقادها في الاسبوع التالي . وقد بدأت في بيت الامين جبران جريج ، سنة 1948 دون ان استطيع تحديد الشهر بالضبط .

كان برنامج هذه الحلقات ــ وكان يحضرها في اكثر الاحيان سعادة والأمنية الاولى وصفية واليسار ــ تقديم ضيافة رمزية ، كوب من الشاي او الليمونادة مع قطعة حلوى من صنع الرفيقات .

بعد الضيافة ، كنا ننتقل الى النــكات والحكايات المضحكة ، او يمثل لنا بعض الرفقاء تمثيلية هزلية . وكان يتبارى في هذا المضمار شلة من الاذكياء لا يتركون لنا مجالا للتنفس لكثرة ما كانوا يلقون من سلالهم وحقائبهم ظرفا وهزلا راقيا .

ويأتي دور الجغرافيا والتاريخ .. اعرف بلادك .

ثم دور المناظرات والحوار ، يقودها من الحضور من يوكل اليه الزعيم قيادتها ، في حال انه هو كان غير راغب ، او كان تعبا .

ومن بعد تأتي الخطب والقصائد .

وأخيرا حلقات الرقص على ايقاع الموسيقى المسجلة ..

من هذه الحلقات ثلاث لا تبرح ذاكرتي :

1 ــ في بيت الامين جريج ــ في رأس بيروت ــ ملك يموت .

2 ــ في بيت الرفيق عضاضة (الاشرفية) .

3 ــ في بيت ال نصر الله ــ والدي الامينة هيام ــ في حدث بيروت . اننا لا يجوز ان ننسى كم قدمت هذه العائلة العزيزة من خدمات وتقدمات الى دار الزعامة . وهي العائلة القومية التي سجلت باسمه قطعة ارض تتسع لبناء دارة في الحدث !

الحلقة الاولى : في بيت الأمين جريج

عقدت على اثر رحلة سعادة الى داخل البلاد ، الى طرطوس واللاذقية وحماه وحلب ودمشق والتي عاد منها سعادة عودة الفاتح المنتصر .. « لقد قبل انصاف الالهة ان ينزلوا على الارض ، ان يجالسونا ويحاورونا .. » ... كان يعني ان حكام الشام وقادة الرأي الذين كانوا في البدء يستخفون بالحزب السوري القومي الاجتماعي يتعالون عليه ، قدروه حق قدره ، وعرفوا قيمة قائده ، فأولوه الاهتمام والاكرام اللائقين بعلمه وعبقريته وصحة رؤيته واستشرافه .

حادثان هامان لفتا نظري :

الاول : خطاب للامين انعام رعد ، رئيسنا الأسبق ، وقد كان في الثامنة عشرة من عمره ، القى خطابه كأنما حفظه غيبا . بدأت موهبته في الارتجال والتدفق باكرا جدا . كلماته كانت محكمة ، وافكاره متلاحقة ومتلاحمة . ما ان انتهى حتى صفقنا له بحماس وسعادة اول المصفقين والمهنئين . قال لي (وانا لم اكن اعرف انعاما من قبل) : ان لهذا الفتى مستقبلا كبيرا في الحزب .

الثاني : مع الامين اديب قدورة ، بعد الحفلة الخطابية دارت حلقات الرقص ، كان سعاده بعد ان يفتتح حفلة الرقص مع الامينة الاولى ، او احدى الرفيقات يجلس ويراقب . انا كنت اتفرج ، كان رأيي في الرقص اقرب الى البداوة منه الى الحضارة ، ما كنت ارقص ولا اسمح لزوجتي بالرقص ..

بعد الانتهاء اخذني الزعيم على انفراد ، وقال لي : لا اريد ان اجرح شعور الامين اديب قدورة . انقل له من عندك ملاحظة بالروح الرفاقية ، لقد كان يراقص رفيقته في الساحة كما يراقص فنانة في حانة ، في حلقاتنا يجب ان نكون قدوة . يجب ان يكون

الرقص رياضة وموسيقى . انه ليس للالتحام الجسدي بمن نراقصهن ، انه ليس ضما وشما .

ذهبت في اليوم التالي الى مكتب اديب قدورة وبلباقة وبعض الدوران افهمته ان رقصته بالأمس لم تكن على المستوى المطلوب من الرصانة والحشمة ! .. فضحك اديب طويلا وقال لي : عندما ارقص تريدني ان اصلي للتي ارقص معها ؟ ... وانتهى الأمر !

الحلقة الثانية :

في دار عضاضة (الاشرفية)

في هذه الحلقة ، جرت مناظرة بيني وبين الحضور حول عقوبة الاعدام ، ابقاؤها ام الغاؤها . مناظري كان الرفيق رفيق المعلوف الذي اصبح في ما بعد صحافيا كبيرا . كانت وجهة نظري جافة وشرسة اذ قلت : في وضع لبنان الحالي (سنة 1948) من يطالب بالغاء عقوبة الاعدام يستحق الاعدام .

وجاء دور الشعر فألقى احد كبار شعراء نهضتنا القومية الاجتماعية محمد يوسف حمود قصيدة من زورق الحياة (مجموعته الشعرية التي كانت قد ظهرت حديثا) فصفقنا لها طويلا ، ثم القى رفيقنا محي الدين الفيل ــ الذي كان مدرسا ــ قصيدة حماسية شعبية فيها حرارة الايمان وصدقه وصوته العالي . الا انها ليست في سبكها وبلاغتها من الشعر الذي يروق لمحمد يوسف حمود ، فانتقدها بشيء من القسوة واعتذر سعادة وانصرف لارتباطه بموعد سابق وما مرت ساعة حتى ارسل لي رسالة طالبا الي ان اتلوها علنا .

اذكر من الرسالة ثناءه على الرفيق محي الدين الفيل معتبرا شعره صراعيا ثوريا ، يجب ان يشجع لا أن ينتقد . تلوتها وعقبت عليها مؤيدا لاني بالفعل كنت ولا أزال اؤمن بالشعر الذي يهز اعماق النفس ويحفزها للعطاء والفداء والنضال حتى التضحية العظمى .. لم الحظ اي استياء من شاعرنا محمد يوسف حمود ، لان احكام سعادة حاسمة لكل جدل .

في احد آخر من آحاد حلقاتنا الاجتماعية سهرنا في دار ال فاخوري حتى ساعة متأخرة ، وكنا عائدين بسيارة تاكسي ، انا الى جانب السائق ، والزعيم بين زوجتي وزوجته . وصلنا الى حيث بنايات العازارية حاليا ، فاستوقفتنا دورية شرطة . وقف السائق وابرز هويته ، وكنت اهم انا بابراز هويتي ، فناداهم سعادة من المقاعد الخلفية قائلا : هنا انطون سعاده ، فذهل الشرطيان وطلباً من السائق ان ينير داخل

السيارة قائلين : دخيلك ضوي تنتبرك بطلعة الزعيم .

كان اسم المعلم ينزل في اسماع الناس وضمائرها منزلة البطل القومي المنقذ .

الحلقة الثالثة :

في دار آل نصر الله ــ حدث بيروت

بعد انقلاب حسني الزعيم ، وموقفه المتصلب المعارض المهدد لحلفاء الشام في لبنان بشارة الخوري ورياض الصلح ، في 30 اذار 1949 ، ارتأى سعاده بالاتفاق مع القيادة ان ينزوي بعض الوقت للتأمل والترقب .

لم نشأ ان نزعجه في خلوته فاصطبرنا الى ان انقضى اسبوع كامل .

ففي يوم الاحد في السابع من نيسان ، ولكي لا الفت الانظار استأجرت سيارة وقصدت « الحدث » مع عائلتي بكاملها . ما ان جاورت المنزل ، حتى سمعت مثل الخطابة . كان الرفقاء قد حولوا اللقاء مع سعادة الى شبه مهرجان. او حلقة اجتماعية.

توجهت وعائلتي الى حيث كان جمهور الرفيقات والرفقاء يملأون الباحة . وفجأة اسمع صوت الرفيقة فايزة معلوف انتيبا ــ عريفة الاحتفال ــ تقول : والان الكلمة للامين عبد الله قبرصي .

طلبت من واحد من الحضور ان يساعدني على خلع معطفي ، لأقنص فكرة ما ، فساعدني . ووقفت وراء المذياع واستهليت كلمتي هكذا :

« لقد قرأتم او سمعتم عن انقلاب حسني الزعيم في الشام . الحق اقول لكم ان كل انقلاب لا يسبقه انقلاب نفسي وتجديد في النظرة الى الحياة والسياسة والمصالح القومية ، انقلاب زائل . الانقلاب الحقيقي هو الذي يبدأ بمعالجة الامراض والمفاسد التي تتآكل الأمة ، وبالبناء النفسي والعقائدي الصحيح للشعب ، كما نفعل نحن في الحزب السوري القومي الاجتماعي » .

وأكملت من هذا المنطلق .

وعندما بلغت الخاتمة ، توجهت لعريفة الاحتفال قائلا :

« تدعينني للكلام والزعيم بيننا ؟ عندما يكون الزعيم بيننا ، الزعيم وحده يتكلم .

تكلم يا زعيمي ! .. »

فعلا الهتاف والتصفيق .. يريد الحضور ان يستمعوا الى سعاده .

فوقف والقى خطابا دونه الامين يومذاك ابراهيم يموت ونشر في جريدة البناء في احد اعدادها سنة 1958 أو 1959 ..

ومما قال : الطغيان يلد الطغيان والمفاسد تلد المفاسد . لا بأس ان نكون طغاة على الطغيان وطغاة على المفاسد !

قد لا تكون هذه الكلمات هي ذاتها بالضبط ولكن الفكرة المركزية هي تلك .

انتهى الاحتفال وودعنا سعاده وانصرفنا .

لم يكن وداعه لي طبيعيا رغم ما وجه الي من عبارات الثناء . ودعني وهو يشد على يدي ويهز رأسه ..

قلت لزوجتي وانا ادخل السيارة : لن يمر هذا اليوم بسلام !

كنا نقيم في شارع الحمراء ، قرب الكبوشية ، في ملك جوزف الهندي . وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة ليلا عندما هممت بخلع ملابسي لآوي الى النوم . فاذا بالباب يطرق . كان هنالك الرفيق فوزي معلوف ، وكانت معه رسالة مكتوبة على الآلة الكاتبة . سلمني اياها وانصرف .

كانت الرسالة من الزعيم وقد جاء فيها : لقد ارتكبت يا عبد الله في خطابك هذا المساء خطأين :

الاول : كيف يجوز لك ، وانت رئيس الشعبة السياسية ، ان تعلن موقفا من انقلاب حسني الزعيم ، قبل التدارس مع اعضاء الشعبة ورفع توصياتكم الي ؟

الخطأ الثاني : كيف يجوز لك ان تقول ان الزعيم عندما يكون بيننا ، وحده يتكلم . الا تعرف ان هذه النهضة غنية بالطاقات والخطباء والمفكرين غير الزعيم ؟

الحقيقة ان الارتجال لا يؤمن له جانب لقد اعلنت موقفا معارضا للانقلاب ، قبل درس الوضع من جميع جوانبه . كما انني تسرعت اذ الزمت سعاده بالكلام ، كما تسرعت بالقول انه متى كان بيننا وحده يجب ان يتكلم ، كأنما الغيت كل المواهب والقدرات المتوافرة في الحزب ! .. (يمكن مرافقة رسالة الزعيم الي في مجموعة رسائله)

لنلاحظ ملاحظتين :

1 ـ ان سعاده اثنى علي وهو يستجيب لندائي .

2 ــ انه ما وجه لي انتقادا علنيا ، بل كتب رسالة خاصة لم يسمح لأكثر من ناموسه الاطلاع عليها .

هكذا كان يراقب تصرفاتنا ومواقفنا ، ويصوبها بالتي هي احسن ، بروح الابوة لا بالغضب ولا بالتقريع ولا بالازورار .

لله كم نحترق ونحن نذكره !

لله كم يجب على قادتنا ان يتخذوه قدوة ومثالا ، عندما يعارضهم معارض ، او يخطيء قومي اية خطيئة او اي خطأ ..

ومن اطرف ما جرى معي شخصيا في هذه الحلقات الاجتماعية ، اني كنت مصابا بصداع يوم احد بعد الظهر ، فاذا ضجة في الدار . كانت ابنة عمي ــ اخت زوجتي ــ الرفيقة ليلى بربر التي كان يلقبها الزعيم بالطاهرة قد جاءت مع رهط من الرفيقات والرفقاء اذكر منهم الرفيقة هيام نصر الله ، والرفيق اميل رعد والرفيق السابق خالد جنبلاط ، يريدون اشغال منزلنا لاقامة الحلقة الاجتماعية ، ومن ضمنها الرقص ، عوضا عن منزل الامين جريج الذي لم يكن شاغرا .

خرجت على الضجة ، فثارت ثائرتي . الصداع كان عاملا فعالا في احتدام الثورة .

لم اشأ ان اصدم رفقائي . دخلت بصمت يغلي الى غرفة الطعام ، واستدعيت الرفيق خالد جنبلاط ، الذي كان ناموسي في الشعبة السياسية اللبنانية ، وقلت له :

ــ يا رفيق خالد . انا مريض . لا تعط مجالا للرفقاء ان يطعنوا بي ، بأني اقفلت باب بيتي بوجههم . خذوا مرطبات خلال ربع ساعة ، وانصرفوا . قل لهم ان الامين عبد الله ليس بخير !

لم يتردد خالد . نفذ الامر بصفائه ومحبته . فما دقت الساعة الرابعة حتى كان الجمع قد تفرق او قصد مكانا اخر .

ويل للرفيقة ليلى كم احتملت مني في المساء ! كدت اقطع رأسها ، انا الذي قاتلت نفسي ساعات لاني نبحت سمنة !

أنا ابن قرية ده التي كانت لا تزال تسيطر عليها عقلية العشائر والقبائل . الرقص كان بالنسبة لي جريمة . ما رقصت يوما رقصا افرنجيا ولا سمحت لزوجتي

بالرقص في مطلع حياتنا وحتى مطلع الخمسينات . لم انقلب نفسيا انقلابا كليا الا بعد ان سافرت الى اوروبا . عدت انسانا آخر ! ..

ما الرقص الا لهوا بريئا عندما يكون بين العائلات والاصدقاء والرفقاء . انه رياضة واستمتاع لا شائبة عليه ، متى كان من ضمن نظرتنا في اللهو البريء .

لم يكن لدى سعادة متسع من الوقت للاتصال بالسفراء الاجانب لاستطلاعهم اراءهم واراء الدول التي يمثلون في الاوضاع الانترنسيونية التي كانت تشغل من اهتمامه حيزا كبيرا ، الا انه لم يكن يفوت الفرصة متى سنحت بل يغتنمها اغتناما .

احد اصدقائي عرفني بسفير بولونيا في لبنان في مطالع سنة 1948 . كان يتقن الفرنسية ويبدو مثقفا ثقافة عامة جيدة ، وواسع الاطلاع في الشؤون الدولية . عرضت على السفير ان يلتقي بسعادة على عشاء في منزلي ، فقبل بسرور .

وابلغت الزعيم خبر الدعوة فأرتاح لها بدوره .

وجرت حفلة العشاء ، وقد حضرها عدد من رجال السلطة التنفيذية والمكتب السياسي في الحزب اذكر منهم فؤاد ابو عجرم واديب قدورة .

اما السفير فلا ازال اذكر رأسه الاصلع الضخم ووجهه الناصع البياض ، وعينيه تغلب عليهما براءة الاطفال وسذاجتهم ...

كان سعاده يتقن الانكليزية والعديد من اللغات الاجنبية ، ويتكلم الفرنسية بصعوبة فيما كان يفهمها فهما دقيقا ، قلما يحتاج الى ترجمان فيها . اما السفير فيتقن الفرنسية ، ولكن يصعب عليه التحدث بالانكليزية .

كان علي ان اتدخل بين الفينة والفينة لأزيل بعض الغموض عن بعض العبارات عندما الحظ ان الرجلين لا يتفاهمان جيدا .

لأول مرة ، سمعت سعادة يناظر سفيرا اجنبيا . كم كان مهذبا رحب الصدر ، هادىء النفس ! يسمع الى مناظره دون ان يقاطعه ، دون ان يبدو عليه انه يتبرم من الاطالة . وكم كانت اجاباته واضحة ، تتناول كل النقاط التي دفع بها مناظره الى الميدان ، دون ان يهمل الابسط فيها او الثانوي ، او العديم الاهمية .

لست ادري لماذا اختار سعادة التركيز على المدرحيـــة اسماها بالفرنسية Materio spiritualiste ، وشرحها على طريقته شرحا مبسطا وعميقا .

لماذا المدرحية ؟

. اعتقد ان السفير البولوني ، بعد ان طرحنا عقيدتنا بين يديه ، بأوجهها الاساسية والاصلاحية ، لم يلفت نظره من الجديد فيها الا جانبها الفلسفي . ويبدو انه كان مغرما بالفلسفة . فناقش سعاده طويلا حولها ، وراح يقارن بينها وبين الماركسية والفاشية ! ..

هنا ايضا كان التحسر على ان الحوار الذي دار لم يسجل .. فقد توسع سعادة في التفاصيل ، لأول مرة ، فيما كان اكثرنا وانا من الجملة لا يفهم تماما كل جوانب الحوار .. لأن الفلسفة ليست من اختصاصي لاني ما تابعتها بشغف كما تابعت الادب والعلوم السياسية والاجتماعية والحقوقية .

عندما خرجنا من غرفة السفرة الى الصالة ، وكانت مفروشة حديثا ومتقنة قال لي سعادة بالفرنسية : Quel charmant coin يا لها من زاوية اخاذة ! ..

ليلة من العمر

كانت تلك الليلة من ايام الشتاء ، المطر ينهمر في الخارج والبرق والرعد لا يهدآن . وكانت دارنا مكتظة بالضيوف ، مائدتنا عامرة بما لذ وطاب ، والضيوف وفي طليعتهم سعادة ، يضفون على المنزل البهجة والفرح .

ما كان احوجنا جميعا الى تلك اللحظات الهنيئة ، فنحن ابناء الحياة حقا ، ولكنها حياة الجهاد والتضحية والتعب والسهر . لا يتحمل مسؤولية النهضة من طبعهم الاسترخاء والسعي وراء اللهو والعبث وقتل الوقت .

ضيوفنا انستان من المكسيك من آل نصار ، في عمر الورود بل هما وردتان جوريتان ، كيف تطلعت اليهما طالعك الجمال والكوثر .. والعبير ...

والموسيقار ــ الذي كان من اطيب وانقى الرفقاء ــ زكي ناصيف ، ورهط من الاهل والجيران ..

سعادة يتكلم الاسبانية بطلاقة . يعرف اغانيها الشعبية واناشيدها الحماسية ويتقن ملاحمها الغجرية فهما واداء .

والآنستان القادمتان من المكسيك ، لم تكونا جميلتي القامة والوجه واللسان فقط بل كانتا جميلتي النفس الى ثقافة واسعة وتحرر ملفت للنظر . لا يعني التحرر اكثر من السلوك المنطلق على السجية ، دون تصنع ولا تزمت ، ولا استحياء منافق . تغنيان بلا تردد ولا الحاح في الطلب . ترقصان كأنما تشربان ماء سلسبيلا ، فالرقص لديهمامتعة مشروعة ومحببة .

وأما زكي ناصيف ، فيغني بالعربية على وقع اوتار خفية ، يتصور انها تحت اصابعه ، فيداعبها ، فاذا صوته الآتي احيانا من وراء الوجود ، والقادم اونة من قلب البركان الهادر ، يكاد يسلب القلوب مع تهاديه ، او يرقص الشرايين على نبراته الحماسية .

ما كنت اتصور ان سعادة ايضا انسان مثلنا ، تسحره الموسيقى ، تهزه حتى الاعماق ، تطربه حتى المرح .

ما اذكر تلك الليلة كم غنى زكي ناصيف وكم اجاد . بالاسبانية طورا وبالعربية احيانا . وسعادة والحضور يستزيدونه ، وهو يترنح ويجود .

انطونيو فارغاس !

زكي لا يزال يذكرها . لأن تلك الليلة من ليالي العمر النادرة . من الليالي التي كان يبخل بها سعادة على نفسه كما يبخل علينا بها الدهر . اني متأكد .
من هو هذا الانطونيو فارغاس ؟

غجري مغرم متيم ، يكاد يقتله حب غجرية من اترابه .. تخونه الغجرية ، فيلحق بها الى ان يصطادها ويقتلها .. فاذا الغجر يغنونه في نفس ملحمي ، يجعلون منالحب ومصرع الحبيبة ملحمة واسطورة ... Antonio vargas heredia .

هكذا اذكر ..
الزعيم ايضا يغني . اسمعنا في تلك الامسية صوته ، فكانت لنا مفاجأة مذهلة ... ننصت . يتطلع كل واحد منا بالآخر .. اهو الزعيم حقا يغني لنا ؟ ذاك الذي بهر الناس بعقله وبطولاته ، يبهرنا ايضا بصوته .

كنت ولا ازال اقول لرفقائي : انهبوا ليالي الآنس ــ لا تفوتوا فرصة الفرح . نحن حزب كتب له ان يحمل خطايا الامة ، وان يحيا في النضال المرير ، لا يهادنه الدهر الا

لماما ، الا لحظات مهما طالت تظل قصيرة !

انهبوا ليالي الانس ، فمقابل كل ليلة منها عام من القهر والعذاب والدماء والدموع .

هي ضريبة التقدم . لا يجوز ان نهرب منها . هل هرب منها قائدنا ؟ ... من يستطيع ان يهرب من قدره ؟ .

في ليلة الشتاء الدافئة سنة 1948 ، هل لي بان اجعل منك فيلما ناطقا ، لاستعيده على الشاشة كل مساء !

كم احب ان اشاهد انطون سعادة ، ذاك الذي ما عرفناه الا في ساحة الصراع ، كم احب ان اشاهده انسانا يغني ويفرح ! كم اتمنى ان ارى الرجل المتحفز دائما للوثوب ، الجدي العابس المقطب الحاجبين كم احب ان اراه حملا وديعا ، كم احب ان اراه لينا خجولا ، كم احب ان اراه متواضعا !

قل لي ايها القارىء ، هل يمكن وانت في حضرة الجمال ، روحا وعيونا ، وفي حضرة صوت قادم من وراء الوجود او من قلب بركان ، يروي لك النسمات الربيعية الطالعة من واد في الجبل ، او يغني لك الرعود الهادرة على القمم ، هل يمكن الا ان تنطلق من كل قيودك فتفرح وتغني وترقص ، وتنسى كل ما على كتفيك من اثقال وفي دنياك من متاعب ؟ ...

تاريخنا القديم مع الدكتور شارل مالك لا يخلو من طرائف ومفاجآت . انه ابن كورتنا الخضراء . لقيته فيها اول مرة ببلدته بطرام في دار ابن عمه المرحوم شكيب مالك . كان يعتمر طربوشا مصريا شديد الاحمرار . مزهوا بنفسه اذ نال بكالوريوس علوم بتفوق في الجامعة الاميركية . يلاعب اترابه طاولة الزهر فيهزمهم جميعا . كان عقله متجها الى الرياضيات لا الفلسفة كما سمعت منه . بهرني بذكائه . ولكن اخذت عليه خفته . كان وهو ابن البكالوريـــوس يتصرف كمراهق .

والتقينا في بيروت مرارا بعد ان لمع نجمه كاستاذ فلسفة وفيلسوف ، كانت اخر مرة قبل سفر سعادة بايام سنة 1938 . كان قد اجتمع به في دار آل المعلوف وتحاورا ثمان ساعات متواليات كما اخبرني فخري المعلوف نفسه . قال لي الدكتور مالك بعد هذا اللقاء : لقد تقاربت وجهات النظر بيني وبين انطون ، ادرس جديا مسألة انضمامي اليكم . قال لي هذه الكلمات ونحن مستعجلان نمر امام مطعم فيصل الذي يتغير كل شيء في بيروت الاه .

ولقد تبين لي فيما بعد ان سعادة كان قد كتب رسالة الى الدكتور شارل حول خطابه عن معنى « الفلسفة » الذي اهداه نسخة منه . ولكي ادلل على العلاقة الطيبة التي كانت تجمع الرجلين في تلك الحقبة ، انشر بعض مقاطعها :

« ارى جليا انك بهذه الحملة الشديدة على شعبنا تريد ان ترفعه وان تعيد اليه حقيقته التي اضاعها ، ولكني ارى ان في تعابيرك احكاما عليه تصغره في عين نفسه ، وتجعله يفقد ثقته بحقيقته وبمؤهلاته للنهوض . انك تكاد تنتقم منه بدلا من ان تؤدبه وتعلمه ... ومع ذلك فاني ارى كيف تعود فتدرك ذلك وتحاول ان تنتشله وتريه اتجاه النور ولكنني اعتقد انه يكون قد خاف كثيرا من نفسه حتى لم تعد له بها ثقة ولم يعد يصلح لشيء سوى ان يكون قطعانا تخرج بالسياط والعصي ....

« واعتقد انك انت ايضا ستظل تحدث من خلال هذه الاسماء (سقراط وافلاطون

وارسطو وزينون ..) في الحقائق النفسية الاخيرة حتى تغيب من امام باصرتك هذه الاسماء وتغوص على هذه الحقائق والمرامي في اعماق نفسك وتحت تياراتها الخفية الجارية من تحت الطبقات التاريخية المطبقة عليها فتكتشف نفســـــــك فيلسوفا لا ناقل فلسفة .. الخ .. »

واحدنا يتصور كل شيء ، الا ان يصبح الدكتور الفيلسوف موظفا ! نحن ابناء القرى ، والدكتور الفيلسوف منا ، ننحني امام الدركي لأنه ابن « حكومي » فكيف نتصرف امام السفير الخطير ، السفير لا في بلد صغير ، بل في اميركا التي كانت تتحفز لابتلاع اوروبا .. والعالم !.. اليست هي القادرة ان تدمر الارض كلها طالما استطاعت ان تدمر هيروشيما ؟..

وفتحت امام الدكتور الفيلسوف ابواب وزارة الخارجية والبيت الابيض والأمم المتحدة . وصار عراب حقوق الانسان (اي حقوق ! او اي انسان) .

وعاد الى الوطن مظفرا !

وطُلب الى سعادة ان يستقبلـــــه على المطار .

فجاء الي ــ وانا رئيس الشعبة السياسية اللبنانية ــ يستشيرني في الأمر ، ولكنه عرضه علي وهو على ما بدا لي متخذ منه موقفا . شارل مالك سفير لبنان ، ولكن انا انطون سعادة زعيم الحزب السوري القومي الاجتماعي !.

قر الرأي ان استقبله باسم سعادة ، باسم الحزب ، فحزمت امري واستقبلته مع المستقبلين على المطار ، وكانوا عددا محددا يمكن حصره بالارقام ، اين استقبال سعادة قبل عام واحد . وقد غطت الجماهير الرمل على رحبه !.

يمكن ان تكون لي قوة لا اعرف استغلالها ، اضيع بين زحمة الناس حتى ولو كنت امثل الزعيم !
الا انني وجدت من اسعفني ، وهززت يمين الرجل وافهمته اني قادم لتحيته باسم الحزب ، « باسم الزعيم !.. » فكلفني بان انقل له سلامه .

وكان سعادة ينتظر ان يرد له شارل مالك الزيارة بشخصه ، الا ان الكبرياء المالكية وجدت مخرجا يرد الدكتور مالك الزيارة للحزب في منزلي .
فاستقبلته مع رفيقين من الشعبة . وكان لطيفا جدا ومهذبا ، فلما المحت الى وجوب

اجتماعه بالزعيم كان دبلوماسيا ، فلا قبل ولا رفض ، فاعتبرته رافضا .

بحضوري لم يجتمع بسعادة ، لست ادري اذا تم اي اجتماع بغيابي !..

لم يعد شارل مالك الشخص الذي ودعته قبيل سفره الى الغرب منذ سنتين .. الشهرة العالمية كبرته فبعد ان كنت تقع في ملامحه على الرجل الاكاديمي المعلم اصبحت تقع على الرجل ــ السلطة ــ على السياسي رجل الدولة . ان يكون الانسان عراب حقوق الانسان ، والمتصدي فلسفيا للشيوعية وللاتحاد السوفييتي ، والطامع برئاسة الأمم المتحدة كلها ، ليست بالامر اليسير « او الصغير او الهين » انها هالة الشهرة صارت تربض على كتفيه .

هكذا احسست وهو يحدثني عن الأمم المتحدة ويستطلع رأيي في مواقفنا السياسية .

كم للسياسة من مآثر تخريبية ! لو كنت انا مثلا موظفا في حكومة زورت انتخابات شعبية في كل انحاء البلاد هل كنت اقبل ان اظل موظفا من موظفيها ؟ انا الفيلسوف شارل مالك ؟

كيف قبل شارل مالك ان يظل سفير حكومة لبنان التي ارتكبت جرائم تزوير انتخابات 25 ايار 1947 ؟

الهالة التي رافقته الى منزلي . واثناء حديثه معي بدأت تنحسر ، تنوب ، تتوارى ، تتبخر وانا افكر ، كيف يقبل الفيلسوف ان يصبح سياسيا وموظفا في حكومة مزورة من اعلى الهرم فيها الى قاعدته .

في ساحة الصراع

ضرب المحامي الزميل والصديق انطون مالح رقما قياسيا في النجاح كمحام مختص في الشؤون المدنية والتجارية ذكي واسع الاطلاع مجتهد يعمل بمسؤولية ودقة .. ما سمعته يوما تحت شجرة قصر العدل او في ساحة القصر يتحدث في السياسة . كنت اتصور ان قصارى جهده واقصى طموحاته تتركز على نقطة واحدة هي النجاح في المحاماة والبقاء ضمن اسوارها الضيقة على رحابها .

كيف اكتشفه سعادة ، كيف التقاه ؟ لا يزال الامر عني خفيا . ما استطلعت ولا حققت .

فجأة تحدث حادثة المقدم طبارة الذي لحق بكامل الحسين من الشام حتى داخل الحدود اللبنانية فقتله لانه كان من الثابت انه يتعامل مع « اسرائيل » بل جاسوس اسرائيلي .

تقوم القيامة . كيف خرق الضابط الشامي حدود السيادة اللبنانية . كيف قتل كامل الحسين داخل هذه الحدود ؟

يلقى القبض على الضابط ، يزج في السجن . تهب صحف الشام صاخبة مزمجرة مهددة . تطالب حكومة الشام بتسليم الضابط . ترسل الانذارات الى الحكومة اللبنانية . توسط من توسط من رجال السيف ورجال القلم .

يقف سعادة مع الضابط دون تردد، ويستحصل من الاستاذ انطون مالح على دراسة مفصلة عن وجوب تسليمه الى حكومة الشام تحتوي على اسانيد من الحقوق الدولية العامة ، وعلى احكام من المحاكم الانترنسيونية . بهرتني المذكرة . قدمها سعادة باسم الحزب الى الحكومة اللبنانية . كما نشرتها الصحف دون ان تشير الى واضعها الحقيقي الاستاذ انطون مالح .

كان للمذكرة ردود فعل ايجابية في الشام وسلبية في لبنان . الحزب السوري القومي

الاجتماعي لا يقول بوحدة لبنان والشام وباقي الكيانات السورية اكراما لأحد . انه مؤمن . وعليه ان يعزز باستمرار وحدويته ــ على ما لها من شروط وحدود ــ بالمواقف المبدئية المثيرة . وجاءت مذكرة انطون مالح تساعد على الصمود في هذا الموقف ودعمه بالحجج والنصوص القانونية والاجتهادات القضائية .

يبدو لي ان العلاقة بانطون مالح لم تبق بلا ثمار . ففي يوم من ايام النصف الثاني من سنة 1948 ــ على ما اذكر ــ يمر سعادة بمنزلي مشرق الاسارير مستبشرا . لقد ادخلت الآن انطون مالح في الحزب . نعم لقد اقسم اليمين لتوه . وانا جئتك للتعرف اليه والتعامل معه كرفيق ، ولكن بحذر لانه لم يشأ ان نعلن اسمه الآن .

كدت اثور ، اتمرد ، اكفهر وجهي . انفعلت واضطربت . لماذا يدخل سعادة محاميا في الحزب قبل ان ازكيه . ان اقدم مطالعتي بشأنه . ليس مشهورا عن انطون مالح انه ميال للحزب او انه محام وطني او انه عامل في الحقل العام . ان انطون مالح محام وحسب والمحامون المشدودون الى المحاماة بحبال من فولاذ لا يفهمون النضال ، ولا يحبون السياسة ولا تستهويهم العقائد مهما كانت حرة ومهما كانت تقدمية . المحامون يريدون ان يصلوا الى منصة الاحكام بقوة الفقه والقانون . وبالشهرة والشعبية التي يكتسبونها بالمران والمراس على منابر قصر العدل او منابر الصحافة .

لو كان انطون مالح محبذا او نصيرا او كان قريبا من الحزب لجاءني كما فعل الباقون من المحامين وطالبني بالنشرات والكتب الحزبية . لكان لاحقني في قصر العدل او في مكتبي باحثا محاورا مستفهما كما فعل سعيد تقي الدين فيما بعد ، لكان طرح علي سؤالا او اشار لي ببادرة ودية تحملني على مطاردته فاصطياده . لم يفعل ، فكيف وفق سعادة باصطياده دون كبير عناء ، ولكن بأي سلاح ، بأي دواء ؟..

قلت لسعادة ، مغتاظا مكهربا مستفزا . ولكن كيف ادخلت الرجل ؟ هل درست ماضيه هل تعرفت الى سلوكه ، هل اخذت الحيطة الكافية لدرء اي خطر قد يأتي عن ادخاله ؟..

قال سعادة : لا يهمني ماضي الرجل . يهمني حاضره . لقد ربحت عنصرا ذكيا واسع الثقافة والاطلاع . ليس كل من يدخلون الحزب ، يا عبد الله (Orthodoxe) ارثوذكسا اي يعتنقون العقيدة بمثالية وتجرد ونزاهة . بينهم ــ وقد يكون انطون مالح منهم ــ من يدخل انتهازيا Opportuniste . قال الكلمتين Orthodoxe و

Opportuniste بالفرنسية . علينا نحن ان نهضم المنتمين ، ان نتمثلهم . il faut les assimiler . قالها بالفرنسية ايضا . الآن بدأ دورك مع الرفيق انطون مالح زميلك في المحاماة . ارني براعتك ودأبك واجتهادك في عملية صهره في روح الحزب ونضاله .

والتقيت انطون مالح . لم يكن بعيدا عني من قبل ولكن لم يكن في عداد اصدقائي . وترافقنا . ثم افترقنا بعد الاستشهاد . لا يزال الرجل في عداد اصدقائنا ولكنه لم يعد لنا رفيقا ..

اني اسأل نفسي الآن . كم من الناس ادخلنا في حزبنا ؟ كم بقي منهم وكم منهم سقط او اهمل او تراخى او هرب ؟.. عدد كبير كبير . ذاك لأن الاكثرية التي هجرتنا او هجرناها كانت من هؤلاء الذين سماهم سعادة انتهازيين ، اي من الذين دخلواالحزب لغاية في النفس وهجروه لغاية في النفس ايضا .

لسنا الحزب الوحيد الذي مر بهذه التجارب . كل احزاب العالم شهدت العديد من هؤلاء . لا نحفظ لهم الا المودة عندما يكونون قد افادونا بدخولهم ثم افادونا بخروجهم . ان الصامدين المنضبطين الذين يحملون الرسالة رغم الصعاب والتضحيات هم المؤمنون الباقون في ساحة الصراع . اما الذين دخلوا وهم يعتقدون ان حزبنا حزب سياسي ، يمر به العضو للتسلية او للاستطلاع او للتعرف اليه لعله ينتصر فينتصرون معه ، اولئك هم المستعدون عند اول صدمة ان يركبوا المركب السهل فيطيرون على اجنحة الهرب .. فلكأنهم ما دخلوا ولا آمنوا ولا اقسموا اليمين .

العديدون منهم ، وفي طليعتهم انطون مالح ، لا يزالون من الاصدقاء . افضل لهم ولنا هذه الصداقة ، من ان يكونوا اعضاء بالاسم والرقم فقط!..

سنروي في حينه كيف خسرنا هذه الطاقة القانونية في من خسرنا من رجال القلم ورجال « الروب » ليست كل الأجسام ولا كل النفوس بقادرة على الوقوف طويلا على دربنا المحفوف بالمخاطر .

الدماء وديعة الأمة

كنا قد احتفلنا في دار الأمين الراحل بشير فاخوري بعيد اول اذار 1948 بحضور الرئيس سامي الصلح والنائب كاظم الخليل ورهط من الاصدقاء والرفيقات والرفقاء .

وتوجه سعادة الى ضهور الشوير للاستجمام مع عائلته . فاذا بمديرية بيت مري تدعو للاحتشاد في ساحة دار المحامي خليل سيف الدين للاحتفال بعيد مولده .

كان الرفيق الفقيد وديع الاشقر قد اصبح وكيلا للاذاعة وكانت بيت مري بفضل الرفقاء الناشطين قد نمت نموا سريعا واستقطبت انحاء المنطقة المتنية من برمانا ، الى بعبدات الى المنصورية الى العبادية بلوغا لرأس المتن .

التقى الساحل المتني مع الجبل في يوم العيد . في الثانية بعد الظهر اقبل سعادة . لا يزال في خاطري منظره يخترق الصفوف المتأهبة الرافعة الأيدي بالتحية القومية وهو يحمل على ذراعه صغيرته اليسار ويحيي الجمهور باليد الاخرى مبتسما ابتسامة الرضى و .. الاطمئنان .

لا اذكر كل خطباء ذلك النهار ، ولكني اذكر اني القيت انا نفسي خطابا . لا يمكنني ان استعيد ولا مقطعا من مقاطعه .

يومها قال سعادة كلمته الشهيرة : ان الدماء التي تجري في عروقنا ليست ملكا لنا ، انها وديعة الامة فينا متى طلبتها وجدتها .

وكانت حفلة عائلية في المساء في دار الشخطورة . كانت مأدبة سخية في دار العائلة الكريمة وكان تألق الرفيق وديع الاشقر وكيل الاذاعة في تلك الامسية الحلوة .

كان نجم وديع قد بدأ يلمع ، ويصعد . ففي جريدة النهضة يكتب ، وفي المناسبات الحزبية يخطب ، عباراته تتسم بالرشاقة والجدة . وافكاره تنضج رويدا وخياله يتوسع ويتسامى . حدثنا عن سعادة شعريا . وصفه بالنسر ، ورحنا نحاول ان نلحق بـه في صورة بديعة ، لهذا النسر العظيم ، يرسمها وديع بتدفق ، كان يهبط عليه الوحي

من عل ، ونحن نتطلع الى فوق ، والى وجه سعادة معا ، يعجب بوديع ويشترك معنا بالتصفيق له .

تبقى هذه الآية : ان الدماء التي في عروقنا ليست ملكا لنا انها وديعة الامة فينا متى طلبتها وجدتها ، كلما رددتها ، تأخنني الزهوة اني سمعتها من فمه لا مكتوبة على ورق .

وتنقلني هذه العبارة الى اختها : الحياة وقفة عز فقط . تنقلني الى بشامون ، يوم احد لا اعرف من أي عام اهو 1948 ام 1949 الى دار الرفيق عادل مسعود ، حيث كان قد احتشد في الساحة الوسيعة مئات الرفقاء والمواطنين ، ووقف على الشرفة سعادة والى جانبه الامين عبد الله سعادة . رئيسنا الحالي وعدد من المسؤولين .

كنت انا في الصف الامامي ، اصغي . لاول مرة سمعت عبد الله سعادة يخطب في حماس المؤمنين وبلاغة الشعراء . يومها في بشامون قال عبد الله في قالب جديد وصورة جديدة كيف ان الارادة القومية ستكون القضاء وستكون القدر .

وكان الزعيم هادئا كعادته . تطلع في الحشد الكبير امامه وقال :

ان حياتي لا تساوي عندي « تكة » ، وضرب الباهم بالبنصر ، لأن الحياة عندي وقفة عز فقط .

لقد سمعت بأنني العبارتين : الدماء التي تجري في عروقنا ليست ملكا لنا ، انها وديعة الأمة فينا متى طلبتها وجدتها والثانية الرائعة مثلها : الحياة وقفة عز فقط .

عندما اقرأ في هذه الايام تصريحات القادة المحاربين وغير المحاربين ، وترن في انني كلماتهم الطنانة الرنانة ، اتذكر هاتين الآيتين ، واقول : ليس المهم ان يكون الانسان بليغا وبياني العبارة والنبرة ، المهم ان تخرج كلماته من شرايين قلبه . وان يكون مؤمنا بما يقول . فاذا طولب بان يحيا اقواله حياها ، وان يطبقها طبقها ..

لقد كانت وقفة سعادة على رمل الجناح وقفة عز ، كما ان الدماء التي سالت من صدره كانت حقا وديعة الأمة ، اعادها اليها ، كانما كان يفي نذرا .

ما اعظم الكلمات العظيمة اذا كان قائلها مستعدا ان يحياها وان ينفذها مبتدئا بنفسه لا بالآخرين .

في ضيافة: جورج مصروعة

في ربيع 1948 امضينا يومين من تاريخنا التثقيفي ، الواحد في قرنة الحمراء ـ الفريكي والثاني في دير الغزال ـ البقاع .

في قرنة الحمراء ، نحن في مدرسة جورج مصروعة القومية الاجتماعية .

من يقول ان جورج مصروعة يستطيع ان يكون مدير مدرسة ، وان يكون مؤلف هنيبعل ، وان يربي عائلة طموحة ؟ من يصدق جورج مصروعه القائل انه اذا زرع الكرمة فعنقودها رطلان ، او ربى الارانب فتنسل بالالاف ، واذا غرس التفاح واتقنه فحبته كيلو ، واذا اطلق النار على الزرازير فتسقط بالمئات وعلى الحجال فبالعشرات ؟ رجل المبالغات ، الذي لا يغلب في الادب ، ولا في طاولة الزهر ، ولا في اي شيء ... من يقول انه امن بالحزب والف ابن زيكار وضحيتان ثم هانيبعل وحرب قرطاجة ، وانه كان مربيا ومؤسسا لمدرسة قرنة الحمراء ؟

رجل المبالغات اذن ، ينشيء مدرسة تزدهر في اسابيع ، أساتذتها من خيرة الاساتذة ، وتلامذتها من خيرة الشباب ، ولكي يقنعنا ، يقنع سعادة وقيادة الحزب بكل هذا النجاح يدعونا الى ان نكون شهودا على نجاحه .. ان نكون شهود عيان .

ونصعد الى القرنة ، الى جوار الفريكة وامين الريحاني .. نزور داره في غيابه . نطل على الوادي ، على يميننا بيت شباب وبكفيا والضهور ، وعلى شمالنا الساحل المتني الافيح . ومن النافذة تطل علينا جبال كسروان الجرداء !..

التلامذة والمعلمون والجوار يملأون ساحة المدرسة ويستقبلون سعادة استقبالا حافلا . حشد من المطلين على الحياة ، البعض لا يزال في البراعم ، والبعض الاخر نما واشرأب عنقا وخيالا . والاخرون من ابناء شعبنا الذين صار اسم سعادة محببا الى قلوبهم ، لانه رجل عقيدة وموقف ، نذر نفسه لخدمة امته ووطنه .

لو كان لدينا فيلم للقاء سعادة بمدرسة قرنة الحمراء لكان بامكاننا استعراض

اسلوبه في التعامل مع الشباب ، مع الكبار والصغار ، لرأينا بام العين باي تواضع وبساطة كان يقابل الجميع ، يشعر الكبار انه لهم اخ ، ويشعر الصغار بانه لهم اب ومرشد ، لشهدنا وسمعنا كيف كان يباسط جورج مصروعه ويمازحه ، دون ان يتنازل عن مهابته ووقاره ودون ان يتخلى عن اعجابه بمؤلف جورج الصادر في سنة 1945 ـ 1946 بعنوان ابن زيكار ، هذا المؤلف الطليعي الباعث لحقبة من تاريخنا القديم في جسد قصة حب وبطولة !..

ويدلف الناس الى قاعة الاجتماعات في المدرسة ، القائمة في قصر آل طعمة ، ويتزاحمون ويتدافعون ليستمعوا الى القائد .

وتبدأ الحفلة .

يفتتحها جورج مصروعة ببلاغته البسيطة الجذابة مرحبا ، شارحا اهداف عمله التربوي التثقيفي لتنشئة جيل قومي اجتماعي واع .

ثم القى احمد نزهة شروقية من نظمه .

وادعى انا للكلام .

اندفع في حماس المؤمن لأعـدد عبقريات سعادة في كل الحقول والميادين ـ عبقريته كعالم اجتماعي ، عبقريته كاديب ونقادة وفيلسوف ، عبقريته كمنظر في الاقتصاد ، واخيرا عبقريته كقائد واداري . انه ليس عبقريا فحسب انه جامعة عبقريات .

ثم ألتفت الى المعلم واخاطبه قائلا :

ان الاجيال المقبلة ستحسدنا ، يا زعيمي ، لاننا عايشناك، آكلناك وشاربناك ، وتسقطنا تعاليمك من فمك ، واننا شاركناك في النضال ، سجنا وجهادا ، وحملنا معك وعنك الالام والاعباء كما حملت انت مسؤولية خلاص الامة وآلامها ومتاعبها .

ثم جاء دور سعادة ـ

فبدأ خطابه هادئا : تطلع وراءه من النافذة فاذا جبال كسروان الجرداء وقال : اليس جهلا ان تكون هذه الجبال جرداء ! اننا نأمل متى انتصرت هذه النهضة ان نشجرها ، فتمتلى غابات واخضرارا فتصبح متنزها للعين ، تنتعش القلوب بنسائمها وتدب في صخورها الربيع والحياة ..

ومن الجهل ، يعرج على اهمية المدرسة والتربية والتعليم . ويتناول العلم في علاقته بالأمة ونموها وازدهارها ، ورقيها الثقافي والحضاري . ثم يثني على جورج مصروعة

ومشروعه منوها بأهمية المدرسة القومية في وجه المدارس الاجنبية وبرامجها واهدافها اللاقومية .

وتنتهي الحفلة ، فاذا بنا على مائدة جورج مصروعة وزوجته وبكره زيكار .. والفتى بشير عبيد الهارب من مدرسة بيت شباب وبعض اترابه ليروا ويسمعوا الزعيم ، الرجل الذي كان بعض تلامذته في القرية يتحدثون عنه كانما هو نبي اكثر منه قائد حزب سياسي !..

كان بشير على ما روى لي مأخوذا بالايمان الديني ، يعد نفسه للكهنوت دون ان يتخذ قرارا حاسما في الامر ، ها هو وجها لوجه مع انطون سعادة . تهيب ولكنه اقدم . « اريد حضرة الزعيم ان اطرح عليك سؤالا : ما رأيك بالله ، بالدين ؟ » .

يشرح سعادة لبشير بكل بساطة وابوة نظرته .

اما بشير فقد كان مضطربا سمع ولم يفهم . هكذا حدثني عن اول لقاء له بالمعلم .

لا انسى ذلك النهار الجميل في قرنة الحمراء ــ الفريكة .

لا انسى مجلس جورج مصروعه الانيس ومائدته السخية .

رجل المبالغات الذي يصيب عشرين حجلا بفقسة بارودة . وفر لنا نحن ضيوفه . وسعادة في المقدمة . بضع ساعات من الحياة الدافئة والعابقة بالفرح والمتعة والصفاء . للمرة الثانية ، وعلى طاولة بيت جورج مصروعة احسست اننا مع سعادة الانسان ، الانسان الذي يضحكنا ويضحك لما يقدمه المضيف من احاديث تراوح بين الحقيقة والخيال ، ولانها كذلك تضحك الثكلى فكيف لا تضحك ضيوفا اعدوا انفسهم لساعة فرح !..

بعد الظهر عدنا الى العاصمة .

ها انا اكتب هذه الذكريات بعد 32 سنة على حدوثها ، لا اعرف اين يقيم جورج مصروعة الان ، ولا ماذا حل به . الا انني افتقد كثيرا كتاب التاريخ الذي اغنى المكتبة القومية ، والمكتبة العربية بوجه عام ، الذي موضوعه هنيبعل ، لقد نهب هذا الكتاب من منزلي ، ولكنني ساعوضه لاني وجدت فيه « رجل المبالغات » قادرا ان يكون مؤرخا من الطراز الاول ، فينبش تاريخ قرطاجة التي بناها شعبي على شواطىء افريقيا وكاد ان يحتل بها العالم . ويكتب تاريخها ــ عبر تاريخ هاني بعل اعظم قائد في كل الأمم وكل العصور ــ بلغة وعمق وشمول لم يسبقه اليه كاتب قومي من قبل .

الا يتساءل الانسان وهو يقرأني ــ كما اتساءل انا فعلا ــ كيف يمكن لكاتب او

اديب او مؤرخ ان يكون في حياته الخاصة رجلا عاديا ، وان يقفز عندما يكتب ويؤلف ويؤرخ الى مرتبة النوابغ ؟

ثم الا نتساءل الان كلنا : كيف نضبت منابع جورج مصروعه او كيف تحول من اعلى عليين الى الصمت والجمود . كيف تألق وسطع يوما ، ثم ادركته القمة والصقيع قبل الاوان ؟.. اين انت الان يا جورج مصروعه ؟

بعد نشر هذه الحلقة اهداني الدكتور جميل ابو خاطر كتاب هنيبعل تعويضا عن النسخة التي نهبت من منزلي خلال الاحداث .

سعاده في ضيافة يوسف الدبس

لا ازعم اني حفرت في ذاكرتي تاريخ زيارتنا الى دير الغزال – في جوار رياق – بازميل خاص كيما لا انساها . ان المناسبة وردت في خطاب سعاده في ذلك اليوم التاريخي وهي عيد مارجرجس الخضر الذي يقع في 23 نيسان من كل عام .

كنت مع سعاده وعدد من المسؤولين المركزيين قد لبينا دعوة المنفذ العام للبقاع الاوسط الرفيق يوسف الدبس لزيارة مديرية بلدته دير الغزال . ويوسف الدبس هو الذي تحدثت عنه كثيرا في سياق هذه الذكريات ، لانني انا الذي اقنعته بدخول الحزب في محل فتوح اخوان على ساحة البرج سنة 1935 عندما كان الحزب سريا وفي رياق ودير الغزال كنا نعقد الاجتماعات السرية .

لم اكن اذكر كل التفاصيل التي سأذكرها لولا ان آل الدبس الاعزاء امدوني بصورة عن النشرة الرسمية التي سجلت وقائع تلك الرحلة بالتفصيل .

وصلنا الى المريجات حيث كان الرفقاء القادمون من زحلة وقب الياس والمعلقة انضموا الى رفقائهم من مكسة وبوارج والمريجات نفسها واصطفوا على طول الطريق العام حيث نصب قوس نصر عليه ثلاث لوحات باسم هذه المديريات الثلاث .

استعرض سعاده صف الرفقاء الطويل . ثم سار الموكب تتقدمه الدراجات البخارية ووراءه سيارة المنفذ العام فالامناء فالحرس بقيادة الرفيق المناضل جوزف حداد ، فهيئة منفذية البقاع الجنوبي ثم سيارات القوميين في بوارج والمريجات ومكسه وزحلة والمعلقة وقب الياس ، الى ان بلغ بلدة بر الياس حيث نصب قوس نصر رفعت فوقه لوحة كتب عليها « القوميون الاجتماعيون ووجهاء بر الياس واهلها يرحبون بالزعيم المفدى » من بر الياس الى رياق حيث جرى لنا استقبال شعبي حاشد . الناس على الشرفات والسطوح يصفقون ويحيون سعاده وهو يرد لهم التحية باجمل منها مشرق الاسارير .

في رياق القى الزعيم كلمة في بيت الرفيق نبيه دموس قال فيها :

« اشعر بسعادة عظيمة لوجودي في هذا البلد الطيب ، سعادة خاصة بي لان رياق لم تخيب الامل الذي وضع فيها لانشاء عهد جديد لهذه الامة اذ في هذه المنطقة ابتدأ الحزب السوري القومي الاجتماعي في البقاع ومنها امتد الى جميع انحائه »

« اذكر يوم رياق وقد دخلت الى حانوت صغير رأيت فيه من الرجولة والعز الشيء الكثير واجتمعت فيه الى عدد قليل من ابناء رياق اكثرهم عمالا وافتخر انهم كانوا عمالا ولا يزالون عمالا حتى اليوم فنحن جميعا عمال لهذا الوطن .

« وبعد خمس عشرة سنة جهاد ومثابرة صارت رياق جيشا صغيرا من جيوش النهضة القومية الاجتماعية ، انها كتيبة من الوية الزوبعة الحمراء وجيش الانتصار للنهضة القومية الاجتماعية »

« ان عهد الذل قد انقضى وقد وضعنا له حدا وابتدأنا عهد عز ومجد فتحناه بقوة ايماننا وسواعدنا وسنبقى رجاله ، نصونه الى النهاية . اهنئكم ايها الرفقاء واعتز بكم ، فلتحي رياق وليحي القوميون الاجتماعيون » .

ومن رياق انطلق الموكب الى دير الغزال .

تذكرت ايام صافيتا وتلكلخ .. والخيول المطهمات والفرسان الاشاوس . لقد قابلتنا رعيت ودير الغزال وقوسايا بمثل اولئك الفرسان على صهوات جيادهم يستقبلوننا في شموخ انف الفرسان ! ..

وبعد التعارف في دير الغزال واستراحة قصيرة ، ابتدأت الحفلة الكبرى ، كان هنالك امام دار المنفذ العام قوس نصر كبير عليه صورة مكبرة للزعيم الجليل ولوحة باسم القوميين الاجتماعيين في البلدة كتب عليها : اهلا بالزعيم المنقذ .
وابتدأت الحفلة الخطابية بكلمة وقصيدة من المنفذ العام ثم خطاب القيته انا لا ازال اذكر بعض الافكار التي وردت فيه .

فالفكرة المركزية كانت لماذا نحب الزعيم . والمحبة غير الاجلال والاحترام والتقدير . المحبة عاطفة تنبثق من شغاف القلب وحنايا الضلوع وتطغى احيانا على الادراك والعقل ، فتكون اسمى من الادراك ، اسمى من العقل . ما نفع ان تحترم وتقدر وتجل انسانا اذا لم يكن فيه جوانب وسجايا وجمالات نفس ومشاعر تستحوذ عليك ، فاذا

انت مأخوذ به ، تشتاق لقياه ، تشتاق حديثه ، تحس اذا عنه بعدت ان صوته يناديك . انه معك يمشي ، كانما يقرأ في الكتاب الذي تقرأ ويأكل من الصحن الذي منه تأكل تحاول ان تنساه فلا تستطيع ، تحاول ان تجد له نقيصة فلا تستطيع . كان الزعيم بالنسبة لي محبوباً قبل ان يكون مرهوبا ، هكذا كل الذين تعاونوا معه كل الذين عاشوا في ظلاله ، احبوه ثم اعجبوا بمقدرته وتفوقه وعبقرياته . في دير الغزال تناولت هذا الموضوع من كل جوابنه . لأعلن على الملأ ، ان الرجل القائد الذي يعتقده الناس دكتاتورا ، يتسلط على القوميين الاجتماعيين ويقودهم بما يشبه السحر ، هو انسان يحبهم ، يحب شعبه ، يحب ارض بلاده ، فاذا هذا الحب يرد اليه اضعافا ، واذا هذا الحب هو مصدر تعلقهم به ، يفتدونه بالارواح .. اجل شخص الزعيم بالذات كان المحبوب . فكم يتكامل هذا الحب ويتصاعد او يتعمق ، عندما يرى القوميون زعيمهم يضع كل ما اعطاه الله من مواهب في خدمة القضية التي بها آمنوا .

ثم حييت دير الغزال التي تغنى بها يوسف الدبس في خطابه وقصيدته والتي كانت اول قرية آمنت بالنهضة في البقاع الاوسط ــ لأن مشغرة (البقاع الغربي) كانت قد سبقتها بوليم ابو خليل وعساف ابو مراد وعبد الله محسن ــ وقلت ان القرى الصغيرة تبنت عادة العقول الكبيرة والعباقرة ، واستشهدت بالشوير وكفرشيما وبيت لحم وبشري ..

ورحت اتساءل : يسأل الناس ماذا عملتم وماذا تعملون ؟ فقلت اننا نعالج بصبر واناة العقلية الرجعية التي سادت وتسود امتنا ، فنقتلعها من الجذور لنغرس مكانها عقلية التقدم والنهوض والثورة والمثل العليا . ولقد شرعنا للناس القضية القومية ، فالتف حولها العديد من ابناء الشعب ، وهي آخذة بالانتشار والتوسع ، فمتى اصبحت لها القوة القادرة على التحقيق ، سار بنا سعادة الى النصر ، الى دك الاوثان ، والعروش الباهتة ، والى تحطيم القيود والاغلال ، والى جعل الارادة الشعبية هي الفاعلة والسيدة ، وان الامة هي التي تقرر مصيرها لا الارادات الاجنبية ولا الاحداث العابرة !

لقد اعدنا لهذه الامة ثقتها بنفسها ، وهي اخذة بالنمو ،

وستأتي ساعة تكون قد دقت فيها ساعتها فتشرق من جديد امة العقل والابداع والحضارة والقيم القومية الاجتماعية الجديدة ، الامة التي تعرف كيف تطمح وكيف تثور .

ثم استمعنا الى شروقية من الشاعر الراحل يوسف حاتـم وخطاب الامين مصطفى عبد الساتر ثم القى سعادة الخطاب التالي نصه :

خطاب الزعيم في دير الغزال

« اختارت منفذية البقاع الاوسط هذا اليوم لازور فيه هذه المنطقة التي تقت كثيرا الى العودة اليها لاشاهد ما تطور فيها وتغير منذ ذلك الزمن البعيد ، من نحو اربع عشرة سنة تقريبا ، الى اليوم . وقد احسنت المنفذية اختيار هذا اليوم لانه يوم فيه مغزى قومي عميق ، هو يوم الاحتفال بمار جرجس او الخضر . ولا يعرف الناس اكثر من ذلك عن رمز هذا اليوم .

ولكن ما هو جرجس وما هو الخضر ؟ انه اسطورة فلسفية تاريخية عميقة جدا ومتأصلة جدا في حياة هذه الامة وفي مثلها العليا ، هو فكرة جميلة جدا ، هي فكرة انتصار القوة والشباب وجمال الحياة على الهرم والشيخوخة والاباطيل المظلمة (تصفيق)

انه فكرة جليلة جدا ، قبل ان يسمى بطل هذا العيد مار جرجس وقبل ان يسمى الخضر كان يسمى في هذه البلاد البعل ، اله الشباب والجمال والقوة والانتصار على الاباطيل ، انه البعل الذي اكتشف في رأس شمرا ، قرب « الميناء البيضاء » في اللاذقية ، البطل الذي اخذ على عاتقه مهمة عظمى هي النزول الى التنين الذي يخيف الانسانية ليقتله ويسحق رأسه (تصفيق)

وقد اتم البعل مهمته وقتل التنين وجاء مار جرجس ، الخضر ، في عهد المسيحية والمحمدية يعيدان الصورة والمغزى عينهما. هو على صهوة جواده يطعن التنين تحت قوائم فرسه الطعنة القاتلة ويمحو اثره من الانسانية . ما أجمل هذا الرمز لهذا اليوم ، ان هذا اليوم يذكرنا بالمهمة العظمى لهذا الدور الرابع في تاريخ هذه الامة : من البعل الاول ، الى مارجرجس ، الى الخضر ، الى النهضة القومية الاجتماعية (تصفيق شديد وهتاف)

هذه النهضة التي جعلت مهمتها الاولى قتل التنين واخراج هذه الامة الى المجد والعز (هتاف)

ما اشد الاباطيل وما اخبث التنين الذي ننحدر لمنازلته ولسحقه ! انه تنين عديد الرؤوس كثير البراثن والمخالب وحاد الانياب . انه تنين عظيم جدا . انه تنين مزدوج

مشترك من فساد الذل في اجيال عديدة مرت في هذه الامة ومن ارادات اجنبية تتحالف مع الذل والفساد ، تنساب في سهولنا واوديتنا ، تحاول الالتفاف علينا لخنقنا ، تحاول القضاء على ما في نفوسنا من شرف . تحاول ان تمنع عنا ذروة المجد والشرف ! (هتاف)

انها انابيب النفط التي يبيعها الفساد للاجنبي بيعاً ، انابيب ما اشبه انسيابها في اراضينا بتلك الافاعي التي تنساب نافثة سمومها ! انها الرشوات تعطى لابناء الذل لورثة الظلم في الامة ليعلنوا ما لا يريد الشعب اعلانه ، لا ليعلنوا ارادة الشعب ، بل ليعلنوا ارادة الاجنبي المفروضة على الشعب لذله ! (هتاف)

انها اليهودية الجديدة ، المتصهينة ، الزاحفة تحت سلاح انترنسيوني عظيم واسع ! انها الاحتكارات الخصوصية في شعبنا ! انها الاقطاعات التي تقيم من بعض الناس سادة يستعبدون الكل ! انها رأسمالية مادية خانقة تقطع العامل والفلاح في هذه البلاد الذي هو كل البلاد وكل الشعب ! (تصفيق وهتاف)

كل هذه اشياء من المادة حقيرة تداس بالاقدام . انها قوى عظيمة لذلك التنين الخبيث . ولكننا نحن امة لم تخف في الماضي من تنين خبيث وليست بخائفة الان ولا تخاف في المستقبل من اي تنين هائل عظيم ! (تصفيق)

نحن امة كم من تنين قد قتلت في الماضي ولن يعجزها ان تقتل هذا التنين الجديد . قد كان شأن هذا التنين خطرا عظيم الخطر بين مختلف الحزبيات الدينية والعشائرية ، بين مختلف الانانيات الفردية الحقيرة التي لا تسأل عن مصير شعب ولا عن حياة امة .

اما اليوم فيختلف شأن التنين عنه في الماضي ، لانه يرى امامه اليوم شيئا لم يكن موجودا من قبل ــ يرى الحزبيات الدينية تزول وتفسح الطريق للنهضة القومية الاجتماعية المنتصرة ! (تصفيق) ــ يرى السياسات الخصوصية تتفرق من امام الحزب الموحد ، يرى جيشا لجبا تتقدمه رايات والوية تلوح بزوبعة هي رمز دين جديد هو دين الاخاء القومي الصحيح والنهوض بهذه الامة الى سماء المجد (تصفيق)

ان شأن التنين لم يعد كشأنه يوم لم تكن النهضة القومية الاجتماعية موجودة . ان شأنه مع البعل مع الخضر مع مار جرجس هو شأنه مع نهضة تسحق التنين سحقا نهائيا (تصفيق طويل)

ايها القوميون الاجتماعيون ! يا ابناء البقاع !

ان هذه النهضة القومية الاجتماعية تأتيكم برسالة هذا معناها : ان خير هذه البلاد هو لكم لتنتجوه بسواعدكم وتقتسموه بينكم اقتسام الاخوة القومية الاجتماعية . (تصفيق)

ان رسالة هذه النهضة هي انه لا يجوز مطلقا ان يجوع المرء الذي ينتج ليشبع الجياع ! ان من تعاليم هذه النهضة الاساسية ان الارض للامة لا للافراد . (تصفيق حار) .

الافراد هم قيمون على الارض باسم الامة ولها وليس لهم ان يتصرفوا فيما يعرقل تقدمها وفلاحها (تصفيق)

نحن نقول بحياة الامة لا بقتلها ، ليحيا افراد ليسوا من الامة في شيء ، ولا يمكن ان يكونوا ، لانهم جعلوا قضيتهم قبل مصلحة الامة ، لانهم يعملون في سبيل باطلهم (تصفيق)

لا يمكن قط ان يوجه الينا هذا السؤال : ماذا عملتم وماذا تعملون ؟ (اشارة الى ما ورد في كلام بعض الخطباء ان بعض الناس يسألون) ان ما عملناه اليوم كان يعده هؤلاء الكفرة معجزة ستعجز عنه هذه الامة !

ولكن الامة كانت عظمتها على قدر عظمة المعجزة . انها كانت اهلا للمعجزة فاصبح اليوم الجميع ، المحمدي والمسيحي والدرزي ، في نهضة قومية اجتماعية واحدة جعلتهم امة واحدة ومصيرا واحداً . (تصفيق)

اذا كان هذا لا يعد عملا ، فماذا فعل غيرنا ؟ .. وماذا يعمل الذين يسألون ماذا نعمل نحن ؟ نحن لا نركب السيارات الفخمة الى المقاصف لشرب الوسكي وسماع الاغاني الجميلة . نحن لا نذهب الى اجتماعات خفية ونقفل الابواب مع عمال مأجورين للمساومة على مصالح الامة ! نحن نسير على اقدامنا ونعمل في ارضنا ونقف تحت الشمس شرفاء اعزاء ونأبى كل ما يعترض ارادتنا الحقة في الحياة !

نحن نعمل شيئا جوهريا هو وحدة قومية اجتماعية صحيحة ، واذا قلناها سورية فليس ما يضير هذه الجبال . جبال لبنان السورية التي هي اعظم حصن لسورية كلها ، لانه اذا نهض اللبنانيون يشملون بشعورهم وافكارهم كل سورية فليس ما يضير اللبنانيين ، بل ما يرفع شأنهم (تصفيق)

ايها القوميون الاجتماعيون !

الجهلة يتساءلون ماذا فعلتم ! اما الذين يفهمون فقد يعرفون انكم حققتم شيئا اساسيا جوهريا هو وحدة الامة في الشعور والمصالح والارادة . ولا يمكن لامة تحت الشمس ان تحقق مطالبها الا اذا كانت موحدة في عقيدتها . في نظامها ، في مبادئها ، (تصفيق وهتاف)

لا يمكن لقائد ومهما كان عظيما . ان يربح معركة الا بجيش منظم مجهز ، لا يمكن ان يسير قائد الى حرب بدون جيش ونظام ، ان الذين يريدون ان نحارب بلا جيش منشأ ومدرب ، وبغير نظام يريدوننا ان نأتي بجيش من وراء الغيوم ، لانهم فقدوا كل ثقة بالنفس وبالامة . نحن نقول ونؤمن ان الجيش الذي سيربح معركة البعث القومي والنهوض الاجتماعي سيكون جيشا يصعد من تحت الغيوم الى قنن المجد والخلود !

ليست رسالتي ان آتيكم بشيء غير حقيقي . رسالتي هي انتم وايمانكم يثبتان ان ايماني بكم كان في محله .

لم آتكم مؤمنا بالخوارق . بل اتيتكم مؤمنا بالحقائق الراهنة التي هي انتم . اتيتكم مؤمنا بانكم امة عظيمة المواهب جديرة بالخلود والمجد . وان الذين يقولون عكس ذلك هم دجالون يريدون ان يصرفوكم عن معدنكم الصحيح ليستغلوا ما فيكم من شهامة ليسيروا هم الى مآربهم المجرمة !

ايها القوميون الاجتماعيون :

انتم في تاريخ هذة الامة دورها الرابع ، دور تقدم الامة كلها لمواجهة التنين الذي وصفت لكم هوله ومخاطره : البعل ــ مارجرجس ــ الخضر ــ النهضة القومية الاجتماعية هي انتم وايمانكم وما اعطاكم الله .

ان النهضة القومية الاجتماعية وروحها قد وضعت على اكتافكم عبئا كبيرا عظيما لانها تعرف ان اكتافكم اكتاف جبابرة وسواعدكم سواعد ابطال .

اننا نتقدم بنمونا ونتقدم بنظامنا الى المعركة الاخيرة التي سيشهد العالم ويبارك التاريخ حروبها المنتصرة والتي ترفع علم المجد لهذه الامة الشريفة .
هذا ما نفعله نحن وسيرى العالم ويشهد . ولسنا بمستبقي الحوادث نحن نترك للافعال ان تسطر في التاريخ ما نحن وما نفعل .

اذا كنا لا نصيح ولا نولول فلاننا ارقى من جميع هذه المظاهر ، لاننا نعمل بالعقل والايمان والتنظيم النافع وسيرى العالم هذه النتائج وسيكون الانتصار الذي لا مفر منه ولنهتف لهذه الجبال اللبنانية ، العظمة ليس للبنان فقط بل لسورية كلها » (تصفيق وهتاف شديدان) (انتهى الخطاب)

قلت ، ذكرتني المظاهرات الشعبية من المريجات الى قوسايا ، مرورا ببر الياس ورياق ورعيت ، بمظاهرات 1936 ، في صافيتا وتلكلخ ومشتى وبيت الحلو ومرمريتا .. فرددت ما اشبه الليلة بالبارحة !

هذه الجماهير المؤمنة ، تغمرها الفرحة ، نموذج عن جماهير شعبنا في كل مكان . تهلل من صميم قلبها للعظيم ، القائد المنقذ انطون سعاده . ولكن قلة منها ، نخبة منها ، تصمد في الايام الصعبة . انها القوميون الاجتماعيون . يقفون في الفرحة كما يقفون في الشدائد ، اصلب من الحديد واكثر شموخا من نسور الجبال .

ملاحظات

في ختام هذا القسم من المذكرات ، نسجل الملاحظات التالية :

اولا :

اننا توقفنا عند ٢٣ نيسان ١٩٤٨ لان الاتكال على الذاكرة وحدها ، لم يعد كافيا ، لقد كان سعادة والحزب ملء عين الصحافة والصحفيين في لبنان وخارجه ، يكادون يحصون علينا انفاسنا . فلم يعد بالامكان تسجيل الوقائع والحوادث الا بعد مراجعة دقيقة لما كتب حولها او قيل ، لتأتي ذكرياتنا وكأنها نوع من محاكمة او تقويم ما كتب وما قيل او تأكيدا او تكذيبا .

ثانيا :

ان بعض الاسرار الحزبية تدفن مع صاحبها ، لان نشرها قد يؤذي بعض الاشخاص او قد يفسر تفسيرا ظالما من قبل القارىء ، خصوصا اذا كان خصما عقائديا .

ثالثا :

اذا سمحت لنا الحرب القائمة في لبنان ان نعود الى الكتابة ، فسنستأنف كتابة ذكرياتنا ، سواء ما تعلق منها بحياتنا الحزبية ، في اشهر سعاده الاخيرة ، او ما تعلق منها بالمسيرة الحزبية بعد استشهاده لكي يتعرف الرفقاء والمواطنون ومحبو الاطلاع ، على الادوار التي لعبهـــا الحزب وانعكاساتها الايجابية او السلبية على المؤسسة التي كان لصمودها وبطولاتها الاثر الاكبر في الاحداث التي عصفت بلبنان ، وادت الى ما ادت اليه من تقدم وتطور .

عبد الله قبرصي
ايار ١٩٨١

فهرس

المقدمة	9
عودة الى النوم في العراء	13
4 شباط 1942	17
في دنيا الله الواسعة	20
الصنوبرة والمذكرات وعبد المسيح	28
رأيان في المرأة	32
في ضيافة المطران عمانوئيل فارس	38
في ضيافة الفنان يوسف الحويك	42
توسعت آفاق الفرار	46
مفاوضات الاستسلام	56
أفي المعتقل أم في مركز الحزب	60
عارف النكدي وأنيس فاخوري	64
نيقولا الإنسان العادل العاقل	67
أيام الإعتقال	70
تفاحة مي	75
مغربان	79
وديع الياس	82
ديب كربجا	86
السرجانت أولد فيلد Old Field	89
المعتقل والحب	92
الحياة في المعتقل	94
المحامي الكبير نجيب خلف	99

معركة الإستقلال 102
الى المعتقل الأكبر 107
الإدارة الحزبية بعد الإعتقال 113
المهرجانات والسياسات 117
مظاهرات ضد وعد بلفور 120
يوم الشوف 1945 124
ميشال العبد والأحزاب 128
يوم الشوير 131
محاكمة في صافيتا 134
قبيل العودة 137
عودة القائد 141
مذكرة التوقيف 151
أنيس فاخوري 156
انتخابات 1947 160
مع الزعيم أيام التواري 166
محصلة الإنتخابات 173
في الخنشارة 176
صديقي الذي كان . . . 180
تأملات في طرد نعمة تابت ومأمون أياس 185
وجه ملائكي وطفلتان 190
الدكتور فايز صايغ 192
تأملات في طرد فايز صايغ 201

سعاده هو سعاده	206
الحزب في عقل الشعب	210
الحلقات الإجتماعية	218
شاهد	225
مع شارل مالك	229
في ساحة الصراع	232
الدماء وديعة الأمة	235
في ضيافة جورج مصروعة	237
سعاده في ضيافة يوسف الدبس	241
ملاحظات	249

هذا الكتاب

هو الجزء الثاني من ذكريات المؤلف المدوّنة عن تاريخه النضالي الطويل ، مدوّنات سكبها العفو من معين الذاكرة . وتكمن قيمتها الحقيقية في كونها اضاءات بكراً للبناء المدماكي التأسيسي في صرح الحركة القومية الاجتماعية بكل ما رافق تلك العملية النهضوية من تعقيدات . فالفكر يقارع الجهل ، والبطولة تناهض التخاذل ، والحق يتصدى للباطل .

في هذا الكتاب شهادة قائد تعمّد بالنضال ، وقد خُطّتْ شهادته بدم الجهاد اليومي ، فتوهجت حروفها ، وضاقت عن التأريخ .

الثمن 20 ل.ل